السخرية السياسية العربية

Arab Political Humour

السخرية السياسية العربية

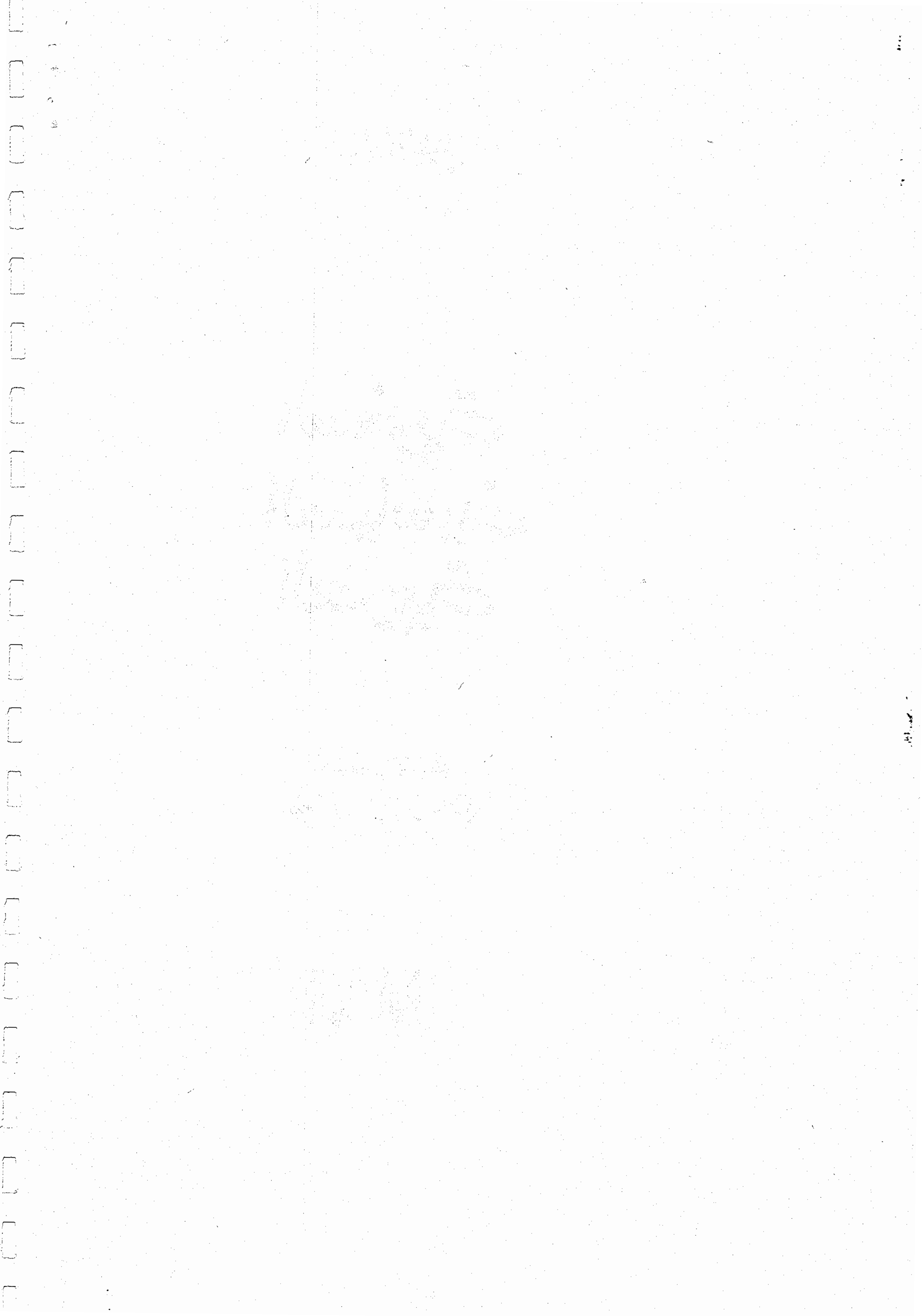
DAR AL SAQI, 26 Westbourne Grove-London W2 5RH

خالد القشطيني

السخرية السياسية العربية

نقله إلى العربية
الدكتور كمال اليازجي

دار الساقي



مقدمة الطبعة العربية

السؤال الذي لا بد للقارىء أن يسأله هو لماذا كتب باحث عربي هذا الكتاب باللغة الانكليزية ليترجمه له باحث عربي آخر الى العربية؟ سؤال له عدة أجوبة. اولها شعوري بعظم ثروتنا الادبية في ميدان الفكاهة والظرف وجهل الغربيين التام تقريباً لهذه الثروة. ولهذه النقطة جانبها السياسي والاعلامي الذي شعرت به أيضاً كمغترب تولى كثيراً من المهمات الاعلامية العربية في لندن. الفكاهة والنكات والتقليعات لا تزيد عند الكثير منا عن كونها مزاحاً عابثاً ومضيعة للوقت وتعرضاً بالعالمين وتحدياً للتراث بل والدين أيضاً. أما الغربيون فيعتبرون الفكاهة وروح النكتة جزءاً اساسياً من الحضارة والفن والأدب ودليلاً على النضوج وسماحة الخلق والميل الى السلام والقدرة على التفاهم العقلاني وبرهاناً على الثقة بالنفس. وعندما يقول الغربيون ان العرب لا يتصفون بروح النكتة وليس لهم ادب فكاهي او مسرح كوميدي، يضعون العرب في اطار سياسي كريه. وسيرى القارىء كيف ان كاتباً مثل مرديث فسر انعدام الكوميديا في الأدب العربي بظاهرة فضل المرأة واحتقار مكانتها عند العرب. وعليه فإن ابراز هذا الجانب من الشخصية العربية والتراث العربي اهم في رأيي من ترجمة المتنبي او ابن رشد او ابن بطوطة الى اللغات الأوروبية.

وهو امر مهم أيضاً من الزاوية السياسية الجماهيرية بسبب نظرة الاحتقار التي اخذ الغربيون ينظرون بها الى أوضاعنا السائدة والتصرفات المزرية التي وقع فيها الكثير من ساستنا وقادة حركاتنا السياسية. ان من الضروري اشهاد العالم بأن هذه الأوضاع والتصرفات تلقى من الجماهير العربية نفس الاحتقار والتسخيف، وان هذه الجماهير تشارك جماهير العالم في ادانتها لها. وهل من عرض واقعي لهذه الادانة احسن من التنكيت الذي مارسه ابناء هذه الأمة واحرارها في السخرية من هذه الأوضاع والمسؤولين عنها؟

السبب الآخر هو شعوري بصعوبة اعطاء هذا الموضوع كامل حقه باللغة العربية بالنظر لمشاكل الرقابة الرسمية وغير الرسمية (وهي اقسى واصعب). لقد تحمس كثير من الناشرين لترجمة هذا الكتاب الى العربية ولكنهم ما ان قرأوه ملياً حتى اعتذروا عن المشروع.

لقد أدى التضييق على التفكير والكتابة الى هجرة المفكرين والمثقفين من العالم العربي ثم هجرة الصحف والمجلات، فهجرة دور النشر، وأخيراً هجرة الكتابة بالعربية. سألني زميل قبل مدة عن رأي كتبته بعد نكسة ١٩٦٧، واستغرب الزميل عندما ذكرت له انني نسيت ذلك الرأي. قلت، «ما الداعي لأن اتذكره؟ انني لا اؤمن بسبعين بالمائة مما أكتب بالعربية» (ويسري ذلك على هذه الفقرة بوجه خاص). اذا كنت تريد ان تعرف حقيقة رأيي فاقرأني بالانكليزية. بدلاً من ٣٠٪ كلام صحيح تحصل مني بالانكليزية على ٣٥٪ كلام صحيح». قال الزميل، «وبس؟!» قلت نعم. لا استطيع ان ارفع النسبة الى أكثر من ذلك، لأن يد الرقيب تلاحقنا حتى ولو جلسنا وتكلمنا باللغة الكجراتية - وهي لغة الببغاء على ما افهم.

يد الرقيب هنا لا تعني يد السلطة فقط بل قد لا يكون هناك مشكلة بين المثقفين والسلطة. المشكلة هي بين المثقفين والمثقفين. انهم هم - وليس رجال السلطة - الذين اتهموا طه حسين ومعروف الرصافي بالكفر، وجمال عبد الناصر والحبيب بورقيبة بالخيانة والعمالة. المعتاد في كل ذي مهنة ان يعمل على تطوير وتحسين آلة عمله. آلة المثقفين هي اللغة. ولكن المثقف العربي يقوم بالعكس فيسعى الى تجميد هذه الآلة وتقليص قدراتها واستعمالاتها. اننا نفهم منع استعمال الكلمات الافرنجية المستوردة ولكن ما هو مبرر منع استعمال كلمات عربية اصيلة استعملها اجدادنا في كل كتبهم الجليلة الذكر. وأشير هنا الى الأعضاء التناسلية والنشاط الجنسي وفضلات الجسم ونحو ذلك. وقد أشار الى ذلك ابن قتيبة، كما سيجد القارىء، فاستهجن مثل هذا التزمت وقال ان العيب ليس في ذكر هذه الأعضاء وإنما في أكل حقوق الناس والكذب عليهم. وأريد ان اضيف فأقول، وفي كبت الحريات والمتاجرة بالأوطان وقمع حقوق الانسان. هذا هو العيب وليس في ذكر الأعضاء التي خلقها الله وذكرها مراراً في مصحفه الشريف. هل أصبحت هذه الصحف الرقيعة والخائضة في الخيانة والدجل اشرف من القرآن الكريم؟ حاشاك اللهم.

الخطر في مثل هذه القيود والسدود، ان الكتابة العربية لن تصبح ميتة ومحنطة

فقط، بل وستقتل الرغبة في الجمهور الى القراءة. وهذا تطور اذا آنس بعض الحكام فينبغي ان يثير الرعب في قلب كل وطني حريص على مستقبل شعبه.

وأمام هذه الوقائع، اضطررنا الى حذف بعض الطرف وتعديل طرف اخرى عند نقلها الى العربية. ويظهر ان هناك عقوبة سيظل يتحملها المواطن العربي طالما اقتصر في ثقافته على لغته القومية وطالما بقيت هذه اللغة وادبياتها المعاصرة خاضعة لمثل هذه القيود. بيد ان القارىء العربي سينعم ايضاً بطرف اخرى جديدة لم يمكن ترجمتها الى الانكليزية فتحمل القارىء الانكليزي عقوبة جهله للغتنا. ولا بد ان نرجو من القارىء الصبر على بعض المقاطع التي قد يجدها بديهية ومعروفة لديه، كالمقطوعات الطويلة من قصائد المتنبي مثلاً. وقد حرص الناشر على ابقائها تماشياً مع النسخة الانكليزية. وما أظن ان أحداً سيملُ من قراءة المتنبي، حتى ولو في معرض الضحك. وكل ذلك يجعل من هذا الكتاب كتاباً مستقلاً عن النسخة الانكليزية له نكهته الخاصة.

الترجمة من العربية الى اللغات الأوروبية تثير مشكلة عويصة وتبلغ هذه المشكلة اقصى صعوبتها عندما يكون الموضوع نكتة أو شعراً هزلياً. وكنت اتصور انني واجهت اعسر مهمة في الترجمة عند صياغتي لهذه النكات والاشعار باللغة الانكليزية ولم أتصور ان وراء هذا العسر عسرا. ولكن ذلك وقع واصبحت المشكلة مشكلتين عندما اقتضى اعادة الترجمة من الانكليزية الى العربية. بالطبع لا مشكلة هناك عندما تكون النكتة أو القصيدة معروفة لدى المترجم. ولكن ما العمل عندما يكون الأصل غير معروف؟ ولحسن حظي انني لم أواجه هذه المشكلة وانما وقعت في أحضان الدكتور كمال اليازجي. ولا بد ان اعترف بأن مسعاه كلل بما يشبه المعجزة في تقفيه للنصوص الاصلية وارتجاله حيث لم يوجد اصل. وفي بعض الأحيان اعاد سبك الرواية كلياً واضفى شيئاً من طرافته على طرافتها. ولم يكتف بذلك بل اغنى الكتاب بمساهمات شعرية جديدة من عندياته كالأبيات الظريفة لناصيف اليازجي، وغيرها مما لن اذكره خوفاً من ان يسمع بذلك الناشر فيمحي اسمي من الكتاب ويضع اسمه بدلاً مني.

وما قلته توا اعلاه يوجز حقيقة هذا الكتاب. انه عمل جماعي ساهم فيه الكثيرون، من المترجم الى الزملاء بما رووه لي من نكات أو ارشدوني الى المصادر.

تصدير

إنّ الكتابة في موضوع الظرف السياسي في العالم العربي، قديماً وحديثاً، مهمة محفوفة بالمخاطر. لكنني اتخذتُ قرار المجازفة في اقتحامها، متحدياً نصائح العديد من الأصدقاء بمجانبة محاذيرها. فقد شعر بعضهم بصدمة عنيفة لمجرد تفكيري في اقتحام موضوع الحس الدعابي، عند النبي محمد وايمّة الاسلام الابرار، ونصحوا لي بأن احصر بحثي في مجتمع العصر الحديث. واحسّ آخرون بصدمة مماثلة لعزمي على التحدث عن الدعابات السياسية التي نسجت حول الزعماء المعاصرين في العالم العربي الحديث، واقترحوا عليّ أنْ أقتصر من ذلك على ما خلّفه زمن النبيّ والايمّة الأوّلين. فهؤلاء، بعد كل اعتبار، هم رجال الله وهم ينقادون في انغماسهم وتسامحهم لروح الله. ثم انهم في عداد الأموات لا رجعة لهم الى صفوف المتقمين في الشرق الأوسط وفي جهات العالم الأربع. ومع ذلك، فمن المحال رسم صورة جامعة لظرف العرب السياسي تمثل نفسيّة الشعوب العربية، ومناحي تفكيرها، ومنازعها السياسية بصدق، دون أن نلقي نظرة شاملة على التاريخ العربي، ابتداءً من ظهور الاسلام على الأقل.

وتبعاً لما يقال من أنَّ الناقد فنّانٌ فاشل، اود أنْ أُضيف الى ذلك من اختباري الخاص، أنّ مؤرخ الظرف السياسي قد لا يكون أكثر من ظريف مُخرَج ومكبل. لكنّني اذ قبلت التحدّي بالعزم على وضع هذا الكتاب، أجد نفسي أمام تحدٍّ آخر لا يقل عن الأول رهبةً، هو الظفر بالمواد المطلوبة له. فالظرف السياسي حقل جديد ـ نسبياً ـ من حقول البحث، قلما فطن له العرب؛ والظفر بمادة كافية له، تصلح للتقييم والتحليل، يفرض على الباحث القيام بغربلة مجموع ضخم من النكات والنوادر والحكايات والأشعار التهكمية، المنثورة في كثير من المؤلّفات والمجاميع.

إنّ النكات والدُّعَابات لم تدوّن يوماً في الوقت الذي اطلقت فيه. فليس لراويها المتأخر معتمدٌ في استحضارها الا الذاكرة. فهي لذلك خاضعة للتغيير المعتاد، الذي

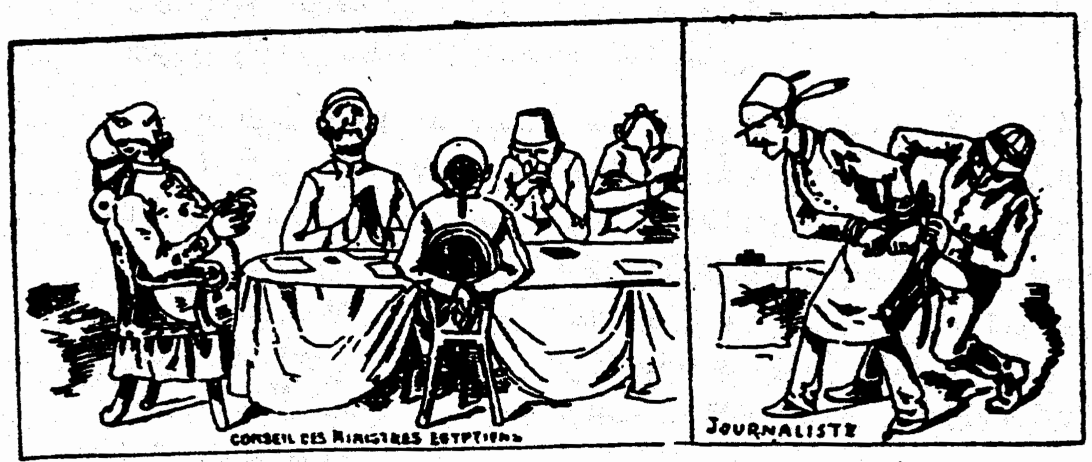
يصيب الأدب المنقول شفهياً، في تحوّله من محدث الى آخر. ذلك أنّ الرواة، كلاً منهم، تبعاً لكفاءته وزمانه، راحوا يروون ما وصل اليهم على هواهم، لا يقيّدهم في اقاصيصهم وزن شعر ولا روي قافية، بل يُجرون في ما ينقلون من التعديل والتحسين ما يحلو لهم بحرية لا تعرف الحدود. وقع مثل ذلك لأشعب كما وقع لشيكسبير وبرخت. ولقد بدا لبعضهم أنّ اضافة الفكاهة الى مشاهير الظرفاء افعل في تأثيرها، فجروا على ذلك في كثير مما حدثوا الناس به. فجاءت من ثم ضخامة التراث الدعابي المنسوب الى شخصيات مثل جحا وابي نواس من مشاهير ظرفاء العرب، على ما يشوبه أحياناً من تعارض واستحالة. فقد وُجِد بالاختبار، أنّ اضافة النادرة الى ظريف مشهور، بدلاً من ارجاعها الى مُطْلِقها الحقيقي، يثير عند سامعها او قارئها مزيداً من الضحك، وذلك بحكم تداعي الأفكار ومشاركة الخواطر. وهذا كله يجعل ارجاع كل نادرة الى مطلقها، وروايتها بنصها الأول، أمراً في منتهى الصعوبة، إنْ لم يكن ضرباً من المحال. ومثل هذا الوضع أكثر شيوعاً في عالم السياسة، حيث يكثر إقدامُ أمّة على استعارة الفكاهة من أمّة اخرى، أو تعمُّد نقلها من مناسبة الى سواها. وبناء عليه، فمن الخرق الفاضح أنْ تعتبر اية اقوال أو افعال في هذا الصدد من قبيل الحقائق التاريخية، إنْ لم تعزّز نسبتها، الى هذا أو ذاك من زعماء العرب، بوثائق مسلّم بصحّتها. ومن العجب أنّ كثيرين ممن اتصلتُ بهم لتحقيق رواية ما، او لامدادي ببعض ما عندهم من امثالها، بادروا الى الاعتذار حالما دروا بمشروع الكتاب الذي أعِدُّ.

قد تكون بعض الفكاهات الواردة ههنا من منشأ غربي، فعلى القارىء - عندها - ان يأخذ بعين الاعتبار اهمية اختيارها واقتباسها وتطبيقها. فمن الملاحظ مثلاً، أنّ العرب اقتبسوا الكثير من نكاتهم، في غضون الثلاثينات والأربعينات، من شعوب أوروبا الغربية، في حين أنهم اتجهوا في اقتباسهم، في أثناء السبعينات والثمانينات، نحو دول اوروبا الشرقية. وهذا الواقع لا ينبىء فقط بنشوء علاقة جديدة لهم بالدول الاشتراكية، بل يُشْعِر كذلك بنفورهم من التطبيقات التي جرت باسم النظام الاشتراكي. إنّ نوع الفكاهة التي يرويها رجل ما، دليل صالح على اخلاقه ومزاجه وظروفه الخاصة. وهذا الواقع الفردي يصدق كذلك بالنسبة الى الأمة جمعاء. وهذه الصورة العامّة هي، من باب أوْلى، تلك التي نحاول رسمها في هذا الكتاب، لا الخصائص الشخصيّة التفصيليّة التي تميّز اياً من الزعماء السياسيين.

اني لدى قراءة الكثير من المجموعات والسير العربية المعاصرة، التي تتسم بسمة

الظرف، لم اتمكن من كبت احساسي بأنّ بعض مدونيها كانوا من اثقل المؤلفين ظلاً. فكان لزاماً عليّ ان اعيد اخراجها في قالب جديد يرد اليها طرافتها الضائعة. وهذا شأن مؤرخي الظرف عبر التاريخ، اذ لا بد لهم من تقديم عنصر الطرافة على واقع التاريخ. ولا اراني بحاجة الى الاعتذار عن هذا التجاوز.

إنّ المؤلف في مثل هذا الموضوع، مهما أكثر من القراءة والتحرّي، لا بدّ من أنْ ينطلق أصلاً من تجربته الخاصة ومعارفه الشخصية. ولمّا كانت اقامتي في ايٍّ من البلدان العربية محدودة المدى، جاء مجموعي المختار من الفكاهات والنوادر بالأكثر، من البلدان التي تهيأ لي أنْ اعرفها معرفة افضل. فتوفري على الاهتمام بالظرف في مصر، وبلدان الهلال الخصيب، لا يعني أنّ سائر البلدان العربية الأخرى، لا سيما دول المغرب، كانت هزيلة الانتاج في هذا الحقل، او ان اهليها مجردون من الاحساس بالدعابة، لذلك اشعر بأنّ اعتذاري اليهم يفوق الواجب لهذا الاغفال ولسواه مما يؤسف له، اذ لم يكن بإمكاني تلافيه.



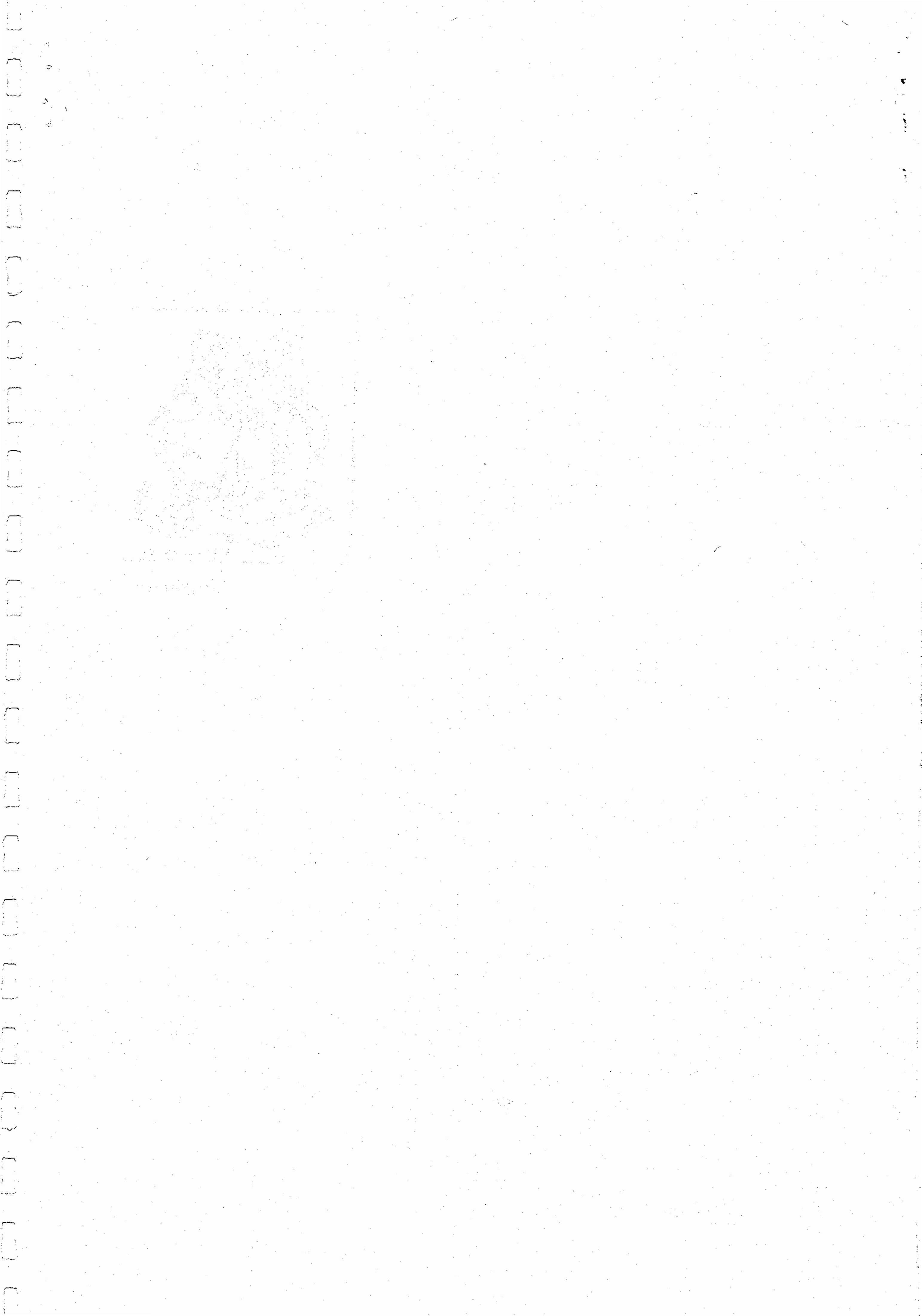
جندي يعتقل صحفياً

رسم كاريكاتوري لمجلس الوزراء المصري في استرخاء تام

«عفو الخديوي»، صورة كاريكاتورية ليعقوب صنوع، ابو نظارة ١٨٨١



جندي يعتقل وطنياً



مَدخـــل

جولة في فلسفـــة الضحك

لماذا اختصّت الطبيعة الانسان وحده بنعمة الضحك؟ الجواب بسيط للغاية:
ليس بين اجناس الحيوان من يعاني من المشقات ما يعانيه الانسان!

احمد أمين

ان الهزل السياسي مرحلة راقية من المزاح، وظاهرة حديثة النشوء في تاريخ الانسان. ذلك أنّ الظرف بالذات انما هو أدب متأخر النشأة، سواء على مستواه الفردي أو على صعيده الجماعي. إنّ الطفل يولد باكياً، ويستمر في البكاء لأتفه الأسباب؛ لكنْ ينبغي لوالديه أن ينتظرا طويلاً قبل أنْ يرمقا على ثغره الابتسامة الأولى. لقد اورثتنا المجتمعات القديمة العديد من الملاحم والمراثي والأناشيد على اختلاف أنواعها، لكننا لا نقع قبل القرن الخامس ق.م على شيء من قبيل المهازل. فقد نقل عن ارسطوطاليس ان الميغاريين نسبوا بدعة الملهاة الى انفسهم، وذلك في عهد الديمقراطية. ولم يكن ذلك بمجرد بلاغة اللسان وبراعة الاخراج، بل لوجود ما يتطلبه الظرف من نقائص في المجتمع، تغري بتغذية الحسّ الفكاهي. وهذا هنري برغسون، وهو احد المفكرين البارزين في تحليل ظاهرة الضحك، قد تتبّع العديد من أسباب الضحك حتى انتهى منها الى مبدأين هما: الصلابة والاسترخاء. فهو يرى أنّ الحياة مرنة طيّعة، والهزل ينصب على ما هو صلب ومتكرر. فعندما تتعرض الحياة والطبيعة لعبث آني، يتهيأ لنا موضوع يستوفي شروط الدعابة. وهو حتى في تحليله للنكات اللغوية الشائعة (ومنها في اللغة العربية ثروة ضخمة)، يردها الى القاعدة نفسها: الحذلقة... التي ليست في الأساس سوى فن يتكلف الزهو على الطبيعة.

تكون الحياة في المجتمع البدائي سلسة وطبيعية، والأعراف طرية، واللغة المتداولة حرة وطليقة. انما عندما تتعقد شؤون الحياة، ويحفل المجتمع بالنقائض والمفارقات، عندها، تنشأ ظواهر تبدو وكأنها في غير مكانها: متنافرة مشوهة، وبالتالي مثيرة للضحك. ان معظم الباحثين النظريين في موضوع الضحك، يركزون في ابحاثهم على فكرة التعارض بشكل أو بآخر، على اعتبار أنه منطلق الظاهرة الهزلية. فالذي يبدو لهم أنّ النكات تنطوي على مفارقات فكرية، واندماج نقائض، او هي، كما يستفاد من قول لثيودور فيشر في المازح، إنّ اشدّ ما يشتهي أنْ يزوّج عروسين يعبس لاقترانهما الاهلون. اما هربرت سبنسر فإنه ينسب الضحك، في مقال له عن «فسيولوجية الضحك»، الى تجمع من الطاقة العصبية ينشأ عنه تحرك عضلي. لكنْ عندما يتحول الوعي من أمر خطير الى آخر حقير، تجد القوة العصبية الفائضة منفذاً لها في حركة الضحك العضلية. ويجوز التمثيل على ذلك بوضع جمهور من الناس يشهدون دكتاتوراً يعثر في ارتقائه درجات المنصّة ويسقط، وهو يهمّ بأن يصدعهم بخطاب آخر من تهويلاته. إنّ اقتران الضحك بالطاقة، ومهمته كمتنفس لطاقة فائضة، قد ردها برغسون الى ما لاحظه من أنّ للضحك أعراضاً تنجم عن جملة من التفاعلات الفسيولوجية، منها: زيادة في افراز الغدد الادرينالية، تكاثر السكر في الدم، تسارع دقات القلب، تغير في حركة التنفس، اعاقة للعمليات الهضمية، تبدل في مقاومة الجلد الكهربائية، تصبب العرق، ظهور للبثور، اتساع في الحدقتين، توتر وارتعاش في العضلات. ولقد بدا لبعضهم ان يحصي عضلات الوجه التي تنفعل بتأثير ضحكة واحدة فإذا هي خمس عشرة عضلة.

ويتوسع آرثر كوستلر في نظرية التداعي الثنائي، الذي تتولد عنه ظاهرة مضحكة. عندما تنشأ فكرة او حادثة عن مصدرين متعارضين. ويضرب على ذلك مثلاً من حادثة وقعت لأحد الاعيان في بلاط لويس الرابع عشر، إذ فوجىء برؤية زوجته بين ذراعي احد الكهنة. فسار بخطى ثابتة الى النافذة، ورفع يده مباركاً مَنْ في الخارج. فصاحت به زوجته: ماذا تعمل؟ فأجابها برباطة جأش: رأيتُ المحترم يمارس عملي، فمارست بدوري عمله!... ويزيد كوستلر على ما تقدم أنْ تفهّم الدعابة يشترط في المرء أن يتخطى الوضع الحيواني، ويكتسب ادراكاً نسبياً للأمن والتعقل. ثم أن شوبنهور، هو الآخر، اخذ بفكرة التعارض عندما وصف الضحك بأنه تفهم مفاجىء للتنافر ما بين تصور الشيء وواقع وجوده. ولقد ردد هذا المفهوم مفكر عربي هو عباس محمود العقاد حيث قال: ان الضحك مقارنة مفاجئة وسريعة ما بين حالة قائمة بين يديك، واخرى ماثلة في ذهنك: وضع راهن وآخر منشود... هذه المقارنة

السريعة الذكية تسوغ فقط لعقل قادر على استحضار صور الأشياء المثالية والحقيقية، واشكالها الصحيحة والمنشودة. ولهذا السبب فإن الرسامين والممثلين الهزليين الذين يستحضرون السياسيين وصغار المستبدين ويصورون هتلر ونابليون، يحملوننا على الضحك.

إنّ النظر الى المزاح من هذا المنطلق، يجعل منه وسيلة طبيعية لاخراج السياسة بصورة فنية وفكرية. فهو، كما يرى كوستلر، يقدّم "عتل على العاطفة، ويدعو الى قدر وافر من التجرّد والنقد الذاتي. وهذا المقام الرفيع للضحك، الذي كثيراً ما يقترن بالتهكّم، قد انكشف بالواقع، ليس لكوستلر وحده، بل لبرغسون أيضاً، وقبله بفترة طويلة لهوبس وجوناثان سويفت.

إن المفارقة ما بين الفكرة والواقع، وبين الطبيعي المنسجم والناشز المتنافر، وما بين منشأ وآخر، إنما تقترن بفكرة المفاجأة او الدهشة، التي كثيراً ما ذكرها الاطباء والفلاسفة. أما ظرفاء العرب من امثال «ابي العبر» فغالباً ما لجأوا الى القلب كوسيلة عملية لإحداث المفاجأة. ولقد لفت الباحثون النظريون من العرب الى ذلك في ما يعود الى القرن العاشر. فأبو حيّان التوحيدي قد ذكر عن الضحك، من حيث هو قدرة واقعة بين العقلانية والحيوانية، أنّ هذه القدرة تنشط في عملها عندما تغشى النفس حالة من الدهشة والاستغراب تدعوها الى البحث عن اسباب ما يحدث. وهي من جهة اخرى، تتصل كذلك بالقدرة الحيوانية. فهذه القدرة تتحرك في اتجاهات مختلفة، تاركة في الانسان، تبعاً لذلك، حالات نفسية شتى مثل الغضب، والفرح، واللامبالاة... الخ. لكنها إذا انجذبت مرة الى الداخل واخرى الى الخارج، نشأت عنها حالات متفاوتة احداها الضحك. فهو انما ينطلق عندما تنجذب القدرتان في اتجاهين مختلفين بحثاً عن السبب. ثم أن ابن المطران، وهو من اطباء القرن الثاني عشر، يشير هو الآخر، في «بستان الاطباء»، الى أنّ الدهشة هي منشأ الضحك: ينطلق عندما تغشى النفس غاشية الدهشة، وتجد أنّ الكلام لا يسعف في التعبير عما تحس. وعلى هذا النحو، فإنّ الذين يعجزون عن التعبير عن الدهشة التي تعتريهم، نراهم يجمعون بين الكلام والضحك ليعززوا قدرتهم على التعبير. كذلك مفكرو العصر الحاضر من امثال لبس وهيمانس، قد وافقوا على أن تصوّر «الدهشة والاستثارة» هو المنشأ الذي ينطلق منه الضحك.

ومنحى هام آخر من مناحي الضحك، متصل بالحياة السياسية، هو طابعه المجتمعي. فنحن جميعاً ننعم بمشاهدة شريط هزلي في دار السينما، اكثر منا في البيت

امام شاشة التلفاز، ونرفع اصواتنا بالقهقهة لنكتة تطلق امام جمهور من الناس، أكثر مما نضحك لها ونحن مع صديق نحتسي كوباً من الشاي، أو عندما نقرأها في كتاب. والضحك ظاهرة استعراضية، وبادرة شعبية، وهو مغاير للبكاء الذي هو شخصي وفردي. قال برغسون «إنّ ضحكنا هو دائماً ضحك الجماعة». وقد شبّه فئة الضاحكين بجماعة الماسون. ومصداقية هذا الوصف تتمثل في ظل القهر السياسي، إذ يتناقل المعنيّون الغمزات واللمزات خلسةً مموّهة بضروب من التلميح، واشتات من الرموز والشعائر. إنّ الاثر المثير الذي تتركه النكتة البارعة، والدعابة الجيدة التي تنطلق في مجتمع ما، هي بالذات ما يستمرئه معظم السياسيين ويحاولون استغلاله.

ولقد اشار اكثر الفلاسفة الى الاثر التصحيحي الذي يتركه الضحك. واخذوا، حتى في الزمن الحاضر، بالنظرية الارسطوطالية حول هذا الموضوع. فقد زعم القدماء أنّ حالات الانسان النفسية مرتبطة بالتوازن بين اخلاط الجسم الاربعة: الدم، والبلغم، والمِرّة الصفراء (الغضب)، والمِرّة السوداء (الكآبة). فأية زيادة في احدها على البواقي تتسبب بضرب من الشذوذ، يستطاع تصحيحه بابرازه لصاحبه عن طريق التهكّم او الضحك. فالملهاة، في ما رأى ارسطوطاليس، قائمة على ما هو مثير للضحك، وهو اما نوع من الخطأ، او ضرب من التشويه، يتمثّل ببعض البلهاء يسقطون في خطأ، أو يتّسمون بقبح يفضي بهم الى كارثة. ومثاله القناع الهزلي، فهو قبيح ومشوّه، لكنه غير مؤلم. ولقد اقتبس العرب تعاليم اليونان، ونوّهوا باصل الضحك الفسيولوجي ونظريّة الاخلاط الاربعة. ولقد تكهّن ابن المطران بأنّ الدم الجيد يولد الفرح، والفرح يبعث الضحك. وجرى مجرى سواه من اطباء العرب، فرفع من شأن الظرف، واوصى بالانتفاع به. ولقد نسج مفكرو العصر الوسيط وكتّابه على هذا المنوال، وتوسعوا في فضيلة الظرف وطبيعة الضحك العلاجية.

ومع أنّ جانباً كبيراً من المراهنة على الضحك، باعتباره عاملاً تصحيحياً، قد تهافت، فإن الاعتقاد بما له من منفعة قد استمرّ. فبرغسون، في دراسته العريقة للضحك، تابع رأيه في مبدأ الصلابة، فذكر أنّ الملهاة هي علاجها الناجع. ذلك أنّ المقصود بالدعابة غافل عن هفواته، وبتعاظم غفلته عنها، يزداد وضعه اثارة للضحك. لكنه حالما يتنبّه لهفواته المضحكة يعمد الى تصحيحها. ومن هنا كانت اهمية الملهاة وفاعليتها في تصحيح التصرف الانساني.

إن النكات تمثّل ثورة على السلطة، وتحرّراً من نيرها. وهذا يعلل لنا توالي استخدامها ضد ذوي الوجاهة واصحاب السلطان. فالنكتة بتعبير فرويد، «تتيح لنا

استغلال ظاهرة مضحكة في خصمنا لا نقوى على كشفها جادين متعمدين، لما يعترض سبيلنا من عقبات... فالنكتة تتفادى القيود، وتتخطى العقبات، وتفتح في وجهنا ابواباً للبهجة كانت موصدة دوننا. وهي فضلاً عن ذلك، تغري ضحية دعابتنا، لما توفره من بهجة، بالانضمام الينا...» وعبارة فرويد الأخيرة هذه، تعبير جديد عن فكرة لارسطوطاليس، تذهب الى أنّ «الاقوال الدعابية، مع انها قد تتعدى حدود التصديق، إلا انها تبدو مقنعة لأنها تثير الضحك».

إنّ الكثير من السياسيين وكتاب السياسة قد تنبه الى هذا الواقع، وحذّر من ضراوة النكات السياسية المموهة. واستخدام الظرف كسلاح فتّاك قد شاع في كثير من البلدان، ومنها العالم العربي، حيث ما زال العديد من المجلات والصحف تتصايح مطالبة باطلاق هذا السلاح الذي طالما اوصد الحكام الحاليون دونه الابواب.

ومع ذلك، فالذي يبدو، أنّ ثمة مغالاة في مدى فاعلية المزاح كضرب من العلاج. وربما كان العكس هو الصحيح. فقد ينكشف لنا أن التنكيت في موضوع ما، لا يخلو أنْ يكون نوعاً من الهروب. ولقد رأينا كيف أنّ محلّلي الظرف العصريين يردّون الضحك الى اطلاقٍ هادىءٍ لطاقة سبق حشدها لمواجهة أمر اشدّ خطراً. فالمحدّث الظريف يستطيع بسهولة أنْ يصرف غضب خصمه بدعابة يرسلها، او نكتة يطلقها. ولقد قال العرب: إنّ اللصَّ البليغ لا يتعرض بالضرورة لعقاب قطع اليد. والسياسيون يعرفون ذلك. ويميلون الى الأخذ به كلما شعروا بالعجز عن الرد بجواب مفحم. ومن هنا كان لجوء بعض كبار البرلمانيين، من مثل دزرائيلي ولوِيْد جورج وتشرشل وبيفن، مراراً وتكراراً، الى الدعابة. إنّ الضحك يتصل حقاً بالتفكير، بل بمستوى رفيع منه. لكن الظرف قد اوجد من سحر فاعليته قدرة على توجيه قوة التفكير في كل اتجاه. فالهروبية هي التفسير الواضح لمعظم انواع الدعابات العالمية، كالتي تروى عن الحموات ورابطة الزواج. فالنكتة في مثل هذه الحالة هي الهروب الوحيد، غير الملطخ بالدم، من وضع لا مفرّ منه. فإنْ تعلم المزيد من الرجال اطلاق الدعابات، فإنّ القليلات من النساء يتعرّضن للعنف. وقس على ذلك النكات التي توجّه الى الاقليات، والى الامم المجاورة. إن اليونان اول امة سجلت تهكمها من الاغراب، وذلك بالسخرية من «بربرة» الغزاة الغجر في نطقهم... بر... بر... بر ومن هنا جاءت تسميتهم بـ «البرابرة». لكنهم لم يكونوا في غنى عن استخدامهم، والاتجار معهم، والعيش الى جانبهم.

إنّ الظرف بهذا الاعتبار، وكما يصفه فرويد، مفيد ولا بد، في تحويل الميول

العدوانية والشهوانية عن مسارها. لكنّ فاعليته كسلاح ماضٍ في محاربة الظلم، تفتقر الى اثبات. فالناس إنما يتندّرون على قاهريهم، لا لكي يطيحوا بهم، بل لكي يتحملوا كيدهم. وبمقدار ما يصمد النظام العاتي يكثر اللجوء في مقاومته الى التندّر. واذن فشعار رختر القائل بأن «الحرية تولد الظرف، والظرف يولد الحرية»، لا يستساغ إلا بكثير من التجوّز. فكثيراً ما سمعنا بأداءٍ مسرحي او موسيقي، انتهى بمظاهرة وبصدام، لكننا لا نزال في انتظار ان نسمع بأداءٍ هزلي يتحول الى غيظ او ينتهي الى مشادّة. لا شك في أن الملهاة تثقّف الناس، وتركّز اهتمامهم على قضية متداولة، ولكنها نادراً ما تكشف لهم عن امرٍ لم تسبق لهم معرفة به. ان الذي القى ضوءاً كاشفاً على كارثة المشرّدين، وخيبة الناشئين، انما كان مسرحيّات جادّة مثل «كاتي: عودي الى البيت» و «إلتفت الى الوراء غاضباً»، لا المشاهد الهزلية المرحة، ولا الرسوم المتحركة المضحكة، التي تعرض على شاشة التلفاز الصغيرة. إنّ النكتة، بحكم الواقع، تفترض مقدماً، وجود وعي سابق للمشكلة الماثلة في ذهن السامع، وإلا جاءت غثة باردة، وكانت نكتة فاشلة. وعليه، فإنّ الحكام يقعون في خطأ فاضح، إنْ هم سمحوا لحساسيتهم، انقياداً لنصح مضلل، أنْ تطغى على رصانتهم وتدفعهم الى قمع ما قد يكون لهم فيه بعض المنفعة.

في العالم العربي المعاصر، تتوفر جميع الاسباب الفعلية التي تُلْحِق الظرف بالسياسة. فهنالك الثغرة الواسعة ما بين الوعود السابقة والآمال المنتظرة، والماضي المجيد والموارد الضخمة، والموقع الاستراتيجي والامكانات البشرية، من جهة؛ والفوضى السياسية والحكم القهري، والتمزق الاجتماعي والفتك بابناء الوطن، وسلسلة طويلة من الاخفاقات والهزائم، من جهة اخرى. وهذه الصورة مطابقة، ولا شك، للتعارض ما بين التصور والواقع، الذي هو منطلق الضحك. يضاف الى ذلك أنّ العرب، كما يبدو، يجدون انفسهم في وضع لا مهرب لهم منه. فقد رصدوا الكثير الكثير لمقاومة اسرائيل، لكنهم يجدون انفسهم اعجز فاعجز عن أنْ يحققوا القليل القليل. فالوعود بتحقيق العدالة والرفاهية، قد اعترضتها قرون من الفساد والعشائرية، والتشوّق الى الديمقراطية والحرية قد حال دونه تاريخ طويل من الحكم الاستبدادي. فحرمان المواطن من حرية الرأي والانتقاد والتعبير عن النفس، لم يترك له من الخيارات سوى الهروب. فارباب الامكانات والبراعات تمثل هروبهم بالهجرة، والاتقياء آثروا الانكفاء الى الاصولية، والفساق التمسوا الانغماس الجنسي ومعاقرة الخمور وادمان المخدرات، والفقراء الضعفاء اعتصموا بالبكاء والتشكي، اما العقلانيون والظرفاء فاختاروا المزاح والضحك.

Le Journal d'Abou Naddara

FONDATEUR

PARIS

ABONNEMENTS :

Lire à la 2me page nos intéressants articles : « L'Union Française à Constantinople » et le « Baptême du Prince Boris ».

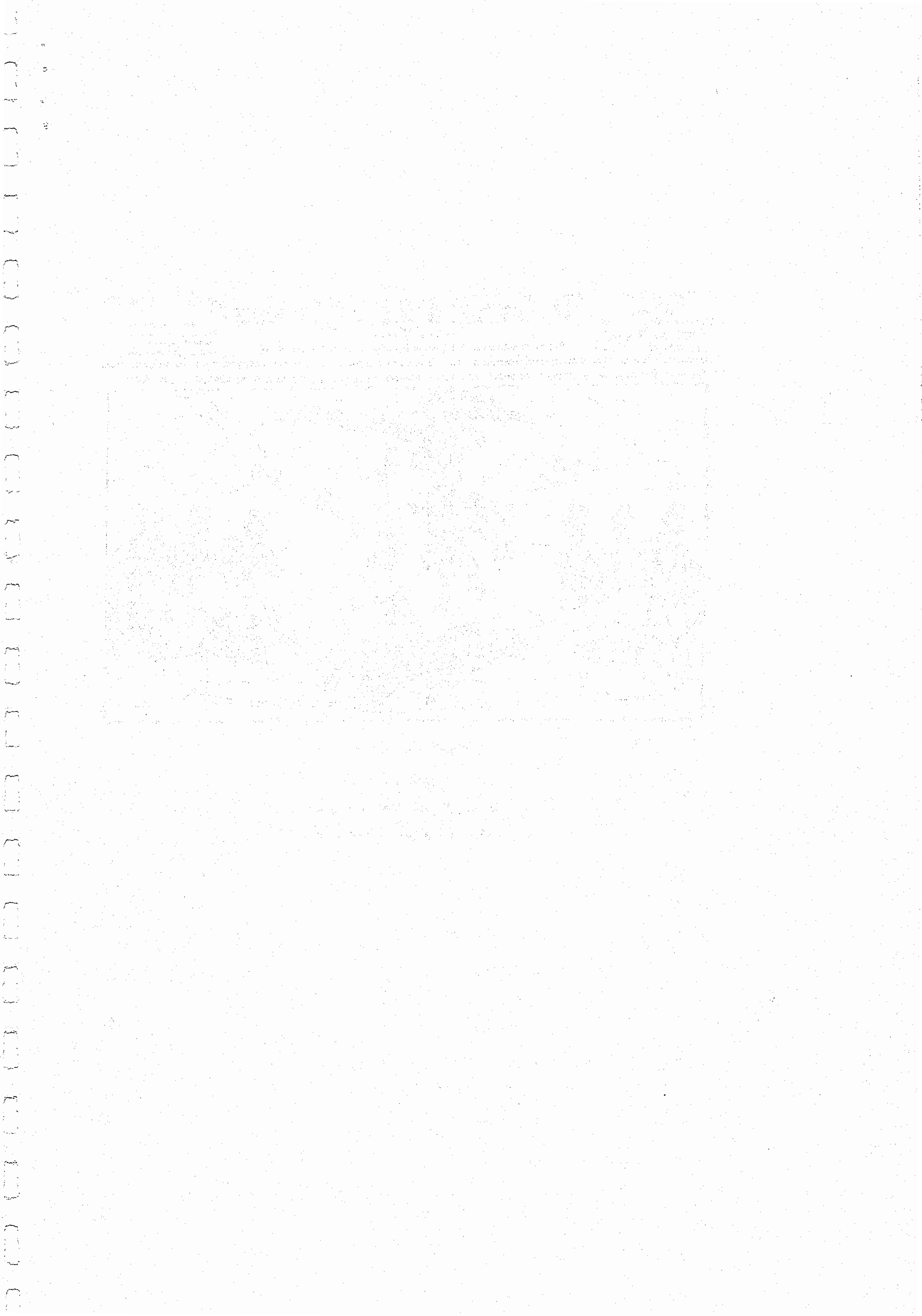


صحيفة «ابو نضّارة»

رسم هزلي

ابليس يحمل اعداء مصر الى الجحيم

يعقوب صنوع، ابو نضّارة. ١٨٩٦



الفصل الأوّل

الظريف، وخصائص الظرف العربي

إذا مر بك حديث فيه افصاح بذكر عورة او وصف فاحشة، فلا يحملنّك الخشوع او التخاشع، على أن تصعّر خدّك وتعرض بوجهك، فإن اسماء الاعضاء لا تؤثّم، وانما المأثم في شتم الاعراض وقول الزور، واكل لحوم الناس بالكذب.

ابن قتيبة

في الجدال الطويل الذي شعب، في عهد الامبراطورية العربية الذهبي (من القرن الثامن الى العاشر). بين العرب والشعوبيين، دافع الناطقون باسم العرب عن تفوّق العقل العربي، مستظهرين ببلاغة الادب العربي القديم. وكان الجاحظ في طليعة هؤلاء المدافعين، فميّز بين تراث العرب الادبي وتراث الشعوبيين، بقوله في كتابه «البيان والتبيين»: «إنّ العرب اهل اللسان» - يريد: اللغة والادب. هذا الحكم الجارف كان مقبولاً انذاك بوجه الاجمال، لأنّ الادب العربي كان قد اصبح من ذخائر الروائع الانسانية. على أنّ العرب، مع هذا الغنى والتنوع في ادبهم، قلما اقترنوا في اذهان الغربيين بأدب الظرف والدعابة، الذي يشكّل عادة جانباً كبيراً من ادب سائر الامم، ومن تراثها الشعبي. وربما كان العكس اصحّ. ذلك أنّ الصلابة والجديّة، والكآبة والعبوس... الخ، هي بوجه العموم، الصفات المرجح اقترانها بالمزاج العربي.

إنّ البدو من سكان شبه الجزيرة العربية، الذين يعيشون متنقلين ابداً في طلب الماء والمرعى، لم يكن بامكانهم انتاج شيء من الفنون - التي هي وليدة الحياة المستقرّة - مثل البناء، والنحت، والرسم، والمسرح. فالفن الوحيد الذي كان بامكان البدويّ انتاجه هو ذاك الذي يتطلب اقل ما يمكن من الحمل والوزن والمساحة. ولقد بدا له أنّه

في الحيز المحدود من دماغه، يستطيع أن يحشد الالوف من ابيات الشعر، والملايين من الالفاظ التي يستطيع، في طرفة عين، أن يثرها، ويؤلف منها بلحظة، ما يبعث في نفسه غاية السرور. فلكي يملأ الفراغ المنبسط حوله من منقطعات الرمال، استنبط من هذا الرصيد الممتع، عالماً سحرياً تجريدياً من الالفاظ، تحولت به اللغة من وسيلة للتعبير، الى غاية تفيض بالبهجة. ومن الواضح أنّ الذي يتوق اليه المرتحل في البادية، انما هو الصوت البشريّ، مهما كان مضمونه.

والى جانب تجوال العرب من سكان البوادي، في طلب المراعي، اشتغل سكان الجزيرة العربية في مرفق آخر، هو التجارة. وقد اشار كارل كاوتسكي في كتابه «اصول المسيحية»، الى انه، خلافاً للمزارعين والصناعيين، الذين ينتجون سلعاً مادية محسوسة فيجيءُ من ثَمّ تعبيرهم عن ذواتهم بصور محسوسة، فإن ارباب التجارة يتعاملون بالنقود وهي اكثر الممتلكات تجريداً، وبالبضائع، وهي لا تتعدى، بالنسبة اليهم، كونها ارقاماً عددية او صناديق وطروداً، يجهلون ما في داخلها. واذن فكل ما كان لهؤلاء العرب تواطأ ليجعل كل اتصال فني سابق في ذهن العربي من قبيل المجردات. فالجبر، والموسيقى، والشكل الهندسي، والزينة التناسقية، والتوحيد الصارم، والشعر الايقاعي، والأوزان الهندسية، والمناظرات اللغوية، والمجازات المتشابكة، جميع هذه اصبحت لدى العرب مباهج فكرية.

وفيما اثارت فروع الجبر والرياضيات والهندسة والفنون الزخرفية، الجنس البشري واغتته، فانّ الفروع اللفظية لم تترك سوى اثر هزيل في الجماهير الناطقة بغير العربية. وليس ثمة مثال على ذلك اوضح من القرآن نفسه. فهذا الكتاب الكريم، يعتبر بفضل ميزته الفنية والادبية وحدها، معجزة النبي محمد (ﷺ) الكبرى. فألفاظ القرآن هي الفاظ الله نفسه، ولا يستطيع كائن بشري أن يجيء بما هو قريب من بلاغتها وروعتها الالهية. لكن، مع ذلك كله، في اعتبار اكثر الاوروبيين فإن القرآن الكريم، مترجماً الى لغاتهم، من اكثر الكتب غموضاً.

إنّ العربية قد فقدت مهمتها نوعاً كأداة تعبير عملية بيد الانسان، وقدر لها أن تتكيّف وتتشكّل كقطعة عجيبة من الطين بين يدي المثّال. وهذا مفاده، في ما نحن بصدده، ان الجانب الاكبر من العبقرية العربية، الادبية واللغوية، تتوقف على جمال الالفاظ ووقعها، وعلى جرسها وتنسيقها، ثم على ايقاعها وتناغمها. وعلى ذلك، فالصيغة اللفظية تجعل مهمة المترجم مستحيلة، وغرض القارىء الغريب بعيد المنال. ولقد ذكر الجاحظ في «كتاب الحيوان» أن المترجين اذا نقلوا ما في الشعر من حكمة،

فان المعجزة التي هي الوزن تسقط، ولا يبقى لهم منه شيء مما لم يرد في كتبهم. وهذا الحكم يصدق على الكلام الالهي، كما يصدق على الكلام القبيح، وينطبق على روائع الشعراء، كما ينطبق على طرائف الظرفاء.

إن دقة حروف الهجاء العربية وتداخل بعضها في بعض، فضلاً عن سقوط الحركات والضوابط في الكتابة العادية، ساعد على استنباط ما لا يحصى من النكات والدعابات التي تختص - طبعاً - بالقارىء العربي. فانت بازالة نقطة من حرف معجم او اضافة نقطة الى حرف حالٍ، او ابدال حركة من اخرى، تستطيع أن تتلاعب بالمعاني كما تشاء، وتولِّد منها ما يحلو لك من الدعابات والمكايد. نمثل على ذلك بابيات نظمها الشيخ ناصيف اليازجي، وبنى عليها عقدة حكاية اوردها في المقامة الثالثة عشرة من كتابه «مجمع البحرين» وهي ابيات مدح تتحول بالتصحيف والتحريف الى ابيات هجاء، نظمها الشاعر في الرواية مدحاً، فنقلها ظريف خبيث الى الممدوح هجاءً بعد تصحيفها وتحريفها؛ واليك القصيدة بنصِّها:

قال الشاعر مادحاً:

مَنْ رام ان يُلْقي تباريحَ الكُرَبْ ... من نفسهِ فليأتِ أَحلافَ العَرَبْ
يرى الجَمَالَ والجَلالَ والحَسَبْ ... والشِعرَ والاوتارَ كيفما انقلبْ
أَشرفُ أهلِ الارضِ عن أُمٍّ وأَبْ ... وأَسمَحُ الناسِ وأجرى من يَهَبْ
لا تُعْرَفُ الاقذارُ فيهم والرِّيَبْ ... ولا يُبالونَ باحرازِ النشبْ
لكنْ يغارون على حفظِ النسبْ

فقال الظريف هاجياً:

من رامَ أن يَلْقى تباريحَ الكُرَبْ ... من نفسهِ فليأتِ أَجلافَ العربْ
يرى الجمالَ والجلالَ والخَشَبْ ... والشُعرَ والاوبارَ كيفما انقلبْ
اسرقُ اهلِ الارضِ عن أُمٍ وأَبْ ... واسمجُ الناسِ أَخزى من نَهَبْ
لا تُعرَفُ الاقدارُ فيهم والرتبْ ... ولا يبالون باحرازِ النسبْ
لكن يغارون على حفظِ النشب

والفروق بين النصين لا تتجاوز بعض النقاط والحركات. وغنيٌّ عن البيان أن امثال هذه الفروق لا تنقل الى لسان آخر.

إنَّ العرب يجدون متعة بالغة في هذا النوع من الظرف اللغوي. فالنحو العربي،

وهو الموضوع المحبّب الى قلوب ادباء العربية، يفرض اجراء تغييرات مثيرة في حركات الالفاظ تبعاً لجنس الاسم، وزمن الفعل، وصيغة اللفظ، ووظيفة الكلمة، في الجملة. يضاف الى هذا التعقيد المربك، الاغفال المعتاد للحركات والضوابط، مما قد يغيّر المعنى إن لم يقلبه الى نقيضه. فالمكرِم بكسر الراء - مثلاً - فاعل الاكرام، والمكرَم بفتحها: متسلم الاكرام. والفارق بينهما حركة، إذا لم توضع، وقع التباس لا تزيله إلا القرينة. وموالاة الحركات الثلاث على الضمير المتصل بالفعل الماضي (تِّ) تنقل العبارة من صيغة المتكلم، الى المخاطب، فالى المخاطبة. ولا بد من فهم القرينة لضبط اللفظة بالحركة الصحيحة. لذلك قال الاديب الكبير طه حسين بحق، أن سوانا من الناس يقرأ ليتعلم، فيما نحن نتعلّم لنقرأ. وهنالك ادوات استعصت احكامها حتى على كبار النحاة مثل «حتى»، فهي تأتي على وجوه كثيرة ولكل من هذه الوجوه عمله في العبارة. فقد روي عن احد كبار اللغويين انه قال متحسراً وهو على فراش الموت: اموت وفي قلبي شيء من «حتى». وحوّل بديع الزمان الهمذاني هذه الكلمة الى شتيمة: «يا اقبح من حتى في مواضع شتى». على أنّ هذا التشويش والابهام والالتباس الحتمي الصادر عن هذه المجاهل اللغوية، قد اتاح مجالاً خصيباً لنوع جديد من الظرف، هو الظرف اللغوي.

وشبيه بالظرف اللغوي، الظرف المستنبط من اسماء الاعلام. فالاسماء العربية يغلب أنْ يكون لكلٍ منها معنى. فحسين، وصادق، وجميل، وخالد، وسعيد، ومحمد، وسالم، اسماء شائعة، ومعانيها معروفة، مما فتح للظرفاء مجالاً واسعاً للتندُّر. فالرئيس العراقي الاسبق، عبد السلام عارف، عكس الشاعر الجواهري مدلول اسمه في قوله: «يا عبد حرب وعدو السلام يا خزي من صلّى وزكى وصام». وفي اثناء النزاع بين مصر وتونس، في غضون الخمسينات، سنح لاحد الممثلين الهزليين في مصر، أنْ يسخر من أسم الرئيس التونسي «بورقيبة» فقد بنى احدهم حوله حواراً مع ممثل آخر في الاذاعة المصرية، سأل فيه:

- انت تعرف الراجل ده بورقيبة يسموه بورقيبة ليه؟
- علشان رقبته طويلة.
- لا
- علشان رقبته قصيرة.
- لا.
- علشان رقبته غليظة.

ـ لا، يا خويه.
ـ طب، ما تقول لي انت. يسموه بورقيبة ليه؟
ـ يسموه بورقيبة علشان رقبته بيد الاستعمار.

ولم يبطىء بورقيبة في مقابلة التهكم بمثله، فسخر من تسمية مصر آنذاك بـ «الجمهورية العربية المتحدة» متحدة مع من؟ وكان اتحادها مع سورية قد سقط، ولم يبقَ منه إلا الاسم الجديد. ولعب يعقوب صنوع رائد الصحافة الساخرة في القرن التاسع عشر باسم الخديوي توفيق فكان يسميه توقيف كما كان يسمي اللورد كرومر «لورد كرنب».

ثم أن كراهية القدماء للصناعات على اختلافها، واحتقارهم لاربابها، فتح منطلقاً آخر للسخرية. فالسيد العربي النبيل في اعتبارهم، لا يجمع امواله بالعمل اليدوي. ولهذا فالعرب الاصيلون تكثر بينهم الاسماء من مثل: صخر وسيف واسد. وليس منهم من سمي بخياط وحداد ونجار. وشيوع مثل هذه الاسماء انما يكثر بين الهجناء من سكان المدن. وعلى ذلك، فالاتصال بمثل هذه الصناعات، على وجه ما، والعمل بأية واحدة منها، كائنة ما كانت، قد فتح مجالاً رحباً لسخرية سهلة وتهكم جارح. مثال ذلك أن رئيس الوزارة الاسبق، عبد الرحمن البزّاز تحمّل الكثير من التهكّم في حملته الانتخابية، بسبب اسمه: «البزّاز» أي بائع الاقمشة. ثم إنَّ بعض ظرفاء العراق، عندما اكتشفوا أن والد عبد الناصر، زعيم مصر، كان «بوسطجياً» (موزع بريد) عمدوا في اثناء النزاع الذي استشرى بين العراق ومصر، عام ١٩٥٨، الى التعريض بالزعيم المصري، بإذاعة اغنية اسمهان المعروفة: «البوسطجية اشتكوا» مراراً وتكرارا.

كان القرآن الكريم، منذ ظهور الاسلام، كتاب التعليم الاول في العالم العربي، وكثيرون من المسلمين يحفظونه غيباً بكامله، أو على الاقل اجزاءً منه. والشواهد من اياته ومن الشعر القديم قد شغلت حيزاً هاماً من حياة العرب ومن ادبهم. مما مهد الطريق لنمط آخر من الظرف، قائم على الاغراق في تداول النصوص الدينية والشواهد الشعرية. وهكذا فإن التطبيق الدعابي الملتوي، للنصوص الدينية المقدسة الذي كان معروفاً في العصر الوسيط، في اوروبا وفي سواها من اقطار العالم، فقد تردد على نطاق اوسع في العالم العربي، لعظم انتشار القرآن بين الناس، وسهولة وصوله اليهم. فكل هذا التراث الضخم من الدعابات والطرائف، الصادرة عن سوء تطبيق الشواهد الشعرية والآيات القرآنية، هي من خصائص الظرف العربي، وقد فات الاغراب، لأنهم يجهلون ملابسات الشعر ومضامين الآيات. إذ أن قولنا «ويل للمصلين» في اشارة

لمن يقول نصف الحقيقة ويهمل النصف الآخر «الذين عن صلاتهم ساهون» فيصبح المعنى معكوساً تماماً. قولنا هذا ومثله اللعب بالالفاظ والنصوص لا يترجم الى اللغات الاجنبية. على اننا ههنا، امام تراث من الادب والظرف، ابدعته امة يفصلها عن اوروبا واميركا المعاصرة زهاء عشرة قرون، وبضعة الاف من الاميال. والملهاة، بحكم اعتمادها على المواضيع الراهنة، والاحوال الجارية، والشخصيات المعاصرة، في كل زمان ومكان، يتحتم أنْ تكون اكثر الفنون تحوّلاً، واسرعها زوالاً. فالدعابات التي تخلفت مثلاً عن خصومات طويلة، ما بين مختلف الطوائف والعشائر، تحتاج الى شروح مسهبة، لتصبح قريبة من افهام اكثر القرّاء المعاصرين. وهذه الصعوبة تمتد من المضمون الى الاسلوب، لأنّ المفهوم الغربي للظرف والدعابة، والسخرية والملهاة، فضلاً عن المحاكاة الهزلية، لا يُطابق تماماً المفهوم العربي للفكاهة والمزاح، والهزل والظرف... الخ. وليس ثمة اجماع على مضامين التعابير الغربية. وانا لن احاول أنْ احدّد التعابير العربية. لكنني ارى أنْ التقصير الفاضح في الجانب العربي هو غياب الملهاة. فالمسرح اصلح مكان لانطلاق الافكار الغنية بالدعابة، ولتفاعلها. ولقد اصاب برغسون حين قال: «أن الامة الفكهة هي، بحكم الضرورة، امة تهوى المسرح». وصدق جورج مرديث، عندما لفت النظر، في محاضرة له عن فكرة الملهاة، الى اهمية دور النساء في الملهاة انه يجعل الفنّ الدعابي أحبُّ صديق للجنس اللطيف. ثم اخذ يروي كيف ان محاوراً عربياً ثارت ثائرته، عندما لُفِت الى ما قد يجني العرب من الفوائد إن هم حرروا نساءهم... «فحيث الحجاب يستر وجوه النساء، لا يمكن أن ينشأ مجتمع، وبدون مجتمع، تستضري الاحاسيس، وتدفع بروح الدعابة الى قناة الفظاظة ليطفىء عطشها. فالعرب، بهذا الاعتبار، اسوأ من الايطاليين، واسوأ جداً من الالمان، وذلك بقدر نسبة سوء معاملتهم للنساء. لقد كان في بغداد مزاح يتمثل في حكايات «الف ليلة وليلة»، ولكن لن تنشأ حضارة حيث تغيب الملهاة، لأنها انما توجد حيث تتوفر بعض المساواة الاجتماعية بين الجنسين».

لكن مرديث لم يكن ضليعاً. لا في الأدب العربي، ولا في تاريخ العرب. فأخطأ في ما ذكر عن جهل العرب للمسرح، وأخطأ كذلك في امر آخر، هو ان الاستبداد في الشرق تناول المرأة وحدها، في حين انه عم المجتمع بأسره. ان تطور المسرح متصل اتصالاً وثيقاً بتطور الديمقراطية وقبول التعددية واطلاق حرية النقاش والرد... واحترام آراء الآخرين، والايمان بأهمية العمل الجماعي. هذه هي علّة ازدهار المسرح في بلاد اليونان، واوروبا الغربية، وديار الانكلو ـ سكسون. لكنّ النزعة الفردية المتطرفة في النفس العربية، وقساوة حياة البدو في الصحراء، وطغيان روح الاستبداد في الشرق، قاومت جميعها نشوء المسرح، واعاقت المنحى الهزلي من هذا الفن الراقي. وهذا

مناخ. ففي مَثَل عربيٍّ قديم: ان الرجال لفي سجن الى ان يغمرهم الظرف. والمؤرخون يوردون نماذج كثيرة من النكات العربية القديمة، يروون بعضها عن النبي محمد (ﷺ) نفسه. فالنبي ربما كان الوحيد بين الأنبياء، ممن عرضت في سيرتهم نماذج من النوادر وأرباب الظرف. وهو أمر متوقع من شخص موهوب بحس شعري مرهف. قال مرة لرجال يسعفون بعض النساء على ركوب الخيل: رفقاً بالقوارير! وفي مناسبة أخرى قال لرجل يقاضي زوجته بجرم النشوز: هل رأيت الميل في المكحلة؟ ان الرجل الفكه لا يملكه الغضب. والنبي لم يُعرَف عنه مطلقاً انه انفعل ففقد اعصابه، مع كل ما تحمله من التحديات والاساءات. وقد كان ينعم بكثير من الانفتاح والتسامح والتساهل وسعة الصدر. وكان من شأنه المزاح مع صحابته، يضحك لنوادرهم ويوصي المؤمنين بالمزاح. قال لهم: «روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلت عميت». وفي حديث آخر جمع بين الظرف والفلسفة، قال: «انا امزح ولا اقول غير الحق».

وكثيراً ما كان نصح النبي مقروناً بالمرح البريء، وتنكيته بالتوجيه العملي. ذكر النويري ان النبي قال مرة لامرأةٍ من الأنصار: «الحقي زوجك ففي عينه بياض». فاندفعت الى البيت ليقول زوجها لها: إن في عيني بياض، لا سوء. وألتقى يوماً بامرأة عجوز فقال لها: العجائز لا يدخلن الجنة. واذ كاد الحزن يقتلها، سارع النبي الى القول: ففي القرآن أنّ جميع النساء يعدن في الجنة الى شبابهنّ، وذكرها بالآية الكريمة «إنا انشأناهن نساء فجعلناهن ابكاراً عرباً اترابا». ولقد روى ابن قتيبة كيف أنّ النبي بقي يضحك سنة كاملة، لاحدى نوادر نعمان المازح، عندما باع بدوياً رجلاً من الأحرار كعبد. والمؤرخون يصفون النبي محمداً (ﷺ) في مناسبات كثيرة يضحك من كل قلبه، وبكل جوارحه حتى تظهر ثناياه.

وفي رواية بريئة، روي ان الرسول وقع هو في مقلب من مقالب نعيمان الانصاري عندما صادف هذا المنكت بدوياً يبيع جرة من العسل فاشتراها منه على ان يستلم ثمنها عند تسليمها، ثم بعث بها هدية الى الرسول. فسر الرسول بوصولها ووزع ما فيها على الصحابة كشأنه. ودعى لنعيمان بالخير والبركة. وما انتهى من ذلك حتى طالبه البدوي بثمنها. فقال عليه الصلاة والسلام «هذه احدى هنات نعيمان»! وتساءل من نعيمان عما فعل لدى ظهوره بين يديه فقال، «انما اردت برك يا رسول الله ولم يكن معي شيء!».

موضوع الظرف في القرآن الكريم عالجه غير واحد من الباحثين. ففي مواضع

لقد اصبح الجُرزة المتغير اسيرَ المنايا صريعَ العطبْ
رماه الكنانيُّ والعامريُّ وتلّاه للوجهِ فعلَ العربْ
كلا الرجلين أتلا قتله فأيكما غلَّ حُرَّ السَّلَبْ
وأيكما كان من خلفه فإن به عضةً في الذَّنَبْ!

ولقد بلغ الهجاء من شدة الوقع على الناس مدىً دفع الخليفة عمر بن الخطّاب الى ان «يشتري» اعراض المسلمين من الحُطَيْئة، أكبر هجائي العصر، بثلاثة آلاف درهم. لكنّ الحطيئة (٦٧٨م) اذ باع اعراض المسلمين، وضاق بالامساك عن الهجاء، تحول الى اسرته، فهجا امه، وطعن بأبيه، ولم يعفّ عن نفسه. قال يهجو امه:

جزاك الله شرًّا من عجوز ولقّاك العقوق من البنينا
تنحّي فاجلسي عني بعيداً اراح الله منك العالمينا
أغربالاً اذا استودعت سرًّا وكانوناً على المتحدثينا؟
حياتك ما علمتُ حياة سوء وموتك قد يسرُّ الصالحينا!

وقال في ابيه:

لحاكَ الله، ثم لحاك حقاً أباً، ولحاكِ من عمٍّ وخالِ
فنعمَ الشيخُ انت لذي المخازي وبئس الشيخُ انت لذي المعالي
جمعت اللؤم لا حيّاك ربي واسباب السفاهة والضلالِ

قيل، واراد يوماً ان يهجو فلم يجد من يهجوه فراح يقول:

أبتْ شفتاي اليوم الا تكلماً بشرٍّ، فلا أدري لمن انا قائلُهْ

واذ به يرى انعكاس وجهه في حوض ماء فقال:

ارى لي وجهاً قبّح الله خلقه فقبّح من وجهٍ وقُبّح حاملُهْ

على ضوء هذه الخلفية من المبارزات الكلامية، ينبغي لنا ان نحاول اعتبار عنف المشادات الكلامية ما بين الدول العربية، والسهولة التي تنتهي بها دائماً الى مصالحة ممهورة بقبلات المحبة، مشفوعة في الغالب بعهد جديد لانشاء وحدة جامعة، وتشكيل مجلس مشترك لانجاز مشروع التوحيد. ان الهجاء والتهكم يقارن مزاج التفرد والعصبية الحزبية، الا ان حب العربي للمرح، لا سيما الكلاميّ منه، ساعد على تخطّي امثال العقبات التي عرضنا لها، وترك لنا تراثاً حريّاً بان ينقل الى أي جيل، ويحيا في أي

لورانس الشهير، يصف في كتابه «ثورة في الصحراء» كيف أنّ مقاتلي قبيلة حويطات دهشوا اذ شاهدوا لأول مرة في حياتهم، نوعاً جديداً من مشاهد المحاكاة الهزلية parody، عندما أخذ في تقليد زعمائهم بصورة هزلية تهكمية. ان غياب الخبرة في الهزل المسرحي يظهر أثره السلبي في الأسلوب الذي كثيراً ما يلجأ اليه الكتاب العرب في سرد نكاتهم، ويتجلى في سوء ادراكهم لأهمية خصائصه الشكلية، من مثل جودة الايجاز، وبراعة الاقتضاب، ودقة التوقيت، ووضع اللمسات الأخيرة، مما يكتسبه المسرحيون الهزليون عادة، بعد سنين طويلة من العمل الجادّ على خشبة المسرح.

ولما كان شاعر العرب عظيم الاعجاب بالنفس، بالغ الاعتزاز بالمفاخر، مع نزوع شديد الى القتال، ونضال مستمر من أجل البقاء. فقد ألهم غرضاً بارزاً من اغراض الشعر العربي هو الهجاء، ضمّنه الكثير من فنون التهكم الجارح، الذي ربما لم يقلّ العقاب عليه عن القتل المتعمد. وهذا كان جزاء المتنبي شاعر العرب الأكبر. فقد هجا ضبّة العتبي بأبيات طعن فيها بسيرة امه، وسخر من قصر قامتها وترهل صدرها الضخم. فحقد عليه خال ضبّة، وصادفه، بعد حين، خارجاً من بغداد، فغدر به. وهذا بعض ما جاء في تلك القصيدة:

ما انصف القومُ ضبّه ... وامُّه الطُرْطُبّه
وانما قلت ما قلـ ... ـتُ رحمةً لا محبّه
وما عليك من العار ... ر أنّ امّك قحبّه
وما يشقّ على الكلـ ... ـب ان يكون ابن كلبه
ما ضرّها من اتاها ... وانما ضرُّ صُلْبه
يا اخبثَ الناس أصلاً ... في اخبث الأرض تُرْبَه
كذا خُلقت ومن ذا ... الذي يغالبُ ربّه
إنْ أوحشتك المعالي ... فإنها دارُ غُربه
او آنستك المخازي ... فإنها لك نِسْبَه

وهذه الطريقة المنكرة في التعرض للخصم بقذف نساء قومه، استمرت عبر القرون، حتى تسربت في العصر الحاضر الى المسرح السياسي كما سنرى. على أنّ للمتنبي اهاجي يغلب عليها طابع التهكم. وهو أقرب الى ما نحن بصدده. قال يسخر من رجلين تعاونا على قتل جُرَذٍ، وراحا يفخران بالتغلب عليه:

عديدة منه ان ظاهرة الضحك نعمة من نعم الله، ومعجزة من معجزاته، وآية من ايات مصداقيته، فضلاً عن كونه تعبيراً تهكّمياً. ولقد تناول هذا الموضوع الجاحظ في القرن التاسع، ولفت النظر الى رضا الله تعالى عن الضحك، مستشهداً بالآية القرآنية: وأنّه هو أضحك وابكى، وأنّه هو أمات وأحيا (سورة النجم، ٥٣: ٤٣-٤٤). وفي العصر الحاضر، وضع الكاتب المصري المعروف، عباس محمود العقاد، جدولاً بالآيات التي ورد فيها الضحك محبّذاً؛ واقتبس منها، على سبيل المثال، شاهداً برز فيه طابع الهزل، هو الآية: حتى اذا اتوا واد النمل، قالت نملةٌ: «يا ايها النملُ ادخلوا مساكنكم لا يَحْطِمَنَّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. فتبسّم ضاحكاً من قولها، وقال: ربِّ اوزعني أن اشكرَ نعمتك التي انعمتَ عليّ وعلى والديَّ، وأنْ اعمل صالحاً ترضاه برحمتك في عبادك الصالحين» . (سورة النمل ٢٧: ١٨-١٩).

ولقد تجلى روح الظرف عند العديدين من صحابة محمد (ﷺ) المقربين، كان من ابرزهم عثمان بن عفان، ثالث الخلفاء. فقد رُوي ان النبي كرمه بطريقة فريدة اذ قال: يدخل عثمان الجنة ضاحكاً لأنه كان يضحكني. اما كيف اضحكه؟ فربما كان مما روي من أنّ النبي رآه يأكل تمراً وفي احدى عينيه رمد. فصاح به: اتأكل التمر وأنت أرمد؟! فأجاب عثمان: انا آكله من الجانب الآخر... ولقد تميز عثمان من بين الخلفاء الأولين بالظرف. وكان اولهم اطلاقاً باستلحاق مهرّج محترف في حاشيته الخاصة، هو أشْعَب الذي ضرب فيه المثل بالطمع.

بيد ان عثمان نفسه وقع ضحية لمقلب من منكت آخر هو نعيمان الانصاري، منكت الرسول. يروي البيهقي في المحاسن والمساوىء ان نعيمان مر بمخرمة بن نوفل الأزهري، وكان رجلاً ضريراً، فسأله هذا أن يقوده الى مكان يستطيع ان يبول فيه. فأخذه الى مكان في المسجد وما كاد يهم بقضاء حاجته حتى صاح به الناس «يا ابا المسود انك في المسجد». فسأل من جاء به الى ذلك المكان فقالوا له انه نعيمان. قال: والله لأضربنه بعصاي هذه ان وجدته. وكان أن اتاه نعيمان وقال له «يا أبا المسود، هل لك في نعيمان؟». فأجاب نعم. فأخذه الى حيث كان عثمان بن عفان وهو خليفة فانهال عليه ضرباً بعصاه.

ويتجلى حب العرب للهزل والدعابة في صور كثيرة، منها اقتران المزاح بالطعام. فحري بالملاحظة مثلاً، أنّ العديد من الأسماء العربية المرادفة للظرف، تتصل بمفاهيم الطعام وملحقاته. «فالفكاهة» من الفاكهة، ونقول نتفكه بمعنى نمزح ونضحك و«الملحة» من الملح، و«النادرة» من الندرة، و«النكتة» من التمر، و«الهزل» من الهزال، و«الظرف»

وعاء الطعام. ومثل هذه المشاركة المتعددة الوجوه، لا يمكن أنْ توجد على سبيل الاتفاق والصدفة، ولا أنْ تخلو من دلالة ما. ذلك لأنّ الهم الأكبر في البادية القاحلة والجبال الجرداء، في شبه جزيرة العرب، انما هو السعي في طلب القوت والماء. فالتهام الطعام، واقامة الولائم، أوحى عالماً من التصورات والافراح والاعراف، التي تتراوح ما بين رؤيا الجنة تجري من تحتها الأنهار، وتفيض بالفاكهة والاطايب. الى شعار الكرم، وواجب الضيافة، في واقع الحياة. فالسعي الدائم في طلب الرزق، والاقبال على مضافات الطعام، والتماس الصدقات والهبات بشتى الوسائل، تملأ جانباً كبيراً من أدب العرب: شعره ونثره.

ونحن، حتى في الزمن الحاضر، نرى الشعراء ينظمون المدائح والاهاجي في الملوك والحكام، على رجاء احراز المكافآت والمكاسب. ورؤساء الدول من جانبهم، يرون من اللائق والمناسب، التأثير في الصحافة العامة والدول الكبرى، بدعوة مراسل أو سياسي زائر، الى وليمة سخيّة تقام على شرفه. ولقد وجهت مآخذ كثيرة ساخرة الى ما جرى عليه زعماء فلسطينيون، من دعوة الصحفيين الأجانب، والشخصيات الأكاديمية، الى مآدب مسرفة في السخاء، من أجل ان يلفتوهم الى ما يقاسيه الشعب الفلسطيني من ضائقة ومجاعة!

ومن جهة ثانية، فإن الاحتيال على العيش، والتطفل على الموائد، والْتهام ما يستطاع وما لا يستطاع من الطعام في المآدب، فتح المجال واسعاً لمئات النكات الطريفة، والدعابات البارعة. فأشْعَب الذي ضُرِب المثل بطمعه، اول من اقام هذا الموضوع على مرتكز فنيّ. فقد كان ملازماً لدار الخليفة عثمان، فكان بحق، اول مهرّج محترف وممثل هزلي في تاريخ العرب. ولد في عصر النبي من امرأة خاملة الذكر في المدينة، وفي المدينة تدرّب على التهريج. ولقد كان بعينيه الزرقاوين، وسحنته القاتمة، ووجهه المطواع لشتى الحركات، لا يخشى الاخفاق في امتاع مشاهديه بغنائه ورقصه وتحامقه. وهذا فرانز روزنتال، الذي وضع دراسة واسعة عن هذا الممثل الهزلي، وعن فنه المستحدث، ينتهي الى القول بأنه، وان كان في الأدب اليوناني فكاهات مماثلة، فإن نوادر أشعب تبقى اصيلة ونموذجية. ومع ان أكثر هذه النوادر المنتشرة في كتب العرب، لا سيما في كتاب الأغاني، انما نسجت حول شخصيته في عهد متأخر، وفي مدينة بغداد المزدهرة، فإنها تحمل سماته، وتصور طراز الحياة المحلية، المطبوعة بطابع الفقر والقلة والاتكالية. وهذه جملة من نوادر أشعب النموذجية:

- شاهد اشعب جماعة يأكلون سمكاً، فأسرع اليهم طمعاً بمؤاكلتهم فقال

غاضباً: عداوتي شديدة للسمك، لأنه أكل والدي عندما غرق في البحر. وخوفاً من أن يستولي على سمكة كبيرة، ألقوا اليه بسمكة صغيرة، وقالوا له: خذها وانتقم لوالدك منها. فأخذها ووضعها على أذنه وقال لهم: تدرون ماذا قالت لي هذه السمكة الصغيرة؟ تقول انها ولدت بعد موت والدي، فهي من أكله بريئة. لكن تلك السمكات الكبيرة كن في عهده، فهن اللواتي أكلنه! واختطف احداهن والقى اليهم بالسمكة الصغيرة.

ـ سُئِل أشعب: هل عرفت من هو اطمع منك؟ فقال نعم. هناك كلب تبعني اربعة أميال لأنه رآني امضغ اللبان «العلك».

ـ قال يوماً انه رأى فيما يرى النائم حلماً عجيباً، تحقق نصفه الثاني دون الأول. فَسُئِلَ عن الحلم وما تحقق منه، فقال: حلمت انني احمل كيساً من المال اتسخت من ثقله ثيابي، وعندما افقت وجدت ثيابي مبللة.. ولم أجد المال.

ـ فاجأ اشعب بعض الصحابة يأكلون سمكاً، فسألهم ماذا تأكلون؟ فقالوا سمكاً مسموماً! فانقضّ على الطبق وهو يقول: بعد صحابة محمد لا تحلو الحياة لأحد.

ـ وجد أشعب ديناراً في الطريق فقيل له: يجب تمشياً مع الشرع، ان تعلن عنه، فاشترى به احراماً واعلن عن الاحرام، فلم يظهر له صاحب، فعاد الى شيخه وقال له: لم يظهر صاحب الدينار.

ـ ومن الطرائف التي لا بد أن تسترعي نظر الفرويديين، انه ذهب لأمه وأعلمها برؤ يا رآها في المنام. قال: «حلمت بأنك كنت مغطلة بالعسل وكنت انا مغطى بالغائط.» فقالت له: «ويلك! هذه كلها ذنوبك غطاك الله بها». ثم قال لها اشعب: «مهلك. لقد حلمت ايضاً انني كنت الحسك وكنت انت تلحسينني»!

واشعب، كسائر المهرجين، ربما علا هزلهم غمامة حزن مرير. قال يوماً: يطلبون مني نوادر تضحك الملوك، ثم يعطونني عطاءً يبكي العبيد! وكان أشعب خفيف اللحية، فقيل له: كان ابوك كثيث شعر الذقن فممن ورثت لحيتك الخفيفة؟ قال: من أمي [وكان سيء الظن بسيرة امه ويعتقد انه كان ابن سفاح].

ان الكفاح من أجل البقاء، بسبب قلة موارد الرزق في صحراء العرب المجدبة، عمل على ارهاف الميول الجنسية، بكل دوافعها ومقاوماتها، وسائر ما تثيره من غيرة وهواجس وزواجر. فالاهتمام بشؤون الجنس، حقاً كان او باطلاً، غدا من الأمور التي

كثيراً ما اقترنت بذكر العرب. ومَرَدُّ ذلك قد يكون الى تصرف العرب الشخصي واهتمامهم الخاص، او الى ادبهم المترجم الشائع الذي يشهد عليه كتاب «الف ليلة وليلة»، وكتاب «الروضة العطرة»... الخ. ويحاول فرويد تحليل النكتة الجنسية، فيعلل اهتمام الرجال بها من حيث هي وسيلة اغراء. وعنده أنّ ذكر الأعضاء التناسلية يقوم مقام الكشف عنها، والكشف بديل عن اللمس، واللمس مقدمة العمل الجنسي. فإذا نفرت المرأة من النكتة الجنسية التي يرويها الرجل، استعان الرجل بآخر، وهذا الآخر يستضحك بها رجلاً ثالثاً، يلطّف بضحكه وقع النكتة الجنسية، ويجعل المرأة اقل نفوراً من المراودة.

جميع الشعوب شديدة الانغماس في الظرف البذيء. وربما كان من الظلم إلْصاق هذه الصفة بالعرب بنوع خاص. وفي غياب أيّة دراسة احصائية مقارنة في هذا الموضوع، لم اتمكّن من كتم شعوري بأن ثمة مغالاة في تقدير نصيب العرب من الأدب البذيء، المكتوب منه والمروي. ومن الجدير بالملاحظة كذلك، أنّ الكثير من مثل هذه النكات البذيئة جاء محصوراً في حوارٍ بين رجل وامرأة. نُمثّل عليه بأخفّ ما نستطيع وطأة. قيل ان امرأة من جبل لبنان اشتاقت الى زوجها المغترب في افريقيا فأبرقت اليه تقول:

طـالـت الـفـرقـة وزادت المشـقّـة
اطـلـب الجـرن أو اجـلـب المـدقّـة

وصادف رجل من بني لام (الذين تتهمهم القبائل الأخرى بالشذوذ الجنسي) امرأة حاول مراودتها فسألها من أين تحمل المرأة، أمن خلف أو من قدام. فاجابته، لو كان الحمل من خلف لملأ بنو لام الدنيا!

وعليه، فإنّ النزعة الجنسية، والظاهرة البرازية التي يربطها فرويد بالجنس ربطاً لا ينفصم، تشكلان جانباً كبيراً من الظرف العربي، مروياً أو مكتوباً ومفرغاً بلغة فاضحة أو مهذبة. ومما ساعد طبيعة العرب السمحة على فتح المجال رحباً لتندر مثير، نظام الحريم، وتعدد الزوجات، وتسري الجواري، واقتناء الغلمان، فضلاً عن الانحطاط العام الذي شاع في العهد العباسي المتأخر. اما في عالم السياسة العربية المعاصرة، فقد تحولت جميع هذه الأساليب الفكاهية، بعد تصعيدها وتكثيفها، من مساراتها التقليدية، الى ميدان النضال القومي والنزاع الحزبي في نوع من البذاءة السياسية.

ان المأساة تخاطب القلب، فيما الملهاة تخاطب العقل. وعلى ذلك فقد ظهرت

المأساة، في تاريخ المسرح اولاً، ثم تبعتها الملهاة. ومعظم الفلاسفة الذين درسوا ظاهرة الضحك، توقفوا عند فكرة التنافر الناجمة عن التعارض، ما بين الموضوعي الراهن من جهة، والذاتي التصوّري من جهة أخرى. وقد أكّد برغسون على أنّ الضحك انما هو متخلّف عن عبث آليّ بالطبيعة، وصدام بين صارم ومرنٍ، أو صلب وليّن. ففي المجتمع الحديث النشأة، أنْ يكون كل شيء طبيعيًّا، لدناً، وليناً، هو القاعدة المطلقة. وعليه فنحن لا نجد فيه الكثير مما يثير الضحك. لكنّ المجتمع، بمرور الزمان، يفقد مرونته، وتتحول طواعياته الى قواعد صارمة، تحدُّ من حرّية النفس الانسانية. على أنّ النفس المقيّدة تنفجر، بين حين وآخر، في نوبة من الضحك، وذلك عندما تنتهي المعارضة الى مأزق مستعصٍ. وأوضح ما يكون ذلك عند العرب في ظاهرة الحذلقة اللغوية التي تملأ حيّزاً كبيراً من أدبهم وظرفهم.

كان العرب في الجاهلية يتحدثون بلغة طليقة مقبولة، لم تُتِحْ لهم مسوّغاً للضحك. لكنّ العربية في القرن العاشر، غدت رهينة بأيدي النحاة واللغويين، الذين اخضعوها لقواعدهم الصارمة، وقيّدوها بحرومهم الجازمة. والوضع الذي نشأ من الصدام بين الواقع العملي والمفهوم العقلي، خلّى السبيل لسيل عرم من النكات اللفظية والدعابات اللغوية. وما تم في لغة العرب، انتهى الى نظامهم الاجتماعي برمته.

وما كاد العباسيون يفرغون، في القرن العاشر، من ارساء سلطانهم على قواعد ثابتة، حتى كانت الوعود التي قطعوها للناس، والآمال التي عُلّقت عليهم قد تلاشت أو كادت. وإذا حروب الجهاد الطويلة تصل بالناس الى نهاية مؤسفة، واحلام الماضي السعيد في الخواطر والهواجس، تخلي السبيل للمزاح العقلاني والادراك الدعابي، مما تهيّأ وتعزز بفعل تعقيدات المجتمع البلاغيّ الجديد. وما كاد المنصور يتولى الخلافة، حتى كان الظرف قد اصبح احد فروع الادب الابداعي. وسرعان ما ظهرت مجموعات من النوادر والملح، باقلام عدد من كبار المؤلفين. فالكثرة المطلقة من اللغويين الذين سماهم ابن النديم في كتابه «الفهرست» كتبوا في الظرف. ونحن نجد في كبريات المصادر العربية مثل «العقد الفريد» لابن عبد ربّه، و«كتاب الأغاني» للاصفهاني، و«نهاية الارب» للنويري، و«المحاسن والمساوىء» للبيهقي، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة، فصولاً طويلة في النكات والنوادر. وفي القرن الثاني عشر وضع ابن الجوزي كتاب «اخبار الظرفاء والمتحامقين». وكتاب «اخبار الحمقى والمغفلين»، دافع فيهما عن فضائل الظرف. والف عليّ الحاكميّ كتاب «الفكاهة والدعابة». وجمع ابو زيد الانصاري «كتاب النوادر». أما النيسابوري فقد وضع كتاباً بعنوان شبه فلسفي هو

«عقلاء المجانين». وتلاه بعد حين الابشيهي بكتاب ممتع هو «المُسْتَطْرَف في كل فن مُسْتَظْرَف». واستمرت حركة التأليف في هذا الحقل عبر الزمن الى الوقت الحاضر، وعبرت المتوسط الى اوروبا، حيث وُضِعَتْ بالالمانية (١٩١١) مجموعة مختارة منها بقلم وسلسكي، واخرى بالفرنسية (١٩٢٤) بقلم ر. باسيه. ونقل روزنتال نكات اشعب الى الانكليزية، وقد مر معنا خبره. أما نعيمان المهرّج، واشعب الطماع، وابو دلامة الفكه، وابو نواس الشاعر المتهتك، وجحا ومُزَبِّد وابو الحارث جامز، فقد دخلت اخبارهم كل بيت، وجرت اسماؤهم على كل لسان. ونسج حولهم ووضع عنهم ما لا يحصى من الحاكايات والنوادر. نكتفي ههنا بواحدة بطلها ابو دلامة، قيل دخل على الخليفة المهدي وبين يديه جماعة من اهل العلم والفضل. فتحداه المهدي ان يهجو احد الحضور وإلا امر بضرب عنقه. فنظر في من حوله وتهيب من هجو احد منهم، لكنه خاف على رأسه، ووجد نفسه احق الحضور بالهجاء، فقال:

ألا أَبلغْ اليكَ ابا دُلامَةْ	فليس من الكرامِ ولا الكرامَةْ
إذا لبس العِمامةَ كان قرداً	وخنزيراً اذا نزع العمامة
جمعتَ دَمَامةً وجمعتَ لؤماً	كذاك اللؤمُ تتبعُهُ الدَّمامة
فان تكُ قد أصبتَ نعيمَ دُنيا	فلا تفرح فقد دنتِ القِيامة!

ويذكر المؤرخون عن هارون الرشيد أنه كان دائماً يصطحب في اسفاره مهرّجه الخاص ابا صدقة.

وبنشوء مجتمع متعدد الجنسيات في بغداد، وظهور نخبة مثقّفة متأنقة فيه، برزت طبقة جديدة من ارباب الدعابة المهذبة عرفوا بالظرفاء، استلفتوا انظار ابناء الشعب واهل العلم على السواء، باسلوب معيشتهم ورهافة حسهم الدعابي. وقد تميز هؤلاء عن زملائهم السابقين من المهرجين باناقتهم ولباقتهم وتقواهم. فقد توقف الوشاء في كتابه «الموشّى»، عند خصائص الظرفاء، وجعل قوامها اربعة عناصر هي: البلاغة. والخطابة، والفضيلة، والتقوى. خلافاً لابن العبري الذي حصرها في اللغة وما اليها.

عالج الوشّاء طراز حياة الظرفاء، ووصف بصورة بالغة التفصيل، انواع احذيتهم، وازياء ملابسهم، وروائح عطورهم، واشكال خواتمهم. قال في ما يتعلق بالطعام واداب الموائد: كانوا البادئين بالطعام، يتناولونه بمقادير قليلة، ويأبون النهم والشره؛ يأكلون وسط الرغيف، والرقيق من البزماورد (عجة مصنوعة باللحم)، لا يمسّون العصب أو العضل، ولا الامعاء والطحال، او الكبد والنقانق، ولا اوراق الخضار واللحم

المسلوق، ولا يحتسون المرق والدهن... اما شكل الظريف وعاداته فيسهب في وصفها الوشاء ويطيل. ومما جاء له في ذلك:

«اعلَم: أنَّ من كمال أدبِ الأدباء، وحُسن تَظَرُّف الظرفاء، صَبرُهم على ما تَوَلّدَت به المكارم، واجتنابُهم لخسيسِ المآثم، واخذُهم بالشِّيَمِ السَّنيَّةِ، والاخلاقِ الرَّضيةِ، وانهم لا يُداخلون أحداً في حديثِه، ولا يَتطلَّعون على قارئٍ في كتابِه، ولا يقطعون على متكلِّمٍ كلامَه، ولا يَستمِعُون على مُسرٍ سِرَّه، ولا يسألونَ عمّا زُوِيَ عنهم علمُه، ولا يتكلَّمونَ فيما حُجِبَ عنهم فهمُه؛ يَتسرَّعون الى الأمورِ الجليلةِ، ويَتبطَّؤون عندَ الأشياءِ الرَّذيلةِ؛ فهم أمراء مَجالِسهم، بهم يُفتحُ خَيرُ الأخلاقِ، وبهم يتألَّفُ مُتنافِرُ الأخلاقِ، تَسمُو الهِمَمُ الأملقُ، وتثني عليهمُ الأعناقُ؛ ولا يطمَعُ في عيبِهم العائبُ، ولا يَقدِرُ على مَثالِبهم الطالبُ».

ويتوقف الوشاء، في فصل آخر من كتابه، عند الاداب العامة فيقول:

«ألا ترى انهم لا يتجعون ولا يتبَصَّقون، ولا يتثاءبون، ولا يستَترون، ولا يتجشَّؤون، ولا يتمَطُّون؟ وذلكَ عيبٌ عندَ الظرفاء، مكروهٌ عند العلماء... والظُّرفاءُ لا يُوقِعون أكفَّهم، ولا يُشبِّكون أصابِعَهم، ولا يمدّونَ أرجلَهم، ولا يَحُكُّون أجسادَهم، ولا يَمَسُّون آنافَهم، خاصَّةً إذا كانَ أحدُهم بين يدَي خليلِه، أو ربيطِه، أو حبيبِه، أو من يَحتشِمُه ومن يُكرِّمه. ولا يدخُلُ احدُهم الخلاءَ من حيثُ يراه أحدٌ، ولا يَبولُ بينَ يدَي احدٍ. وليسَ من زيّهم الإقعاءُ في الجلسةِ، ولا السرعةُ في المِشيةِ، ولا الالتفاتُ في طريقِ سلكوه، ولا ينفُضون الغُبارَ عن أرجلِهم في المواضعِ المكنوسةِ، ولا يستريحون في الاماكنِ المرشوشةِ، ولا يجلِسون في مجلسٍ فيَنتقلون منه، ولا يَقعُدون».

في مقابل هذه القيود الصارمة، نَعِم الظرفاء بمقدار كبير من الحرية في التعبير عن النفس، وتمكنوا في كثير من الاحيان من أنْ يقولوا وأنْ يكتبوا ما لا يحلم كاتب معاصر في زماننا أن يقوله او يكتبه. والحق، أنّ جانباً كبيراً من الاهمال او الاغفال المتعمّد، الذي اصاب بعض آثارهم، مردود الى تزمتنا وتحرجنا، او منعنا وامتناعنا من أنْ نعيد ما قالوا، او ان نقدم على نقله الى لغات اخرى. وكتابنا هذا غير مستثنى من هذا الحكم.

وإذ كان الظرفاء محصَّنين بمظاهر التقوى والاستقامة والنزاهة، ومؤيَّدين بالتربية الفاضلة والمعرفة الوافرة، والثقة الراسخة بالنفس؛ فقد كانوا اشبه بنبلاء الادب الأوروبي في القرن السابع عشر، واظهروا جدارة مماثلة في النقد الذاتي، والتهكم اللاذع، والهجاء الساخر، رافقهم احياناً حتى في متابعة اعمالهم، وممارسة هواياتهم. واصبح الظرف اجازة لقول المحلل والمحرم لغرض القول الظريف. وهكذا كتب

الشيخ محمد سعيد الحبوبي، رجل الدين والورع في عراق القرن التاسع عشر قصيدة طويلة في وصف الخمرة والنساء لينتهي منها في الأخير الى القول:

لا تخل ويك ومن يسمع يخل	انني بالراح مشغوف الفؤاد
او بمهضوم الحشى ساهي المقل	اخجلت قامته سمر الصعاد
او بربات خدور وكلل	يتفنن بقرب وبعاد
ان لي من شرفي برداً ضفا	هو من دون الهوى مرتهني
غير اني رمت نهج الظرفا	عفة النفس وفسق الالسن

واصبحت كلمات «عفة النفس وقبح الالسن» من الامثال الرائجة في تبرير الكلام المقذع المليح. وسواء انطلق من العفة او من سوء النية، فإن الفقهاء لم تعجبهم الفكرة فهاجوا الظرفاء والمتمازحين كما سنرى. ووجد اهل الظرف مرتعاً خصباً في السخرية من الاصنام المقدسة التي اقامها النحويون واللغويون والقضاة والفقهاء، فغصت كتب الادب بحكاياتهم.

رووا عن نحوي كان على ظهر سفينة فسمع الملاح يلحن في كلامه فصاح به: ألم تتعلم النحو؟ فاجابه: لا. فقال له النحوي: اضعت نصف عمرك! وبعد قليل هاج البحر وسقط النحوي في الماء، واخذ يصيح مستنجداً. فقال له الملاح: الم تتعلم السباحة؟ قال: لا. فقال له الملاح: اضعت كل عمرك!

إن النكات الكثيرة التي انطلقت من الاصول النحوية، والحذلقة اللغوية، كونت فرعاً من الظرف قائماً بنفسه، اكثر من اشتهر به لغوي ضليع هو ابو علقمة. فقد ردت اليه نوادر لغوية كثيرة قائمة على الالفاظ الحوشية الغريبة، والالاعيب اللغوية المعقّدة، وقد تميزت بطابع هزلي مرح.

في هذا العصر ظهر علم البلاغة، واتفق اربابه على تعريفه بانه «ابلاغ المعنى باقلّ ما يمكن من الالفاظ» وعندي أن هذا القول بالذات اكبر نكتة اطلقها العرب! ويبدو لي أن ظرفاء العصر كانوا من هذا الرأي، لأنهم سخروا بمنتهى البلاغة مما جرى عليه اديب العصر المحافظ، من الاسهاب والتطويل، وكثرة الحشو، ومعاقبة الجمل على المعنى الواحد، بما يبعث الملل. روى ابن قتيبة، في هذا الصدد، عن بدوي انضم الى جماعة من المصلين يقيمون صلاة استسقاء ويستمعون خلالها الى دعاء من ابي مكنون الذي اشتهر بالتقعر اللغوي والاطناب فراح يسترسل ويبالغ بالاستسقاء. فنهض الاعرابي من مكانه وخف مسرعاً: «يا خليفة نوح! هذا هو الطوفان ورب الكعبة، دعني آوي الى جبل يعصمني من الماء»!

ويتحدث بديع الزمان، في المقامة المضيريّة، عن لغويّ دعا بطل مقاماته ابا فتح الاسكندري الى مشاركته في طبق مضيرة، فاطال المضيف في وصف هذا الطبق، والمواد التي يتألف منها، وبراعة زوجته في اعداده، والمكان الذي اعدته فيه، والبيت الذي استقبله فيه، وكيف اشتراه ومن أي شيء يتألف، والرياش التي تزينه... وقد اضناه الجوع، وهو يصغي الى هذه التفاصيل المملة. وإذا به يجعل مسك الختام حديثه عن المستراح وبلاطه ونقوشه. وعندها نفد صبره وزال جوعه، وفقد قابليته، وجاشت نفسه. فاندفع الى خارج البيت، فإذا به يصدم احد المارة فيسقط ارضاً وينتهي بسببه الى السجن.

إن الكثير من امثال هذه الفصول يطابق رأي برغسون في أنّ الحذلقة والصلابة في مواجهة المرونة والطواعية، تصدم العاديّين من الناس، من عمال وملاحين وسقاة... الخ. وهذا النوع من العبودية اللغوية لا يزال يستهوي المتزمتين من لغويي هذا العصر، حيث يستنبطون نوعاً جديداً من الحشو، بحجة دقة الاداء، يتمثل في ترجمتهم لكلمة «ساندويش» إذ وضعوا لها مقابلاً يتألف من اربع كلمات هو «الشاطر والمشطور والكامخ بينهما».

ولقد وجد الظرفاء، بعد حذلقة اللغويين والبلاغيين، مصدراً آخر للظرف في عنف رجال القضاء، والتشريع الذي القى بغبائه عبئاً ثقيلاً على صدور العوامّ. قيل إنّ امرأة جاءت يوماً الظريف المشهور ابا دلامة، واشتكت اليه رجلاً قبّلها. وسألته: ماذا كان عليها ان تفعل. فذكّرها ابو دلامة ممازحاً، بمبدأ العقوبة بالمثل، الواردة في القرآن الكريم (٢: ١٩٤): «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم»، وقال: لقد كان عليك ان تقبّليه!

وسنح للظرفاء موضوع آخر مغرٍ لظرفهم تجلى لهم في ضعف القضاة ونفاقهم. فقد رووا ان قاضيا استخدم جارية تتعهّد قعة المحكمة. وكان عليه، جرياً على العادة المتبعة، أن يعدّ لها مخدعاً في بيته. وفي الصباح التالي جمع الناس حوله وخاطبهم قائلاً: يا قوم لقد فقدت الأمانة من الدنيا! فسئل عن الخبر فقال: لقد جاؤوني بجارية على انها بكر فجربتها فإذا هي ثيّب!

كان الظرف في نظر العرب رياضة عقلية، يقبلها الكاتب منهم والقارىء، بنفس طيبة واعجاب شديد. وفي غمرة هذا التسامح، اتيح للظريف أن يقول ما يشاء مداعباً، فيمدح مذموماً، ويذم ممدوحاً، بتخريج طريف. على أن اهل التقو، لم يستسيغوا هذا الاستخفاف باوامر الدين ومبادىء الاخلاق. وجاؤوا بشواهد، صحت

ام لم تصح، تعزز موقفهم المعارض، وتُندّد بالظرف وضروب المزاح. فقالوا أن النبي حذر من ذكر الامور المضحكة في الحديث حتى ولو رويت عن آخرين. واستشهدوا ايضاً بقول الخليفة عمر بن عبد العزيز في أن الهزل لا يصدر ألا عن سخف وسخط. والظاهر أن المسلمين ميزوا بين الفكاهة المقبولة والمزاح المنكر واستشهدوا بقول عمر بن الخطاب في منع الناس من المزاح لأنه ينزع الرحمة من القلوب ويجعل مكانها الغيظ. ورووا عن الرسول ايضاً أمره بتجنب المزاح لأنه يذهب بهيبة المؤمن ويزيل الرحمة من قلبه ويثير كوامن غيظه. ونسبوا اليه ايضاً قوله ان المزاح من عمل الشيطان وحصيلة الاثم.

على أن الخصومة ما بين المترمّتين والظرفاء استمرّت. وإذ واصل المترمتون التنكر للغة الظرفاء البذيئة، انبرى لهم ابن قتيبة مدافعاً عن نفسه، في سلوك سبيل الظرفاء، بقوله في عيون الاخبار:

> انما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم، لاختلاف شهوات الآكلين. فإذا مر بك حديث فيه افصاح بذكر عورة او وصف فاحشة، فلا يحملنّك الخشوع او التخاشع على ان تصعّر خدّك أو تعرض بوجهك، فان اسماء الاعضاء لا تؤثم، وانما المأثم في شتم الاعراض، وقول الزور، واكل لحوم الناس بالكذب...

كذلك المنشئان البارزان في العصر العباسي: الجاحظ وابن عبد ربه. فقد دافعا عن الظرف، فوصفه ثانيهما بأنّه: ربيع للقلب وراحة للنفس. اما الامام الكبير، الذي عرف بتقواه في العصر الاموي، الحسن البصري، فقد قال، في ما نقل عنه، اعجاباً بالظرف وتحبيذاً له: «اذا كان اللصّ ظريفاً لم يقطع».

على أن الشارحين العرب، في تحليلهم للضحك، اتجهوا اتجاه الفلاسفة، من عهد ارسطوطاليس حتى زمننا الحاضر، ذاهبين الى أنّ الاكثار من الهزل دليل فساد في الذوق، ومجلبة لعظيم الضرر. ولقد تأثر المفكرون المسلمون، في هذا السياق، بآراء، ارسطوطاليس تأثراً بالغاً، لا سيما بنظريته التوسطية، التي قادته الى القول بشأن الضحك: ان المكثر فيه مهرّج، والممتنع عنه فظّ. أما الظريف، كما جاء في اخلاقياته، فهو الذي لا يغالي في دعاباته. وهذا القول يماثل، الى حد بعيد، وصية الجاحظ بالاعتدال حيث قال: للمزح موضع وله مقدار متى جاوزهما احد، وقصر عنهما احد، صار الفاضل خطلاً والتقصير نقصاً». على أنّ فكرة الاعتدال هذه، يبدو انها ترتقي الى زمن اسبق، أو منشأ مستقل عن الفكر الارسطوطالي. فالنبي محمد، الذي احب الظرف وزكّاه، قال كذلك: اياك والامعان في الضحك، لأنه يودي بالقلب ويذهب بالذاكرة. ومثل هذا

القول ينسب الى الاحنف اذ قال: الاكثار من الضحك يذهب بالهيبة. والغلوّ في التنكيت يطيح بالحنان.

ومع ضخامة تراث العرب من الظرف، وكثرة ما دار حوله من المناقشات والتعليقات، فإنّ احداً من مفكري العرب القدماء لم يقدم على دراسته بصورة وافية. فانني لم اقع في ابحاثي على أية محاولة فلسفية للتمييز بين انواع الظرف المختلفة. فالثعالبي الذي صنف الضحك الى تسع درجات، تبعاً لمقدار قوته، مبتدئاً بالتبسم، منتهياً الى الزهرقة. لم يُشر الى فوارق الشكل والاسلوب، في حين أن الكاتب المصري الفكه، ابراهيم عبد القادر المازني، المتأثر بالفكر الغربي الحديث، وبالادب الانكليزي على الاخص، بحث هذا الموضوع، وفرق بين النكتة والفكاهة بما مؤدّاه:

«إن النكتة وليدة البديهة، ومدارها ظاهر التصرف. فالنكت نادراً ما يتجاوز السطحيات، ويغوص في اعماق الموضوع السحيقة. والنكتة انما تثير فينا الضحك لدى المقارنة بين شيئين، او وضعين، او تصرفين. اما الفكاهة فشديدة الاختلاف، لأنها تدور حول المعنى والحقيقة، وتنشد اللباب وتُغْفِل الشكل الخارجي. فالفرق اذن، واضح جداً بين طبيعة النكتة العرضية، وقضية الفكاهة المدروسة بكثير من العمق والعناية».

على أن ثمة اسلوباً من اساليب الظرف استأثر بانتباه الظرفاء المحترفين، هو المعروف بـ «القلب» اشتهر به ابو العبر، وهو مهرج البلاط العباسي في عهد المتوكل. ففي هذا العصر، كان الظرف قد غدا صناعة. وابو العبر نفسه اخذ صناعة «القلب» عن استاذٍ في هذه الطريقة، كان يعلم المتدربين كيف يقولون خلاف ما يتوقع منهم. كأن يقولون في الصباح: مساء الخير، وفي المساء: صباح الخير! فقد روى ابو العبر عن استاذه هذا انه كتب رسالة وطلب منه أن يجففها بذرّ المسحوق المعروف عليها. فاخذها ابو العبر وصب عليها ماءً واحضرها اليه. فانتهره الاستاذ قائلاً: ماذا فعلت؟ قال: عكس المتوقع... كما علمتنا...! قال الاستاذ: اذهب ولا تعد فقد اتممت تدريبك بنجاح. ومما يدعو للاسف اننا لا نعثر على كثير مما كان يجري في امثال هذه المدارس.

اننا نتبين الاثر اليوناني، بسهولة ووضوح اشد، في تحليل اطباء العرب لوظيفة الضحك. فهم كسائر الاطباء السابقين، منذ عهد افلاطون وارسطوطاليس، أيّدوا الرأي القائل بأن مزاج المرء يتوقف على توازن اخلاط الجسد الاربعة. فالضحك والكآبة يتوقفان على فاعلية المرّة السوداء. ولقد عرّف الكندي الضحك بانه نقاوة متوازنة في دم القلب مقترنة بانتشار في الروح يبلغ الى حد ظهور الفرح. وعلى ذلك فمنطلقه فسيولوجي. واكثر اطباء العرب ارجعوا الضحك الى جذور فسيولوجية. وهذا

اسحاق بن عمران، من ابناء القرن التاسع، تتبّع اصول الضحك، واعادها الى الطحال او الكبد، فهو يفرز الدم، ويوزع الزائد منه بين المرة الصفراء والمرة السوداء. في حين ان الدم الموزع من القلب انقى وارقّ واجود، ويشتمل على مقدار اقل من الروح الحيواني. ولقد ايّد ابن المطران (١١٩١) نظرية الكبد والطحال واعتدال طبيعتهما، واعتبر جودة نوع الدم منشأً للفرح، والفرح بدوره مبعثاً للضحك.

والى جانب هذه الفرضية الفسيولوجية، عالج اطباء العرب ظاهرة الضحك، في الوقت نفسه، من الزاوية النفسية، كما اشرنا الى ذلك في المقدمة، واجمعوا او كادوا، على النظر الى الموضوع من منطلق تفاؤلي، معتبرين الضحك دليل فرحٍ وعامل تصحيح. وقد ركز الكثيرون منهم على عنصر الدهشة والحيرة. وهذا علي بن ربّان الطبري ينتهي، في موسوعته الطبية «فردوس الحكمة»، الى أن المرء، عندما يسمع او يرى امراً غير مألوفٍ يستلفته ويجفله، يأخذ دمه بالغليان، فإذا اشكل عليه سبب دهشته انفجر بالضحك. وبهذا الفعل يتميز الانسان عن سائر الاحياء، لأنه الحيوان الضاحك الوحيد. على ان ابن عمران، بعد أن يعتبر الضحك، في كتابه عن «الكآبة»، وجهاً آخر من وجوه الحماقة، يعود فيعرّفه بانه اندهاش الروح عند رؤية شيء يتعذر عليها ادراكه بوضوح.

ومن الفضول الذي يثير الملل، تعداد الكتب التي وضعها اطباء العرب والمسلمين في هذا الموضوع. والقليل الذي تقدمت الاشارة اليه، كان لمجرد الاستدلال على الاهتمام الذي اثاره موضوع الظرف في عقول اطباء العرب وكتّابهم. ولعل ابا عمرو الجاحظ (٨٦٧) ابرز كتاب العرب في العصر الوسيط، وابرعهم على الاطلاق في ارسال الدعابات. ولا بدع، فقد كان في وجهه وشخصيته وحياته، وفي موته ايضاً مثاراً للدعابة. فقد روي أن كتبه كانت مكدسة حوله وفوقه بغير نظام، فسقطت يوماً عليه فقتلته. ولقد لقب بالجاحظ لبروز عينيه، وكانت سحنته ضاربة الى السواد. وكان وجهه متنافر القسمات غريب السمة. وقد روى عن نفسه أن جارية في الطريق اشارت اليه ان يتبعها ففعل على رجاء مكسب. فاخذت تدخل في زقاق وتخرج من آخر وهو في اثرها، الى ان وقفت به امام حانوت صائغ، وقالت للصائغ: «مثل هذا» ومضت في حال سبيلها. فتعجب من امرها، وسأل الصائغ عما يريد منه فقال له: جاءتني هذه المرأة يا سيدي، تطلب مني ان انقش لها على خاتم اشترته مني صورة الشيطان، فقلت لها لا استطيع لأني ما رأيت شيطاناً قط. فقالت لي: أنا آتيك برجل كأنه هو، فأتتني بك.

وضع الجاحظ كتباً كثيرة هي الآن من الادب الحيّ؛ لكنّ بينها جامعاً مشتركاً هو التوفر على الجانب الدعابي من الحياة، وكأنه كان يمثل هاجسه في كل ما كتب. كتب مرةً في هذا الصدد يقول: «والله لا استطيع ان اغفل نكتة سنحت لي ولو قتلتني في هذه الدنيا، وبعثت بي الى الجحيم في الآخرة». وكان الى جانب براعته في سرد الاخبار وصّافاً هزليّاً فريداً، يشهد له بذلك كتابه «رسالة التربيع والتدوير» ويقع في نحوٍ من مئةٍ وخمسين صفحة، وصف بها خصماً له هو محمد بن عبد الوهّاب وصفاً هزلياً تهكمياً منقطع النظير في الادب العربي. على أن «كتاب البخلاء» ربما كان اشهر ما خلّف الجاحظ في فن التهكم. فقد اودعه انواعاً من النوادر والطرائف، تدور جميعها حول مشاهير بخلاء زمانه، وافانين بخلهم، مما شاع آنذاك بداعي استفحال غائلة الفقر في اوساط الشعب، وانتشار هوس الطعام والشراب، وقسوة المفارقة ما بين كرم العرب القدماء واعتزازهم بالضيافة، من جهة، ونهج الحياة الجديدة في المدن، الموسومة بالبخل والحرص والادّخار تحسباً «لغدرات الزمان». ونكتفي ههنا من كتاب البخلاء بالمثالين التاليين، على أن نعود اليه بتفصيل اوسع في الفصل التالي.

ـ سأل احدهم: من اشجع رجلٍ في العالم؟ فاجابه احد البخلاء: هو من يسمع اسنان الغير تقضم طعامه ولا تنفجر مرارته!

ـ دعا رجلٍ طبيباً لعيادة صديق له عرف ببخله. فوجده الطبيب يرتعد من البرد. فقال للرجل: كُلْ من طعامه الى أن ينضح وجهه بالعرق فيشفى.

وجاءت، بعد جماعة البخلاء، ممن شغلوا الجاحظ بعيوبهم وهفواتهم، طبقةُ المعلمين. فقد قال احد الظرفاء في وصفهم: أنّى لهم أن يتعلموا شيئاً وهم يقضون نهارهم مع الاولاد وليلهم مع النساء؟ وكان الجاحظ قد شرع في وضع كتاب عن نوادرهم، وطرائف اخبارهم، فتوقف عن اتمامه عندما التقى معلماً عاقلاً للغاية، اعجبه بلباقته وذوقه، وصار من أحبّ اصحابه اليه. لكنه وجده يوماً ينوح متفجعاً وكأنه قد فقد عزيزاً، فاسرع اليه وهو يقول:

ـ اسأل الله أن يزيل غمتك ويريك في رسول الله مثالاً صالحاً. كل نفس ذائقة الموت. ارجو لك الصبر والعزاء. لكن قل لي من الفقيد العزيز؟ هل هو ابنك او زوجتك؟

ـ لا... لا هو ابني ولا زوجتي... فانا عازب والحمد لله

ـ لعله والدك أو والدتك؟

ـ كلاهما في ديار الأخرة قديماً.

ـ اذن هو اخوك أو اختك

ـ كلا انا وحيد والديّ

ـ قل لي بربك من هو؟

ـ حبيبتي الاولى والاخيرة

ـ لا تقل ذلك يا اخي... النساء كثيرات وغداً تصادف سواها. ولكن قل من هي؟ لعلي اعرفها؟

ـ كيف تعرفها وانا نفسي لا اعرفها؟

ـ ولكن كيف احببت من لم ترَ؟

ـ هذا ممكن. الم يقل بشار بن برد، عندما طرح عليه مثل هذا السؤال:

قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم   الاذن تعشق قبل العين احيانا

ـ شفاك الله... حدثني عن عجيب امرك.

فروى له المعلم المنكود انه فيما كان يستريح تحت قنطرة سمع منشداً ينشد:

يا ام عمرو جزاك الله مغفرة   ردي عليّ فؤادي كالذي كانا
ألست أحسن من يمشي على قدم   يا أصلح الناس، كل الناس انسانا

فاغرم بام عمرو هذه وهام بأوصافها ومكث يترقب ان يراها. الا انه سمع بالأمس شاعراً ينشد:

لقد ذهب الحمار بام عمرو   فلا رجعت ولا رجع الحمار

فأيقن ان محبوبته قد لاقت حتفها. فهو يندب سوء حظه. وعندما سمع الجاحظ قصة هذا المعلم، اسف على الوقت الذي اضاعه في التوقف عن اتمام كتابه عن نوادر المعلمين، وعاد اليه فأتمّهُ جاعلاً حكاية هذا المعلم الأبله واسطة عقده.

وبقيت الحماقة موضوعاً بارزاً في أدب الظرف العربي، وظهر في هذا الموضوع عدد قليل من الكتب. ولقد روى الجاحظ الكثير من بلاهات الحمقى نقتصر منها على ما يلي:

- ورث احد الحمقى نصف بيت، وحدث احد اصدقائه انه ينوي شراء النصف الآخر، فقال له صديقه: من اين لك ثمن النصف الآخر؟ قال: هذا ميسور، ابيع النصف الذي املكه واشتري بثمنه النصف الثاني فيصبح البيت كله ملكي.

- سأل رجل خادمه المعتوه متى صلينا الجمعة في الرصافة؟ فأجاب بعد تفكير: الخميس الفائت.

- سمع احمق ان صوم يوم عرفات يوازي صوم سنة. فصامه حتى الظهر وقال في نفسه: ستة اشهر من الصوم تكفيني.

- محتالان اتفقا على سرقة حمارٍ لأحمق، فنزع احدهما رسن الحمار والأحمق يقوده. ووضعه في عنقه، وذهب رفيقه بالحمار. وبعد قليل التفت الأحمق فرأى الرجل مكان الحمار فدهش، لكن الرجل قال له: انا حمارك كنت رجلاً فمسخني الله حماراً لأنني كنت اعذب والدتي. والآن يبدو ان الله سامحني فأعادني رجلاً. لقد خدمتك كحمار سنين كثيرة وسامحني الله فأطلق سراحي لأعود الى امي وأكفّر عن اساءتي اليها. فأعتقه معتذراً اليه متألماً من معاملته كحمار. وبعد ايام هبط السوق لشراء حمار آخر، فرأى حماره معروضاً للبيع. فدنا منه وأسرّ في اذنه: ايها الشقي هل عدت الى تعذيب أمك؟.

وهنالك اسماء كثيرة لحمقى من مثل هبنّقة وبهلول، ذاعت حماقاتهم في بغداد في غضون القرن الثامن عشر، كما ذكر الرحالة الأوروبي نيبور عند زيارته لمدينة بغداد. الا ان الاسم الأشهر، الذي غدا اسطورة عالمية، هو اسم «جحا»، الظريف المحتال، صاحب الحماقات المسلية والحكم المثيرة. ولئن كان الجاحظ قد كتب للنخبة من المثقفين. فإن جحا روى للجمهور مصوراً بلاهاته، معبراً عن مشاكله وتعقيداته، وهذه بعض طرائفه:

- رأى الناس في يوم عاصفٍ يصعّدون الأدعية لله، وينادون بالتوبة وطلب الغفران، فصاح بهم: هوّنوا عليكم، لا تتسرّعوا بالتوبة، انما هي عاصفة عابرة!

- وسئل يوماً ايهما افضل: الشمس او القمر؟ فأجاب: القمر طبعاً، لأن الشمس تظهر في النهار عندما لا يكون لنا اليها حاجة.

- وسافر يوماً وابنه ومعهما حمار واحد، اركب ابنه عليه وسار هو وراءه. فانتهر الناس الولد كيف يركب ويترك اباه الشيخ يسير على قدميه. فما كان من جحا الا ان

اعتلى الحمار وترك ابنه يمشي. فإذا الناس يصيحون بجحا: كيف يركب ويترك ابنه الصغير يسير على قدميه. فاردف ابنه وراءه وتابع السير، فانتهرهما الناس كيف يركبان كلاهما على الحمار المسكين. عندها قال جحا لابنه: ان الناس ارحم بالحمار منهم بنا، فلنتعاون على حمل الحمار، وعندها ضحك الناس من حماقتهما كيف يحملان الحمار بدلاً من ان يحملهما هو!

ان العرب، من فرط حبهم للماضي، يرتاحون الى ادبه، وأكثرهم يرددون شعر القرن السادس بالسهولة التي ينشدون بها الشعر الحديث. والغالب على الظن ان أكثر النوادر التي وردت في هذا الفصل صياغة متأخرة لروايات قديمة. وعلى هذا المنوال من التعديل والتأهيل، عمد المعاصرون من الظرفاء والسياسيين والرسامين الهزليين ومحرري الأبواب الخاصّة في الصحف، الى تكرار روائع الظرف القديم بدرجات متفاوتة من التجديد، ليضعوها في خدمة الشعارات والأهداف السياسية في العصر الحاضر.



المصري افندي: زعماء العمال في بريطانيا اتفقوا مع خصومهم وعملوا جبهة وطنية. وانتو ايه؟

زعماء مصر: دول عمال غلبانين واحنا ناس باشوات.

آخر ساعة ١٩٣٩

الفَصلُ الثَّاني

الظرف السّياسي في تاريخ العرب

عندما يُحتَسب المزاحُ من اجلِ نفعة، ويُسْتَخدمُ الضحكُ لغرضٍ لائق، يغدو المزاحُ مفيداً والضحكُ مهيباً.

الجاحظ

مع ضخامة الأدب الدعابي، وتواصل الخلافات الداخلية التي ملأت تاريخ العرب، لم يصل لنا من الظرف السياسي الا النزر اليسير. وهو أمر بديهي متى اعتبرنا الطابع الاستبدادي الذي اتصفت به حكومات العصر الوسيط. والتبعية التي ارتهن بها معظم الكتّاب لهذا الأمير أو ذاك. ممّن احرزوا، في العالم الاسلامي، سلطة واسعة، دينيةً كانت او مدنية. فهؤلاء الكتّاب كانوا، متى تجرّأوا على رواية احدى قضايا الخلاف، كانت تلك القضية اما من مخلفات عصر سابق، او عن حاكمٍ من جبهة مناوئة. أمّا النكات التي ربما شاعت بين الجماهير، فالراجح أنّ معظمها لم يدوّن. الا ان ثمة حادثة رواها الطبري، المؤرخ الكبير، تنمّ عن اهتمام عامٍّ بشؤون السياسة. فقد روى ابو الحسن بن عياش، انّه رأى في طرق بغداد مروّض قرود يسأل قرده: ماذا يود ان يكون - بزّازاً، ام بقّالاً، ام تاجراً... الخ؟ فكان القرد يهزّ رأسه عند كل سؤالٍ بالموافقة، الى أنْ كان السؤال: هل يريد ان يكون وزيراً؟ وعندها صاح القرد مذعوراً، واندفع مسعوراً، وكأنه يطلب النجاة من الموت! والجدير بالملاحظة أنّ المروّض ذكر «الوزير» وليس «الخليفة»، وهو تدبير جَرَى عليه النقّاد المتهكّمون عندما هاجوا الحكم. والعرب في تمرّدهم وتفرّدهم المعتاد، اظهروا دائماً نفورهم من الحكام، وارتيابهم بهم. إلا أنهم، متى قصدوا الخليفة بطعنهم سمّوه «السلطان» او «الملك»، بدلاً من «امير المؤمنين» او «خليفه رسول الله». وعلى ذلك ما ورد في «رسالة الغفران» من أنّ مرافق «السلطان» رأى فيلسوفاً يجمع عشباً ليتخذه طعاماً فقال

له: لو وضعت نفسك في خدمة الملوك، لما اضطُرِرْتَ الى أكل الأعشاب. فأجابه الفيلسوف: لو أكلتَ الاعشاب لاستغنيتَ عن خدمة الملوك! وهنالك ثروة ضخمة من الأمثال والنوادر، التي تغري السامع بالنفور من قصور الحكام، وكأنها بُؤر فساد وأوكار مجرمين. وثمة مثل سائر يُرَدَّد وكأنه صلاة هو: «اللهمّ لا حاكم ولا حكيم». وهذه نماذج من بعض الأقوال الشعبية المتداولة:

- السلطان اللي ما يعرفش سلطان.
- مثل كرباج الحاكم: اللي يفوتك منه احسن من اللي يصيبك.
- اللي ياكل من مرق السلطان تنشق شفته.
- قالوا لفرعون ايش فرعنك قال ما فيش حد يردني.
- اذا احتجت للكلب قول له سيدي.
- ارشوا تشفوا.
- البرطيل شيخ كبير.
- مين يقدر يقول للجندي غطي ذقتك؟
- من يقدر يقول للسبع حلقك جايف؟
- اللي ما ياخذوش الحاكم يأخذه الموت.
- الحيطان لها ودان.

وفي رواية أُخرى اوردها الراغب الأصفهاني في «محاضراته»، ان ساقياً تقدم الى فقيه رآه على باب السلطان، وطرح عليه سؤالاً، فقال له الفقيه: هل هذا المكان المناسب لطرح الأسئلة؟ فأجابه الساقي: هل هذا المكان المناسب لوجود الفقيه؟!.

ولقد عمد الكتّاب احياناً الى نسبة حكاياتهم، صواباً أو خطأً، الى حُكّام غرباء، كما فعل ابو حيان التوحيدي في حادثة العقار المغتصب. فقد اشتكى رجل الى ملك فارس ان قائد جنده اغتصب ارضه. فسأله الملك: منذ متى ملكت هذه الأرض؟ قال: ورثتها من ابي، وابي ورثها من جدي. فقال له الملك: لقد انتفعت بهذه الأرض طويلاً، فاتركها للقائد ينتفع بها بضع سنوات. فأجابه الرجل: انت تعلم يا صاحب الجلالة كم قضى براجمور في خدمتك وخدمة والدك من قبلك، فلماذا لا تترك له مملكتك يحكمها بضع سنوات ثم يعيدها اليك؟

امتدت الامبراطورية الاسلامية في اوجها، من اسبانيا غرباً، الى الهند والصين شرقاً. لكنّ الخليفة سرعان ما اضطرّ الى ان يتخلى، في معظم اقطارها، عن السلطة الفعلية لسواه، محتفظاً بالسلطة الاسمية، ممثلة بالدعاء له في صلاة الجمعة. وكان على

المواطن العادي أنْ يجابه الولاة والقضاة، الذين انزلقوا تباعاً في الفساد والنقائص والتحكّم، لا سيما بعد قيام الامبراطورية العثمانية، واستيلائها على الأقطار العربية. وفي وجه امثال هؤلاء الموظفين المتسلطين، اطلق العاديون من الناس نقمتهم، مغلّفة بغشاء التهكم والتنكيت. ونحن نستطيع ان نتبيّن هذه الصورة في مجريات العهد الحاضر. ففي معظم القرى العربية، وضواحي المدن الفقيرة، كثيراً ما نصادف ظريف القرية، الذي يكسب رزقه بظرفه، يتجوّل في الأسواق، ويتنقل بين المقاهي، يُمتّع الناس بالنكات والنوادر والطرائف، التي يرويها عن ضابط الأمن، ومفتش البلدية، وحاكم الناحية... الخ. عرفتُ مثلَ هذا الشخص في بلدة الكاظمية المقدسة، الى الشمال من مدينة بغداد. وكان بوّاباً عاطلاً عن العمل، وقد علق في ذهني جوابه عن سؤالي له عن حال اسنانه بقوله: انها بخير، واي ضرر يمكن ان يصيبها، وانا اكاد لا استعملها! وقد رأى يوماً شرطياً يطارد بعض طُلّاب المدارس، على أثر تظاهرة، فسأله: ما الأمر؟ فأجاب: ان هؤلاء الأوغاد يودّون قلب الحكومة، فأجابه: وهل تظن ان حكومتنا برميل زبالة حتى ينقلب؟!. ومن نوادره الطريفة، تلك التي رواها عن شرطي المحلة الأمّيّ عباس، عندما ارتاب بشابّ على ضفة النهر، انّه يعمل بتوزيع منشورات ممنوعة، فسأله:

- ليش انت واقف هنا؟
- اريد التمتع بهذا المنظر.
- أي منظر؟
- القمر الجميل والنهر الجاري وشجر النخيل.
- انا شايف القمر وشايف النهر والنخيل، لكن المنظر وين؟

انك تستطيع بشطيرة كباب، وبعض الملاطفة، ان تكتسب رفقة رجالٍ كهؤلاء، يؤانسونك في ساعات الصباح الباكر، في أي بلدٍ غير نفطي. ومثل هذه الحكايات، قد دونت ولا شك، تهكماً من رجال الشرطة والقضاة، والحكام والضباط التابعين للسلطان. وعلى ذلك فقد قيل إنّ محمداً (ﷺ)، في اثناء زيارته الخاطفة الى الجنة، دهش من رؤية ذئب يرتع فيها، فهتف متعجباً: أذئب في الجنة؟! انني لا اصدق عينيّ! فأجابه الذئب: نعم، فقد افترست ابن الشرطي. فعلّق احد الظرفاء على هذا الخبر بقوله: اذن لو افترس الشرطي نفسه لأدخل الى السماء السابعة!.

وروى ابو عبّاد، كاتب الخليفة المأمون، ان وفداً من الكوفة جاءه يلتمس عزل والي مدينتهم، قائلاً: في السنة الأولى لولايته اضطرنا الى بيع مقتنياتنا وأراضينا. وتخلينا في السنة الثانية عن انوالنا وأموالنا. وفي الثالثة هجرنا مدينتنا وجئنا أمير المؤمنين راجين

رحمته بأنّ يضع حداً لشقائنا بعزله. لكنّ امير المؤمنين رفض احتجاجهم، وأكّد لهم استقامة الوالي وتقواه، وإخلاصه وعدله. فأجابه الناطق باسم الوفد: صدقت يا أمير المؤمنين، وكذبنا نحن بحق الوالي، فما دام هذا الوالي على ما ذكرت، من الاستقامة والتقوى والاخلاص والعدل، لماذا خصصتنا به هذه السنين الطوال دون سوانا؟ وقد ولّاك الله بلداناً اخرى لترعاها كما رعيتنا، فأرسله اليها ايضاً لينعم اهلها باستقامته وتقواه واخلاصه وعدله، كما نعمنا بذلك قبلهم...!

ان فساد الولاة والقضاة، وحيلهم الواسعة في ابتزاز أموال المواطنين، ظل لوقت طويل، مورداً غزيراً لظرف الظرفاء. قيل انّ وفداً مؤلفاً من طوائف عدة، جاء الى البحرين لتهنئة والٍ جديد عُيّن عليه، كما جرت العادة. فسأل الوالي جماعة اليهود فيه:

ـ ماذا فعلتم بعيسى بن مريم؟
ـ صلبناه.
ـ والله لأزجّنّكم في السجن حتى تدفعوا ديّته!

وفي رواية اخرى ان الوالي الجديد، عندما استقبل الوفد امر بإحضار عنزة وسأل إمام المسلمين:

ـ ما رأيك بهذا الحيوان؟
ـ حقاً انها عنزة جميلة، يا سيدي.
ـ تقول عنزة؟ انت تحط من مقام الوالي فتدعو غزاله عنزة؟ عليك والله ان تدفع الف ليرة جزاءً والا ارسلنا بك الى السجن!

وفي اليوم التالي كان دور النصارى، فتذكر مطرانهم ما حل بإمام المسلمين، فأجاب الوالي عندما كرر عليه السؤال:

ـ حقاً يا سيدي ان هذا الغزال لمنقطع النظير بجماله!
ـ تقول انها غزال؟ هل تظن انني ابله فتسمي عنزتي غزالاً؟ والكل يرى انها مجرد عنزة، والله لتدفعنّ الف ليرة او القي بك في السجن!

وفي اليوم الثالث تذكر حاخام اليهود ما حلّ بمطران النصارى وقبله بإمام المسلمين، وأجاب عندما كرر عليه السؤال:

ـ انه يا سيدي لا عنزة ولا غزال، بل وحش ضارٍ لا يهدأ الا متى اطعمته هذا.

واخرج من جرابه صرّة من الذهب ودفع بها اليه بلا مزيد من الكلام، فقال له عندما تسلمها:

- انت رجل حكيم للغاية، وسأعمل دائماً بمشورتك!

وأكثر ما كانت مثل هذه النوادر انتشاراً في ظل الحكم العثماني، اذ غدت مصدراً مغرياً للنقد السياسي والأخلاقي، لا سيما بعد انسلاخ الأقطار العربية عنه. قيل ان تاجراً يهودياً بصق في وجه عميل له مسلم، فشكاه هذا الى قاضٍ تركي، مدعياً انه اغرق وجه مسلم، وأطفأ نور الاسلام المنبعث منه. فقال اليهودي:

- لدي فرمان من السلطان بالبصق في وجهه.
- كيف ذلك؟ ارني اياه.

فناول التاجر القاضي ملفًا ضمنه حوالة مالية كبيرة. فالتفت القاضي الى العميل وقال له:

- صدق التاجر يا عزيزي، فهذا الفرمان يخوله ان يبصق، ليس في وجهك فقط، بل في وجهي انا وفي وجه السلطان ايضاً.

وضرب بالمطرقة على الطاولة وقال: اقفلت القضية!

وفي غضون انحلال الامبراطورية العربية الذي بدأ في القرن العاشر، شكا بديع الزمان الهمذاني في احدى رسائله احد قضاة زمانه، ابا بكر الحيري، الى قاضي القضاة، ووصفه بقوله:

«... وُلّي القضاة من لا يملك من آلاته غير السبالة (الشارب)، ولا يعرف من أدواته غير الاختزال، ولا يتوجهُ من احكامهِ الا في الاستحلال، ولا يرى التفرقة الا في العيال، ولا يحسن من الفقه غير جمع المال، ولا يتقن من الفرائض الا قلة الاحتفال وكثرة الافتعال. ولا يدرس من أبواب الجدل الا قبحَ الفعال وزورَ المقال، ذاك ابو بكر القاضي، اضاعه الله كما أضاع أمانته، وخان خزانته... والعلم - اطال الله بقاءَ القاضي - شيء بعيد المرام، لا يصاد بالسهام، ولا يقسم بالازلام (عيدان الميسر)، ولا يرى في المنام، ولا يضبط باللجام، ولا يورث عن الأعمام... وغرض لا يصاب إلاّ بركوب الخطر، وادمان السهر، واصطحاب السفر، وكثرة الفكر... فكيف يناله من انفق صباه في الفحشاء، وشغل سلوته بالغنى وخلوته بالغناء، وافرغ جِدّه على الكيس، وهزله على الكاس؟... ايكفي ان يصبحَ المرءُ بين الزقّ والعود، ويمسي بين موجبات الحدود، حتى يتمّ شبابه، وتشيبَ اترابه. ثم يلبس دنّيه ليخلع دينيّه، ويسوّي طيلسانه ليحرّف يده ولسانه، ويقصّر سباله ليطيل حباله، ويبدي شقاشقه ليغطي مخارقه، ويبيّض لحيته ليسوّد صحيفته، ويظهر ورعه ليخفي طمعه، ويغشى محرابه ليملأ جرابه...؟ فقبّحه الله تعالى من حاكم لا شاهد اعدل عنده من السلة والجام، يدلي بهما الى الحكام، ولا مُزَكّي اصدق لديه من الصفر (الدنانير)، ترقص على الظفر، ولا وثيقة احب اليه من

غمزات الخصوم، على الكيس المختوم، ولا وكيلَ اوقع بوفاقه من خيبة الذيل، وحمّال الليل، وكفيل أعزّ عليه من المنديل والطبق، في وقتي الغسق والفلق، ولا حكومة ابغضُ اليه من حكومة المجلس، ولا خصومة أوحشُ لديه من خصومة المفلس...».

رسائل بديع الزمان ١٦٤

ويورد ابن اياس في بدائع الزهور طائفة من النوادر بحق القضاة المتفسخين ويروي القول السائر بأن البرطيل الحجر المستطيل يلقم المرتشي عن الكلام بالحق. ويقول ان القاضي القلقشندي اشترى منصبه بثلاثة آلاف دينار ثم استطاع القاضي ابن النقيب ان يأخذ مكانه برفع هذا الثمن الى خمسة آلاف دينار. ولتقدير استقامة ابن النقيب في عدالته قال احد الشعراء فيه:

قاض اذا انفصل الخصمان ردهما — الى جدال بحكم غير منفصل
يبدي الزهادة في الدنيا وزخرفها — جهرا ويقبل سرا بعرة الجمل

وقال شاعر آخر في احد القضاة:

يا ايها الناس قفوا واسمعوا — صفات قاضينا التي تطرب
يزني، ينتشي، يرتشي — ينم، يقضي بالهوى، يكذب

ولقد كان علي بن أبي طالب، رابع الخلفاء الراشدين، في صدر الاسلام الأول، شاعراً بهشاشة القضاء عندما قال في احدى خطبه:

«ترد على احدهم القضية... فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره، فيحكم فيها بخلافه، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الامام الذي استقضاهم، فيصوّب اراءهم جميعاً...».

نهج البلاغة ١: ٦١

كان علي بن ابي طالب من أبلغ الخطباء. فأقواله وحكمه ما زالت الى اليوم، تُردَّدُ على افواه المسلمين في العالم بأسره. سئل يوماً عن «الغوغاء» فقال: «انهم قوم مفسدون عندما يجتمعون، ونافعون عندما يتفرقون». وقد استرسل احد خصومه في مدحه، مدعياً محبته، فقاطعه قائلاً: «انا دون ما في كلامك، وفوق ما في نفسك». لكن خلافته منيت بفتنة كبيرة، اضطرب لها حبل الاسلام، ولا يزال الى اليوم. فقد انفجر الصراع بينه، وهو في العراق على رأس الهاشميين؛ وبين معاوية في الشام، وهو على رأس الأمويين؛ واستمرّ النزاع بين القطرين نحواً من قرن. لقد كان العراقيون اهل شجاعة، واشتهروا بالعنف والقتال، لكنهم سئموا سفك الدماء من أجل امرائهم

وكهنتهم، وآثروا الابقاء على شجاعتهم لانفسهم، كلٌ منهم يدافع عن نفسه وذويه. لذلك وجد علي صعوبة كبرى في استنهاضهم للقتال من أجل القضية الهاشمية، فأوحى اليه يأسه منهم خطباً حافلة بالسخر والتهكّم، قال في احداها:

«. . . اذا امرتكم بالسير اليهم في أيام الصيف قلتم: هذه حمارّة القيظ، امهلنا يسبخ عنا الحرّ. واذا أمرتكم بالسير اليهم في الشتاء قلتم: هذه صبارّة القرّ، امهلنا ينسلخ عنا البرد. كل هذا فراراً من الحرّ والقرّ، فأنتم والله من السيف أفرّ. . .».

واشتدّ الخلاف بين الفريقين فنشب بينهما القتال. وعندما لاح النصر في جانب علي، وكاد يجهز على خصمه عمرو بن العاص، استعان عمرو بدهائه. وعملاً بالشعار: «الحرب ثلثا المراجل»، ادار ظهره الى علي، فامتنع علي عن طعنه بظهره، ورد سيفه الى غمده. وإذا بالتاريخ يتحول الى اسطورة، واذا بالخليفة يروي ما جرى فيقول: ابن الفاعلة، ايّ سيّد هو او قائد عندما تكون السيوف في اغمادها! فإذا استلّت منها، فحيلته الكبرى، ان يدير ظهره للناس!

وأخيراً اغتيل الخليفة البارّ في المسجد، فزادت على أثر ذلك، حدة الخلاف بين المسلمين. ورُوِيَ بعد ذلك بسنين أنّ حاجاً عراقياً شكا من كثرة الذباب في الكعبة، فقصد الى قاضي مكة وسأله اذا كان الله يسمح بقتل ذبابة في بيته المقدّس. فأجابه القاضي: انتم اهل العراق، عدوتم على الامام علي، أمير المؤمنين البار، وخليفة رسول الله، وابن عم النبيّ وصهره بالقتل، فيما كان يصلي في المسجد، فلا اظن أنّ قتل ذبابة في المسجد يؤذي ضمائركم!

وبعد وفاة علي، استمر الخلاف بين معاوية والحسن بن علي. وفي لقاء جمع بينهما، بدأ الحسن فذكّر معاوية باللعنة التي وجهها النبي اليه، بأن لا يشبع الله بطنه ثم روى له قصة البعوضة وشجرة النخيل رداً على ما وجه اليهم من التهم، فقال: انك يا معاوية، كتلك البعوضة التي حطّت على شجرة نخيل، وعندما نوت ان تطير عنها صاحت بالشجرة ان تتشبّث بالأرض، فأجابتها: انا لم اشعر بك عندما حططتِ عليّ، فكيف تزعجبني متى طرتِ عني؟ فكيف تستطيع انت ان تؤذيني باتهاماتك؟

ان الزهد الذي اخذ عليّ به نفسه قد أوجز وصفه بقوله: ان دنياك عندي لا تساوي عفطة عنز. وهو مناقض تماماً للبذخ والثراء الذي اعتبره الأمويون حقاً حلالاً

لهم، كسبوه بفضل انتصاراتهم. اما عمر بن الخطاب، فقد دهش للمكاسب الضخمة التي احرزها عمرو بن العاص، عامله على مصر، وأرسل اليه محاسبه الخاص، ليراجع حساباته، ويحصي ممتلكاته. فقال عمرو للمحاسب: ان عصراً يعاملنا فيه ابن حنتمة هذه المعاملة لعصر رديء! فانتهره المحاسب بقوله: صه! انك لولا هذا العصر، عصر ابن حنتمة الذي تراه رديئاً، لكنت اليوم راكعاً في دارك عند أقدام عنزة تشكر سرورك بغزارة لبنها، أو تشكو بليّتك بشحّه.

إن «العراقيين» الذين قتلوا الامام علي، وتخلّوا عن ابنه الامام الحسين، اجمعوا على أن يكفروا اساءاتهم اليهما، ففعلوا ولكن بمجرد الكلام لا غير! فروي عنهم من القصائد، وجمع من النوادر التي طعنوا بها الأمويين ما لا يحصى ولا يعدّ. من ذلك ان بثينة صاحبة جميل وعروس شعره، جاءت عبد الملك في شيخوختها فقال لها:

- لعنك الله، ماذا رأى فيك جميل؟

- ما رآه فيك الناس الذي ولوك امرهم!

وفي نادرة اخرى ان عبد الملك رأى بدوياً، وقد افترق عن صحبه في الصيد، فسأله:

- هل تعلم من انا؟
- نعم. انت طاغية وابن فاسق!
- لا سلمك الله. ولا ادناك منا! لقد سلبت مال الله وخرقت حرمته.
- ما هذه الجرأة؟ انا استطيع أن انفعك وأن اضرّك.
- اسأل الله أن لا ينعم عليّ بنفعك ولا يرد عني ضررك!

وعندما التقى رجال الحاشية بالخليفة خشي البدوي المسكين على نفسه، فاقترب من عبد الملك وأسرّ في اذنه: ادامك الله يا أمير المؤمنين، ليكن الحديث الذي جرى سرّاً بيننا. فضحك عبد الملك واجازه على ظرفه.

لقد كان عبد الملك متهماً بالاستبداد، لكنّ اخاه معاوية كان موصوفاً بالبله. كما تشهد عليه النادرة التالية: قيل رأى يوماً حماراً يدير حجر طاحون وفي عنقه جرس. فسأل الطحان عن الفائدة من الجرس في عنق الحمار. فقال له:

- قد يأخذني النعاس، فاذا توقف صوت الجرس عرفت أن الحمار قد توقف، وكذلك الحجر، فاصيح بالحمار فيستأنف الدوران بالحجر.

ـ وماذا اذا وقف الحمار وحرك رأسه يميناً ويساراً؟

ـ أنّ للحمار عقل كعقل الامير؟

ولقد درج الناس على وصف الخلفاء بالكثير من عبارات التبجيل والتعظيم، إلا اثنين وهما الاول الوليد السكير (٧٤٤م) ومروان الحمار (٧٥٠م).

ولقد واجهت الامويين فتن كثيرة، اضطرتهم الى القتال على اكثر من جبهة، في وقت واحد. قيل: توجّه عبد الملك الى المدينة، بعد اخماد فتنة عبد الله ومصعب، ابني الزبير في مكة، روى للناس حكاية الاخوين والحية، وفيها أن حية عاهدت اخوين ان تقدم لهما صرة مالٍ في مطلع كل سنة، مقابل امتناعهما عن التعرّض لها. إلا ان الاخوين طمعا بمال الحية ونويا قتلها بضربة فأس. لكن الفأس لم تصب منها مقتلاً، فلسعت احدهما فمات. فجاءها اخوه في الغد يطلب منها إحياء الاتفاق القديم، فقالت له: لا اتفاق بيننا ما دمت تذكر قبر اخيك، وأرى بدوري فجة الفأس في ذنبي. ثم تحول عبد الملك الى آل قريش، فذكّرهم بمقتل عثمان على يدهم، ويردّ الامويين بمذبحة الحرّة، وقال: انتم لن تحبونا ما دمتم تذكرون يوم حرّة (٦٨٣م) ونحن لن نحبكم ما دمنا نذكر مقتل عثمان (٦٥٦م).

وتحول عبد الملك، بعد ذلك الى العراق لاخماد الثورة فيه، فولى عليه قائده العنيف الحجاج بن يوسف. وكان الحجاج، فضلاً عن عنفه وحزمه، خطيباً مفوّهاً، وظريفاً ساخراً. وخطبه ما زالت الى اليوم تتلى في المدارس في مختلف الاقطار العربية. فعندما التقاه الناس في المسجد، لأول مرة بعد تعيينه والياً عليهم، هاجوا وماجوا وشتموه. ورماه بعضهم بالحجارة. وبعد سكوت قصير امر الحراس باقفال ابواب المسجد، واستهلّ خطبته بقوله:

أنا ابن جلا وطلّاع الثنايا متى اضعِ العمامة تعرفوني

ومما جاء فيها:

أما والله يا أهل الكوفة، اني لأحمل الشر بحمله، واحذوه بنعله، واجزيه بمثله. واني لأرى رؤوساً قد اينعت وحان قطافها واني لصاحبها، واني لأنظر الى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى... اني والله يا اهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق، ومساوىء الاخلاق، لا يغمز جانبي، ولا يقعقع لي بالشنان.

ولقد لزمهم وصفه لهم بالشقاق والنفاق منذ انذاك. ووقف بهم خطيباً في مناسبة اخرى، فخاطبهم بقوله:

يا اهل العراق! إن الشيطان قد استبطنكم، فخالط اللحم والدم، والعصب والمسامع، والاطراف والاعضاء، ثم أفضى الى الامخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشّش، ثم باض وفرّخ، فحشاكم شقاقاً ونفاقاً، واشعركم خلافاً، اتخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤمراً تستشيرونه.

ولم يكن باستطاعة اهل العراق ان يفعلوا شيئاً ضد حكمه الحديدي. إلا الدعاء الى الله بأن يأخذه عنهم. ولم يتحقق مشتهاهم هذا إلا باشاعة كاذبة عن موته. وفي اليوم التالي صعد المنبر، والقى فيهم خطبة ساخرة قال فيها:

إن طائفة من اهل العراق، اهل الشقاق والنفاق، نزغ الشيطان بينهم فقال: مات الحجاج. وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت؟! والله... ما رأيت الله رضي بالتخليد إلا لاهون خلقه عليه: ابليس... كأني والله بكل حيّ منكم ميتاً. وبكل رطب يابساً، نقل في ثياب اكفانه، الى ثلاث اذرع طولاً في ذراع عرضاً. وأكلت الارض لحمه، ومصّت صديده، وانصرف الحبيب من ولده بقسم الخبيث من ماله.

لقد ترك الحجاج طابعاً على العراق لا يمحوه الزمن. فمع كل الكره الذي يكنه العراقيون له ولحكمه، كثيراً ما تسمعهم في فترات يأسهم السياسي، يرددون الشعار الباقي على الزمن: حاجتنا الى حجاج آخر! على أنهم في غمرة يأسهم من التعاون معهم لم يبق لهم إلا الظرف السياسي يحاربونه به. فلجأوا الى التندر عليه بتلفيق الاخبار. فابن خلكان يروي حكاية رجل حلف على زوجته بالطلاق إذا لم يذهب الحجاج الى جهنم. انما تجلت له بعد التأمل خطورة قسمه، إذ لو غفر الله للوالي البغيض، لكان عليه أن يعيش مع زوجته بقية حياته في اثم. لذلك قصد الى ابي عبيد قاضي المعتزلة، فادلى اليه بالفتوى التالية، قال: ابقَ مع زوجتك، حتى إذا عفا العلي العظيم عن الحجاج لم يضرك اثم قسمك بالطلاق.

وتروى عن الحجاج حادثة كالتي جرت مع عبد الملك عندما خرج للصيد. قال ابن قتيبة: ان الحجاج كان في نزهة فصادف رجلاً هرماً فسأله عن رأيه في حكامهم، فقال:

- كلهم رجال شرّ، يظلمون الناس ويسلبونهم ممتلكاتهم.
- وما رأيك بالحجاج؟

ـ هو اخبثهم، قبّح الله وجهه ووجوه الذين ولّوه علينا!
ـ هل تعلم من أنا؟
ـ كلا، ومن اين لي أن اعلم؟
ـ انا الحجاج بن يوسف.

فصعق الرجل وارتبك... ثم ارعوى وقال للحجاج:

ـ وهل تعلم من انا؟
ـ لا، لست اعلم.
ـ أنا مجنون بني عجيل... افقد عقلي مرة كل يوم في مثل هذه الساعة.

فضحك الحجاج، وطيّب خاطره بهدية، كما فعل قبله عبد الملك.

وروى ابن خلّكان ايضاً أن الحجاج خطب في الناس يوماً فقال:

> ايها الناس، ان الصبر عن محارم الله اهون من الصبر على عذاب الله. فقام اليه رجل فقال: ويحك يا حجاج ما اصفقَ وجهك واقلّ حياءك! فأمر به فحبس. فلما نزل عن المنبر دعا به وقال له: لقد اجترأت عليّ، فقال الرجل: أتجترىء على الله فلا ننكره، ونجترىء عليك فتنكره! فخلّى سبيله.

والذي يبدو أنّ ظرفاء العرب قد طابت لهم امثال هذه الدعابات التي تعرّي الحكام، وتنفي الخوف من نفوس الناقمين عليهم بتعرية الحاكم عن هويته ومواجهته مجرداً عن هيبته. وقد بلغني مؤخراً حادث من هذا النوع عن الملك فيصل، منشىء العراق الحديث، ورئيس وزرائه الشهير نوري السعيد. وكان فيصل قد وصل حديثاً الى العراق وماله قليل. فسأل السعيد كيف يقضي العراقيون اوقات فراغهم؟ فاجابه: احب تسلية لديهم النزهة بقارب في النهر. فابدى الملك رغبة في هذه المتعة. فانسلا ليلاً متنكرين الى حيث الملاح دعبول ليأخذهما بقاربه في نزهة نهرية. وكان دعبول، كسائر زملائه الملاحين، يشرب الخمر ويحتفظ منه بزجاجة في القارب. ولكي يظهر لضيفيه الكرم البغدادي، قدم زجاجة العرق للملك ليرتشف منها جرعة. والملك كعربي لم يرفض الضيافة، لكنه كمسلم، اكتفى بلمس فوهة القنينة بشفتيه. لكن السعيد بدوره جرع منها جرعة كبيرة، واعادها الى الملاح. واخذ دعبول بعد ذلك، يسلّي ضيفيه بالاحاديث المعتادة التي لا تخرج عن نطاق التذمر من الحكومة، وقذف الوزراء، واقتراح سبل الاصلاح. وفي نهاية النزهة سأل نوري السعيد الملاح دعبول:

- تدري إحنا منو؟
- لا والله افندي.
- أنا رئيس وزراء العراق.
واسرع الملك فيصل الى القول:
- وأنا ملك العراق.
- ما شاء الله انت شربت جرعة وشفت نفسك رئيس وزراء، وهذا شرب نص جرعة وشاف نفسه ملك! به به به... بالله إنزلوا.

وفي اليوم التالي اراد نوري السعيد أن يوفر لجلالته مزيداً من المتعة فأرسل في طلب دعبول - وكان مركز عمله لا يبعد كثيراً عن القصر - واخذ في محادثته فسأله: هل من جديد في الحركة على النهر؟ قال: لا باشا. بس البارحة إجوا اثنين اشقياء دايخين... (وروى حكايتهما معه كما راق له). فأظهر نوري السعيد غيظه وامر الحرس بالبحث عن الشقيين... فقال له دعبول:

لا تشغل بالك باشا! ما يستحقون أي تعب إثنين دايخين الواحد منهم ما يسوى اربع فلوس.

وروى الابشيهي في «المستطرف» قصة شبيهة بهذه عن الخليفة العباسي المهدي. فقد كان في رحلة صيد، فاستضافه مزارع عربي وقدم له خبز شعير ولبناً وخمراً. وبعد أن اكل الخبز وشرب شكيّة اللبن وكأس الخمر، سأل المزارع:
- هل تعلم من أنا؟
- كلا يا سيدي.
- أنا خادم امير المؤمنين الخاص.
- بورك فيك.

فملأ المزارع كأس ضيفه الفارغة ثانية، فشربها المهدي شاكراً وعاد فسأل المزارع:
- هل تعلم من انا؟
- لقد ذكرت انك خادم امير المؤمنين.
- بل أنا قائد جيشه.

وعاد الفلاح فملأ كأس المهدي للمرة الثالثة فشربها ثم سأل المزارع للمرة الثالثة:

ـ هل تعلم من انا؟
ـ كلا لأنك قلت اولاً انك خادم امير المؤمنين ثم رقيت نفسك الى قائد جيشه!
ـ بل أنا امير المؤمنين بنفسه.

فرمى الفلاح بالكأس الفارغة بعيداً وقال:

ـ والله لو شربت الكأس الرابعة لقلت انك رسول الله!

ولقد درج الناس على مقابلة نفاق اهل المدن وخداعهم بسذاجة ابناء البادية ودعابتهم. قيل على اثر انتصار العباسين على الامويين واسقاط حكمهم، وتحول الديار الشامية الى مرتع لبني العباس، اراد المنصور، ثاني خلفاء بني العباس يوماً، أنْ يهدىء من روع الدمشقيين، فخاطب الناس بقوله: ايها الناس اشكروا الله تعالى لأنه خصّكم بحكمي، فمنذ بدأ، اخذ الله يزيل عنكم برحمته وباء الطاعون الخبيث. فقاطعه بدوي من بين السامعين قائلاً: الحق ان رحمة الله تعالى واسعة، لأنه لم يشأ لنا أن نقاسي حكمكم والطاعون في وقت واحد!

وفي نادرة طريفة أنّ رجلاً اعتقل لأنه كان يحمل زقاً فارغاً (وعاء للخمر). فامر الوالي بجلده، فصاح وهو يجلد:

ـ لما تجلدونني؟ ان الزق فارغ.
ـ لأنك تحمل اداة الخمر وهو محرّم.
ـ وانت يا سيدي الوالي. الا تحمل اداة الزنى، وهو كذلك محرم؟

ومع شيوع عادة شرب الخمر ـ وهو محرم ـ اصبح الخمر موضوعاً لنوع آخر من الدعابات «الكفرية». قيل عندما اراد المنصور أنْ يكافىء الشاعر ابراهيم بن هرمه سأله عما يطلب فقال:

ـ اكتب الى واليك على المدينة ان لا يجلدني اذا اتي بي اليه وانا سكران.
ـ هذا غير ممكن، اطلب شيئاً آخر.
ـ ليس لي يا سيدي طلب آخر.

ففكر المنصور بحل يرضي الشاعر والشرع، واخذ قلماً وكتب الى الوالي: ان أتيَ اليك بابن هرمة وهو سكران، فاجلده ثمانين جلدة، واجلد الشرطي الذي يأتيك به مئة جلدة!

وسمع ظريف نصرانياً يصف الفردوس كما في تعاليم الكنيسة: ان اهل الفردوس

لا يأكلون ولا يشربون ولا يتزوجون، فقال: هذا هو تماماً الشقاء والحزن والبؤس بعينه!

والمؤلفات العربية ملأى بالنوادر السلبية والقصائد التهكمية التي تهاجم المنصور على ما اشتهر عنه من البخل. ومن المعروف أن الشعراء والكتاب العرب كانوا (وكثيرون منهم لا يزالون) يعتمدون في كسب رزقهم على سخاء الحكام. من هنا كان اشتهار المنصور بالبخل عائداً الى تقتيره على الشعراء، فالمنصور باني بغداد العظيمة، وقد كان جهده توفير ما تصل اليه يده من المال، لانجاز مشروعه الطموح. والفنانون، وهذا متوقع، كانوا ولا يزالون، اقل اهتماماً بمشاريع التنمية منهم بمتابعة اعمالهم الفنية الخاصّة. لهذا السبب تنكروا لتقتيره عليهم. ولقّبوه بـ الدوانيقي (والدانق اصغر قطعة في النقد العربي). ذكر المؤرخون عنه انه في حجه الى مكة ذات عام اعطى مغنيه مسلم الحاوي نصف درهم على ما غناه له في طريقه الى الحجاز. فاعترض الحاوي قائلاً: اني والله لقد غنيتُ لهشام في مثل ذلك فمنحني ثلاثين الف درهم. فاجابه المنصور: انت اخذت من بيت مال المسلمين ثلاثين الف درهم! ثم نادى كاتبه ربيعاً وقال له: عيِّن موظفاً يسترد من مسلم المال الذي اخذه من هشام. فاضطر مسلم الى أن يغني للمنصور من بغداد الى مكة ورجوعاً الى بغداد بالمال الذي اخذه من هشام.

ومما بُلي به الشعراء أنَّ الاحابيل كانت تنصب لهم لتحرمهم من الهبات. نمثل على ذلك برواية للأصمعي عن الخليفة المنصور العباسي. فقد قيل انه كان يحفظ القصيدة عند سماعه لها لأول مرة، وكان له مملوك يحفظها اذا سمعها مرتين، وجارية تحفظها بعد سماعها ثلاث مرات. الامر الذي مكنه اللجوء الى حيلة شيطانية كي يحرم الشعراء من جوائزهم. فكان اذا جاءه شاعر بقصيدة جديدة يمدحه بها لينال جائزة، امتنع عن اكرامه، بحجة ان القصيدة منحولة، ودليله على ذلك انه كان يعيدها من اولها إلى آخرها. ثم يدعو مملوكه، وقد سمعها مرتين، فيعيدها من بعده، ثم الجارية، وقد سمعتها ثلاث مرات. فيرتبك الشاعر ويخرج صفر اليدين، فيضحك جميع الحضور. وقد اسف الاصمعي للشعراء يُستغلون بهذه الصورة، ولم يجد في هذه الحيلة الخبيثة وجهاً من وجوه الدعابة، وقرر أن يُصلح الحال بحيلة مضادّة. فنظم ابياتاً شديدة التعقيد، حافلة بالالفاظ الغريبة والتراكيب المتشابكة، ثم تنكر بزي شاعر غريب، واستأذن بالدخول على المنصور لينشده قصيدته. فسمح له وانشدها بحضور المملوك والجارية. لكنها اربكت الخليفة بتعقيداتها، فلم يحفظ منها بيتاً واحداً، والتفت

الى مملوكه فرفع حاجبيه وقلب شفتيه، ثم الى الجارية فتبالهت. فلم يبق له إلا خيار الدفع. فقال للشاعر ـ ولم يعرفه ـ اعطنا الورقة التي كتبت عليها قصيدتك، نعطك وزنها ذهباً (كما جرت العادة) فقال الشاعر: عذراً يا سيدي، لم أجد ورقاً اكتبها عليه فنقشتها على هذا العمود من الرخام واحضرته معي. فاعطاه وزنه ذهباً، وترك خزانة المال شبه فارغة. ولم يهدأ روع الخليفة حتى استقدمه في اليوم التالي ليقف على خبره، فاحضروه اليه فاذا هو الاصمعي. فقال معتذراً ومشيراً: حقاً يا امير المؤمنين، إنّ هؤلاء الشعراء قوم مساكين وارباب عيال، وانت تحرمهم مما يحق لهم بفضل ذاكرتك وذاكرة خادميك. فلو مننت عليهم من فضل مالك لامكنتهم من اعالة عيالهم، دون أن يلحقوا بك ضرراً ما.

إن بخل المنصور، أوحى كما قيل، كتابين ـ على الاقل ـ من اشهر ما في تراث العرب الادبي: كتاب «البخلاء» للجاحظ، وكتاب «كليلة ودمنة» لابن المقفع. الاول سخر من مشاهير البخلاء، وابرز مقابح البخل وسخف اربابه. وقد تحدّثنا عنه سابقاً، ولنا اليه رجعة لاحقاً بشأن نزعته السياسية القومية؛ والثاني وضع اصلاً بالسنسكريتية، ثم نقل الى البهلوية؛ ومنها تصرف ابن المقفع بنقله الى العربية. فاضفى عليه طابعاً عربياً، وسخّره لاغراض سياسية خفية. والمقابلة الدقيقة بين الترجمة العربية والنص البهلوي، تظهر بوضوح، وجهة نظر المترجم المعارضة للحكم العباسي. والكتاب يشتمل على قصص خرافية رمزية تجري احداثها بين الحيوانات، وتدور حول اغراض تعليمية. وقد ترجمت لطرافتها الى لغات كثيرة. اول قصص الكتاب واشهرها قصة كليلة ودمنة، وهما اخوان من الثعالب؛ فيفكر دمنة بالدخول في خدمة ملك الغاب، الاسد. يقول ابن المقفع، «وكان هذا الاسد متفرداً برأيه غير آخذ برأي احد من اصحابه». ولكن دمنة يشرح لاخيه كيف سيتغلب على ملك الغاب بالتزلف اليه فاذا اراد امراً زينه له وشجعه عليه وعلى الوصول اليه، «واذا اراد امراً يخاف عليه ضرره وشينه، بصرته بما فيه من الضرر والشين، واطلعته على ما في تركه من النفع والزين... فإن الرجل الاديب الرفيق لو شاء ان يبطل حقاً او يحق باطلاً لفعل، كالمصور الماهر الذي يصور في الحيطان صوراً كانها خارجة وليس بخارجة، واخرى كأنها داخلة وليست بداخلة». كل هذا الكلام يضيفه ابن المقفع للنص الفارسي الذي يميل الى الاستسلام والخضوع. اما كليلة فيحذر دمنة من هذا المشروع قائلاً: «ثلاثة لا يجترىء عليهن إلا اهوج: صحبة السلطان وائتمان النساء على الاسرار وشرب السم للتجربة». وتعرب النسخة الفارسية عن روح الخضوع في قول كليلة: «اننا خدم الاسد ومهمتنا هي الوقوف انتظاراً لتنفيذ ارادته واطاعة اوامره».

ولكن دمنة العنود ينفذ مخططه ويتقرب الى الملك ويصبح مستشاره ثم يأتيه بالثور فيصبح هذا أيضاً مستشاره ومقرباً لديه بعد أن اعجب بخواره. وهكذا يصبح الملك محاطاً بثعلب من جانب وثور من الجانب الآخر. بيد أن الثعلب يحس بالغيرة من الثور ويبدأ بالتآمر مع الذئب عليه فيوغر صدر الاسد ضده حتى يوفق في الاخير الى الايقاع به فيقوم الاسد بقتل الثور. وكما يحدث في مثل هذه المواقف، سرعان ما يكتشف الاسد ان الثور كان بريئاً وذهب ضحية لدسائس الثعلب فيأمر بسجنه واحالته الى المحكمة. وفي المحكمة يتقدم للشهادة ضد الثعلب كبير الخنازير. وما ان يراه دمنة حتى يطعن بشهادته ويتحداه بهذه الكلمات القاسية: «انت يا اعرج، يا ايها الخنزير المشوه بقوائمك العوجاء وخصيتيك المتدليتين وبطنك المنتفخة وشفتك المخزوقة وقبحك في الكلام والمظهر». فيتراجع الخنزير من مكانه ويشعر بالخزي ويبدأ بالبكاء. «اجل. عليك ان تبكي عسى ان يرى الملك عيوبك وقذارتك فيبعدك من مجلسه وخدمته ومائدته».

وكم كان بودنا أن نعرف مَن مِنْ شخصيات البلاط العباسي كان ابن المقفع يفكر بها عندما صور هذه الحيوانات. وعلى كل فان محكمة الغاب تدين الثعلب في الاخير وتصدر حكمها ضده بالإعدام بناء على شهادة شاهدين عدلين، هما الضبع والنمر. ونعم الشاهدين!

وتستمر القصة وتليها قصص داخل قصص. ولم يكن الخليفة المنصور غافلاً عن فحوى حكايات كليلة ودمنة فأمر بتصفية الكاتب. ويظهر أن ابن المقفع اكتسب هذا الكره للسلطان والسلطة مما جرى لوالده الذي غضب عليه الحجاج وامر بسجنه وتعذيبه بالضرب على يديه حتى تقفعت يداه (ومن هنا لقب المقفع) لخيانته وظيفته كمحاسب للحجاج واختلاسه شيئاً من اموال الدولة، كما قيل. هل ذهب المقفع ضحية لدسيسة كما ذهب الثور ضحية لمكيدة ابن آوى؟

ان نصيحة ابن المقفع بوجوب التوقي من السلطان قد اتبعها رجل واحد على الأقلّ اراد المنصور ان يعينه قاضياً خاصاً. فاعتذر الفقيه عن قبول مثل هذه الوظيفة بحجة انه لا يتحلى بمؤهلات القاضي الضرورية فأجابه المنصور: «هذا غير صحيح. انك اعلم الناس بالفقه والشرع». فأجابه القاضي: «انك تشهد بذلك يا امير المؤمنين. بأنني اكذب».

وكذلك سخر الناس من قواد الجيش، كما يتضح من الرواية التالية: قيل احضر اسير حرب من ثوار الخوارج امام المنصور، فسأله عن قوّاد الجيش العباسي. من منهم

اظهر بسالة فائقة، فاجاب: انا لا اعرفهم من وجوهم، لأنني لم ارَ منهم سوى ظهورهم.

وبعد وفاة المنصور، اخذت سلطة العرب تتلاشى بحكم تكاثر العناصر الاسلامية غير العربية، في الادارة. وكان من الطبيعي أن يؤدي ذلك الى مزيد من التوتر الاجتماعي والنزاع العنصري. فالمأمون بن الرشيد ملأ الادارة بالموظفين الفرس وهم اخواله. واخوه المعتصم بعده، اتخذ معظم جنوده من الاتراك وهم كذلك اخواله. وكان اقل اهتماماً من اخيه المأمون بالعلم والادب. فتنكّر له الشعراء والكتاب، ونسبوه الى الخرق والغباوة، واشاعوا عنه الكثير من البلاهات. قالوا: كان وهو صغير يذهب الى المدرسة مع فتى آخر من البلاط، فمرض رفيقه هذا ومات. وعندما نقل الرشيد الى ابنه خبر وفاة رفيقه صُعِق، لكنه قال: انه على الاقل في راحة الآن، لا يحمل هم الذهاب الى المدرسة. فاجابه الرشيد مستغرباً: وهل المدرسة بغيضة اليك الى هذا الحد؟ وسمح له على الاثر بالانقطاع عن المدرسة فنشأ جاهلاً.

روي عنه أنّ رجاله قبضوا على رجل ادعى النبوّة واحضروه اليه فسأله:

- هل انت نبي؟
- انا كذلك.
- والى من ارسلك الله؟
- اليكم جميعاً.
- انت ولا شك مجنون!
- اما قيل ان الله يختار نبيه شبيهاً بمن يرسله اليهم؟

منذ ذلك الوقت اصبح الاعاجم برطانتهم، وعاداتهم الغريبة، وظلمهم المشؤوم، وتقتيرهم البغيض، وتنكرهم للضيافة، واحكامهم التافهة، هدفاً لارباب الظرف والدعابة.

ومن النكات العنصرية النموذجية التي شاعت عند الاتراك، ما روي عن والٍ تركي وجد يوماً يبكي متأثماً، ويصلي تائباً ملتمساً الغفران. فسأله رفيق له عما فعل مما استوجب العذاب النفسي، فأجاب:

- قتلت اربعة رجال!
- اربعة فقط؟
- اعني من الاتراك فقط، انا لا أحسب الفلاحين فهم كُثُر.

ولقد اجتمعت عناصر العجمة والجنديّة وغرابة الاطوار في شخصية قراقوش، لتعطينا واحدة من أشهر شخصيات ادب الظرف العربي. وقراقوش كان قائداً تركيّاً في جيش صلاح الدين. وكان يرعى له الشؤون المصرية. و «حكم قراقوش» اصبح نموذجاً لتفاهة الحكم وفساده في العالم العربي. ولقد نُسِجَ حول اسمه الكثير من النكات والنوادر، حتى ان ابن مماتي وجدها حرية بالجمع والحفظ، فدونها في كتاب اختار له عنواناً طريفاً هو: «الفاشوش في حكم قراقوش». نختار منه النماذج التالية:

- جيء اليه بجندي صدم امرأة، وهي حامل لسبعة اشهر فاجهضت. فحكم عليه قراقوش بان يضاجع المرأة الى ان تحمل منه ويبلغ جنينها شهره السابع.

- رفع المزارعون اليه التماساً بان يعفيهم من اداء الضريبة لأن شدة الصقيع اتلفت موسم القطن. فردّ طلبهم لأنه كان عليهم ان يتداركوا الامر فيضعوا على القطن بعض الصوف ليقيه اذى الصقيع.

- حمل رجل الى قبره ليدفن على اعتبار انه ميت. فاخذ يصيح ويطلب النجدة، ويقول انه حي لا ميت. وصادف مرور قراقوش فاستغاث به مردداً انه حي لا ميت. فقال له قراقوش: تريدني ان اصدقك واكذّب كل هؤلاء الناس؟

- قتل حداد رجلاً فأمر قراقوش باعدام الحداد. فجاءه اهل الناحية يرجون منه ان لا يقتله لأنهم بحاجة اليه. وفيما هو يفكر كيف يجري العدالة مجراها مر قفّاص عبر الطريق. فصاح بالجلاد أن يقتل صانع الاقفاص بدلاً من الحداد إذ لا حاجة لأحد اليه.

- حكم قراقوش على مجرم بالاعدام شنقاً، فسيق الى المشنقة. لكن الجلاد وجده اطول من حبل المشنقة فعاد الى قراقوش يخبره بتعذر تنفيذ الحكم، فقال له لا بد من تنفيذ الحكم. فاذا كان طول الرجل يحول دون تنفيذه فنفذوه برجل اقصر منه!

- شكا اليه رجلان بلحية رجلاً امرد لأنه عبث بلحيتيهما. فتصور قراقوش انهما ملسا لحيته، فاصدر حكمه: «خنوهما حتى تطلع لحية الرجل».

ولقد ظهرت شخصية قراقوش في عدد من البلدان في الشرق الاوسط، واحياناً باسماء اخرى مثل «ارتين» في ارمينيا. وقد حشد العرب براعتهم الادبية لتعزيز نضالهم ضد الشعوبيين (الاعاجم) وانضم الى مناضليهم - مجاهرةً او مداورةً - عدد من كبار الشعراء والكتاب. فالجاحظ، على سبيل المثال، استخدم كتابه «البخلاء» وسيلة

للتشهير بالفرس. والعرب، باعتبار تاريخهم الطويل في الجود والضيافة والسخاء، رأوا البخل، والاعراض عن الضيافة، من اقبح خصال المرء. والجاحظ الذي اشاد كثيراً بفضائل قومه العرب، استغلّ كتابه المذكور لابراز هذه النقيصة في اهل خراسان وسكان مدينة مرو على الاخصّ، وجعلهم ابخل اهل الارض. قال متهكماً: إذا زرت خراسانياً سألك: هل تغديت؟ فإذا اجبت بالايجاب قال لك: لو لم تتغدَّ لقدمت اليك طعاماً شهياً. وان اجبت بالنفي لقال: مع الاسف، لو تغديت لقدمت لك شراباً منعشاً. وقد وجد الجاحظ أن اقبح نقائص الخراسانيين امتناعهم عن الاجتماع للاحتفال، أو لتناول الطعام معاً. فقد قال احدهم: من الطبيعي أن يأكل المرء منفرداً، والاشتراك في الطعام ظاهرة غير طبيعية. على ان الجاحظ وجدهم راغبين في الاشتراك في الطعام متى وجدوا في ذلك مصلحة لهم. وعندها يأكلون من صحن واحد، قال:

> عندما يبتاعون اللحم، يقسمونه بينهم قبل طبخه، فيربط كل واحد منهم قطعته بخيط يجعل فيه علامة فارقة. ثم يضعون قطع اللحم في قدر فيها مرق وتوابل. وعند النضج يسحب كل واحد منهم قطعته بخيطه، ثم يتوزعون المرق. وبعد الفراغ من الطعام يجمعون الخيوط ويحفظونها. حتى إذا اشتركوا في الطعام ثانية استخدموا الخيوط نفسها. لأنها مشبعة بالسمن والمرق. واشتراكهم ليس من أجل متعة العشرة، بل لأن الواحد منهم لا يودّ أن يتحمّل نفقات الطبخ وحده. وبذلك يقتصدون بنفقات النار والخل والتوابل والثوم.

ويروي الجاحظ في نادرة اخرى أنّ جماعة من الخراسانيين اتفقوا على التخفيف من حلوكة الظلام في لياليهم، باضاءة سراج زيت بالاشتراك. لكن احدهم امتنع عن دفع ما يترتب عليه من ثمن الزيت والفتيل. فكانوا إذا اضاءوا السراج عصبوا عينيه، ومتى اطفأوه ليناموا ازالوا العصبة عن عينيه.

على أن الشعوبيين لم يقابلوا التبجح العربي بالصمت. بل قاوموا الدعاية العربية بمثلها. فسخروا من خشونة حياة البدو، ومن سخف عاداتهم وسماجة تقاليدهم. لا سيما من الاسلوب المصطنع الذي استهلوا به قصائدهم وضمنوه مناجاة الحبيبة الراحلة ووصف بقايا الدار التي خيموا فيها. فقد اكثر ابو النواس، الشاعر الشعوبي الكبير، من التهكّم على قبائل العرب التي ترددت اسماؤها في شعرهم، كما في قوله:

عاج الشقيُّ على رسم يسائله	وعجت اسأل عن خمارةِ البلدِ
يبكي على طللِ الماضين من اسدٍ	لا درُّ درُّك، قل لي مَنْ بنو اسدِ
ومَنْ تميم، ومَنْ قيس، ولفّهما	ليس الأعاريبُ عند الله من أحدِ

وله، مما غلب فيه التهكم على التحقير، قوله:

قُلْ لمن يبكي على رسمٍ درسْ واقفاً. ما ضَرَّ لو كانَ جَلسْ؟
اتركِ الربعَ وسلمى جانباً واصطبخ كرخيةً مثلَ القبسْ

وكان العرب شديدي الفخر على الفرس بشعرهم. قال احدهم لفارسي: انتم الفرس ليس فيكم شعراء، فإن وجد فلا بد انهم ابناء رجال من العرب ضاجعوا نساءكم! فردّ الفارسي: وعلى ذلك فغير الشعراء من العرب هم ابناء الفرس الذين ضاجعوا نساء العرب!!

أما المنافسة ما بين ابناء المجتمع الواحد فكانت، من بعض وجوهها، امتداداً للمشاحنات القبلية التي اوحت بروائع كثيرة من الشعر الهجائي، وبلغت اوجها في نقائض جرير (ت: ٧٣٣م) والفرزدق (ت: ٧٣٢م). ونقائض جرير والاخطل (ت: ٧٢٨م)، أما جرير فأكثر ما عيّر به الفرزدق انه قين: اي حداد، لأن جده كان يملك مصنع حدادة، والصناعة عند العرب آنذاك من احقر الاعمال. قال يهجوه من قصيدة طويلة:

وعرقُ الفرزدق شرُّ العروقِ خبيثُ الثرى كابيُ الأزندِ
وفاز الفرزدقُ بالكلبتين وعدلٍ من الحُمَمِ الأسودِ
فرُقّع لجدُك أكيارَهُ وأصلحْ متاعَك لا يفسدِ
وأدنِ العلاة وأدنِ القرومَ ووسّعْ لكيرك في المقعدِ

ويظهر التأثير البالغ الذي يخلفه الهجاء، من حادث رواه صاحب الأغاني، عن شاعر مغمور هو راعي الابل، من قبيلة نمير؛ حقد عليه جرير لأنه فضل الفرزدق عليه، وبات يخشى من جرير شراً. الى أنّ التقاه صدفة، وكان مع الراعي ابنه جندل فصاح بأبيه: لماذا تخشى هذا الكلب من بني كليب، كأنك ترجو منه خيراً، أو تخشى فيه شراً. ثم ضرب الدابة فجمحت والقت بجرير على الأرض. وسقطت عمامة جرير من على رأسه، فتناولها وردها الى رأسه، واسمع جندلاً كلاماً قبيحاً، وانذرهما بهجاء مقذع. وعاد مساء الى عليته، واقام ليلة ينظم اهجيته في بني نمير، الى ان تمت ثمانين بيتاً. وقصد في الصباح الى حيث التقى الفرزدق والراعي، ودعا بالناس فاجتمعوا اليه، فانشدها والناس يصغون، ومما جاء فيها:

... فلا صلّى الالهُ على نمير ولا سُقِيت قبورُهم السحابا
ولو وُزنت حلومُ بني نميرٍ على الميزان ما وزنت ذبابا
فغضّ الطرفَ انك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فنادى الراعي بقومه ان يسرجوا ويرحلوا، إذ لم يعد لهم في البصرة من مقرّ. فرحلوا عنها الى البادية، وهم يلومون الراعي على ما سبب لهم من خزي. وبقي الناس مئات السنين بعد ذلك يرمون قوم نمير بابيات جرير.

ومع أُفول نجم الخلافة، وزوال الهالة التي جللت الحكام، تحرر الشعراء من بعض القيود، وهانت عليهم هيبة السلطة، فغبروا يروّحون عن انفسهم بممارسة الهجاء الذي احبوه، بجرأة وصراحة لم تعهد من قبل. فنظموا من الاهاجي ما قل نظيره في الأدب العربي. نمثل على ذلك بما هجا به بشار بن برد الخليفة المهدي. قال محرّضاً بني أُميّة على استرجاع الخلافة من العباسيين:

بني امية هبوا طالَ نومُكمُ　　إنَّ الخليفةَ يعقوب بن داودِ
ضاعت خلافتكم يا قومُ فالتمسوا　　خليفة الله بين الزقّ والعود

واشد من ذلك قول دعبل الخزاعي يهجو المأمون ويمنّ عليه بقتل اخيه الامين ومنافسه، قال:

اني من القومِ الذين سيوفُهم　　قتلتْ اخاكَ وشرّفتك بمقعدِ
شادوا بذكرك بعد طول خموله　　واستنفذوك من الحضيض الاوهدِ

وله في المعتصم وهو ثامن خلفاء بني العباس:

ملوك بني العباس في الكتب سبعة　　ولم تأتنا عن ثامنٍ لهمُ كتبُ
كذلك اهل الكهف في الكهف سبعة　　خيارٌ اذا عُدّوا، وثامنهم كلبُ

وإذا كانت جرأة الشعراء على الخلفاء قد بلغت هذا الحد من القحة، فما ظنك بموقفهم من الحكام والولاة؟ قال ابو العلاء:

إنْ العراقَ وان الشامَ من زمنٍ　　صفران ما فيهما للملكِ سلطانُ
ساس الانامَ شياطينٌ مسلّطةٌ　　في كلّ مصرٍ من الوالين شيطان
مَنْ ليس يحفلُ خمصَ الناس كلهمُ　　ان بات يشرب خمراً وهو مبطان

على أن اشهر قصائد الهجاء في الادب العربي، جاءت من وحي امير شعراء العرب في كل زمان، ابي الطيب المتنبي. (٩١٥-٩٦٥م) وذلك في هجومه الشرس على كافورِ الاخشيدي حاكم مصر. فالمتنبي الطموح، المعجب بنفسه، الفخور بنسبه العربي وبعلمه الواسع، والذي بلغ به التيه وهو شاب أنْ انزل نفسه في منزلة الانبياء، تحوّل بعامل القدر الغاشم وغيظ الحسّاد، الى مستعطٍ على باب كافور، ذلك العبد المعتق،

الذي غدر باسياده واغتصب ملكهم. لكنّ المملوك الحاكم لم يبّلغه امانيه، ولا سمح له بالسفر، فعزم بعد اليأس على الهرب. ووافق هربه في يوم عرفات، وهو عشية عيد الاضحى، فتفجرت نفسه بقصيدة جمعت كل ما احتبس فيها من الغيظ والحقد والاحتقار، استهلها بقوله:

عيدُ بأيّةِ حالٍ عدتَ يا عيدُ ... بما مضى؟ ام لأمرٍ فيك تجديدُ؟

وبعد أن يتحسّر على ما كان عليه من العزّ في بلاط سيف الدولة، يعرض لما لاقاه من الذلّ في بلاط كافور، فيقول هاجياً:

امسيتُ أروحَ مثرٍ خازناً ويداً ... انا الغنيُّ واموالي المواعيد
إني نزلتُ بكذّابين ضيفهُم ... عن القِرى وعن الترحال محدود
جودُ الرجالِ من الأيدي وجودُهم ... من اللسانِ، فلا كانوا ولا الجود
ما يقبضُ الموتُ نفساً من نفوسهم ... الا وفي يدهِ من نتنِها عود
من كلّ رخدٍ وكاءِ البطنِ منفتقٍ ... لا في الرجالِ ولا النسوانِ معدود
أكلّما اغتالَ عبدُ السوءِ سيّدَه ... او خانه، فله في مصرَ تمهيد؟
صار الخصيُّ امامَ الأبقينَ بها ... فالحرُّ مستعبدٌ والعبدُ معبود
نامتْ نواطيرُ مصرٍ عن ثعالِبها ... فقد بَشِمْنَ وما تفنى العناقيد
العبد ليس لحرٍ صالحٍ بأخٍ ... لو أنّه في ثِيابِ الحرِّ مولود
لا تشترِ العبد الّا والعصا معه ... ان العبيدَ لأنجاسٌ مناكيد
ما كنتُ أحسبني أحيا الى زمن ... يسيءُ بي فيه عبدٌ وهو محمود
ولا توهّمتُ أنّ الناسَ قد فُقِدوا ... وان مثلَ ابي البيضاء، موجود
وان ذا الاسودُ المثقوبُ مشفرهُ ... تطيعهُ ذي العضاريطُ الرعاديد
جوعانُ يأكلُ من زادي ويمسكني ... حتى يقال «عظيمُ القدرِ مقصود»
ان امرءاً امّهُ حبلى تدبّره ... لَمستضام سخينُ العينِ مفؤود
وَيلمها خطّةً! ويلمّ قابلها ... لمثلها خُلِقَ المهريّةُ القود
وعندها لذّ طعمَ الموتِ شاربُهُ ... إنّ المنيّةَ عند الذلّ قِنديد
من علّم الاسودَ المخصيَّ مكرمةً ... اقومُهُ البيضُ ام آباؤُهُ الصيدُ
ام اذنُهُ في يدِ النخاسِ داميةً ... ام قدرُهُ وهو بالفلسينِ مردود
أولى اللئام كويفيرٌ بمعذرةٍ ... في كل لؤمٍ، وبعضُ العذرِ تفنيد
وذاك أنّ الفحولَ البيضَ عاجزةٌ ... عن الجميلِ، فكيفَ الخصيةُ السود!

وفي قصيدة اخرى، قالها وهو هارب عبر صحراء سيناء، يصف خضوع المصريين لكافور بما يذكر بخطب الحجاج في اهل العراق. لكنه قبل أنْ يطبق على كافور واصله الوضيع، يتحدث، على سبيل المعارضة، عن سموّ مكانته هو، ونبل اصله، وشرف نسبه، جاء فيها:

فلما أُنخْنَا رَكَزْنا الرما	حَ بين مكارمنا والعلى
وبتنا نقبِّلُ اسيافَنَا	ونمسحُها من دماءِ العِدى
لتعلمَ مصرُ ومَنْ بالعراقِ	ومَنْ بالعواصم أني الفتى
وأني وَفَيْتُ وأني أبيتُ	وأني عَتَوْتُ على من عتا
وما كلُّ مَنْ قالَ قولاً وفى،	ولا كلُّ مَنْ سِيمَ خسفاً أبى
وكلُّ طريقٍ اتاه الفتى	على قدرِ الرِّجْلِ فيه الخطى
ونامَ الخويدِمُ عن ليلنا	وقد نامَ قبلُ عمى لا كرى
وكان على قربنا بيننا	مهامهُ مِنْ جهلِهِ والعمى
وماذا بمصرَ مِنَ المضحكاتِ	ولكنهُ ضحكٌ كالبُكَا
بها نبطيٌّ من أهلِ السوادِ	يدرِّسُ انسابَ اهلِ الفلا
واسودُ مِشفرهُ نصفهُ	يقال له: انتَ بدرُ الدجى
وشعرٌ مدحتُ به الكركدنَّ	بين القريضِ وبين الرقى
فما كان ذلك مدحاً له	ولكنه كان هجوَ الورى
وقد ضلَّ قومٌ باصنامهم	واما بزقِّ رياحٍ فلا
ومن جهلت نفسُهُ قدرَهُ	رأى غيرُهُ منه ما لا يرى!

شهد عصر الانحطاط مجاعة اجتاحت عامة الشعب، وجماعات اتخذت الاستعطاء والسرقة والاحتيال سبيلاً الى الرزق. ونحن نجد صوراً طريفة من حيلة هؤلاء في سير ابطال مقامات الهمذاني والحريري، وقد حفلت بكثير من الظرف والدعابة. إلا أنها افرغت في قالب لفظي حافل بالالاعيب الكلامية والحذلقات البيانية. لكنها اشتملت على الكثير من الدعابات القديمة الشائعة، التي تعبر عن مشاعر الناس، وتسرّي عن نفوسهم، فعلَ الظرف الجيد. ففي احداها أن رجلاً كان يشكو الى صديقه سوء حاله، فردّ الصديق مطيباً خاطره بقوله: هوّنْ عليك يا صاحبي، لو وقف رجل في باب السوق وصاح بالجمع المزدحم: يا ايها الفقير! لما وجد في الناس من لم يجبه: ها انذا هنا! وفي نادرة اخرى يسأل المريض طبيبه: ما انسب الاوقات لي لتناول الطعام؟ فيجيبه الطبيب: إذا كنت غنياً فكل ساعة تشاء، وان كنت فقيراً فكل عندما تجد طعاماً.

ويورد الكتبي في كتابه: «هزل الليالي»، نادرة تداولها ظرفاء العرب مؤخراً بمناسبة الثورة الفلسطينية ومصيرها، تمثل يأس هذا الشعب المنكوب، واخفاق محاولات كشف المظالم التي لحقت به. وفيها أن العدل والظلم اشتركا في شراء حمار للقيام برحلة على أن يركبه كل منهما ساعة بالمداولة. وبعد أن ركبه العدل ساعة نزل عنه للظلم. لكن الظلم، بعد انقضاء ساعته، امتنع عن النزول للعدل. وفيما هما في جدل، مرت جماعة من الناس وسعت بالصلح، فحكمت للعدل على الظلم، فرفض الظلم التحكيم واشار باستشارة جماعة اخرى قد يصادفانها في الطريق. فكررت الجماعة الثانية حكم الاولى، وكرر الظلم الرفض وابدال الحكم. وتتابع الحكم والرفض الى أن انتهت الرحلة، والظلم على ظهر الحمار، والعدل يجرّ قدميه.

أما النوادر التي تتحدث عن حيل الشحاذين، وبخل الاغنياء، فتملأ مجلدات عديدة. وغدت ذخيرة للظرفاء يسلّون بها الناس. منها ان شحّاذاً طرق باب احدهم فاجابه صاحب الدار من الداخل: متأسف زوجتي خارج البيت. فقال الشحاذ: ليس مرادي المضاجعة بل كسرة خبز اسد بها رمقي. وتوالى الشحاذون على باب غني بخيل فكان يصرف كلاً منهم بقوله: اسأل الله أن يرأف بك ويسد جوعتك. وإذ ملّ من توالي الشحاذين وتكرار جوابه، قال لابنته متضجراً: متى تنتهي هذه القافلة من الشحاذين؟ فاجابته: وعلامَ التذمر وانت لا تعطيهم الا كلاماً؟!

على أن اشهر ظرفاء العالم الاسلامي هو، بلا مراء، جحا الحكيم الاحمق، الذي تقدم ذكره في الفصل السابق. وليس من دليل على مدى شعبيّته يمكن أن يكون ابلغ من تنازع العرب والفرس والترك والاكراد في نسبته اليهم، مما اعطاه احياناً اسماء مختلفة. ونحن نجد نوادره في التركية منسوبة الى «خواجا نصر الدين». وفي الارمنية الى «ارتين». وفي الفارسية الى «ملّا نصر الدين». وفيما يجعله الاتراك في عهد تيمورلنك (القرن الرابع عشر) يصرّ العرب على نسبته العربية ويرجعونه الى عهد المنصور والمهدي (القرن الثامن). فقد ظهر انذاك ظريف اسمه ابو الغصن دجين بن ثابت من قبيلة فزارة لُقّب بـ«جحا»، ورُدّت اليه بعد ذلك، بعض النوادر التي شاعت بالتركية او بالفارسية. والواقع أن ابن النديم (٩٩٥م) يذكر في كتابه «الفهرست» مجموعة من نكات جحا تحت عنوان «كتاب نوادر جحا» وهذه وثيقة تاريخية. أما باعتبار الغرض من كتابنا هذا، فإنّ جحا هذا يبدو انه شخصية شعبية، عبّرت عن مشاعر الناس وافكارهم في مدى واسع من البلدان التي تشابهت بأحوالها ومراحل تاريخها.

إن وجود مثل هذه الشخصية عند العرب قد يكون واقعاً تاريخياً. ثم اضيفت الى

صاحبها، مع مرور الزمن، نوادر مماثلة في قوميات اخرى، اعتنقت الاسلام والتحقت باهل دعوته، فوضع لذلك في فترات متباينة من التاريخ. فبينما تجعل المصادر العربية وفاته عام ١٦٠ للهجرة (٧٧٦م) فإن الأتراك يؤخرونها الى القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد). ومهما يكن من أمر، فان نوادر جحا، بصرف النظر عن اصلها وتاريخها، اصبحت جزءاً من تاريخ العالم العربي الشعبي، مكتوباً او مروياً. فقدر لها أن تصبح في عصر متأخر، مصدر إلهام في حقل السياسة المعاصرة. ان نسختي من كتاب «نوادر جحا» قديمة بالية، ظفرت بها في قرية مغربية نائية، عند بائع متجوّل.

لعب جحا احياناً دور الاحمق، وتظاهر بالبلاهة، لا سيما في حضور اهل العنف من الحكام. وهذا ما فعله عندما جيء به الى ابي مسلم الخراساني، القائد المغامر الذي خطط للثورة العباسية ضد الامويين. وكان يقطين، كاتب ابي مسلم، قد ابلغه ان سيده يريد أن يراه. وعندما دخل القاعة رأى ابا مسلم ويقطين ينتظرانه. فخاطب يقطين قائلاً: «قل يا يقطين من منكما ابو مسلم؟» إنه مثال جيد لما سماه العرب بالتحامق. يمثل جحا حلقة اخرى من تلك الشخصيات الخالدة في الادب مثل شفابك في عالم الرواية وهملت في عالم المأساة، شخصية العاقل الذي يصبح مجنوناً أو يتظاهر بالجنون والحمق ليستطيع التعامل مع عالم مجنون. ويختفي عن المسرح ليترك المؤرخين والنقاد يحيرون في حقيقة أمره، اكان من الحمقى أو المتحامقين؟.

ويبدو جحا احياناً اخرى خبيثاً ووقحاً، مثله عندما رافق الوالي الى الحمام، فسأله الوالي وليس عليه سوى المنشفة:

- كم تقدّر أنني أُساوي؟
- خمسين ديناراً.
- تباً لك، ان منشفتي وحدها تساوي هذا المبلغ.
- اعلم ذلك، وعليه بنيت تقديري!

ولاحظ تيمورلنك ان حكام المسلمين يسمون انفسهم المتوكل على الله والمعتصم بالله والمستنصر بالله فسأله أن يقترح عليه اسماً يستعمله فقال جحا: «نعوذ بالله».

على أن هفوات الجماهير من عامة الناس تتمثل بنوع آخر من النوادر تظهر ترفّع الادباء عن العوام، والاستخفاف بهم. قيل جاء تيمورلنك بفيل يسليه، باعتبار انه حيوان بيتي مدلل. لكن الفيل روّع سكان المحلة. لأنه راح يدوس غلالهم، ويأكل محاصيلهم، ويدمر حظائرهم. فقرروا، بعد لأي، أن يرسلوا الى الحاكم وفداً برئاسة جحا. وفي الموعد

المضروب توجه الوفد الى القصر وعلى رأسه جحا. لكن اعضاء الوفد تهيبوا من مواجهة الحاكم العاتي واخذوا يفرون واحداً بعد الآخر. واذا جحا وحده امام الحاكم. فصاح به غاضباً:

ـ ماذا بشأن فيلي يا رجل؟

ـ لقد كلفني اهل المحلة بأن انقل اليكم سرورهم بالفيل، ورغبتهم بأن تؤانسوه بانثى تزيد بمرحه وتكثر من نسله.

ـ شكراً، سافعل بكل سرور!

وعندما عاد جحا الى جماعته بشرهم بأن الفيل الواحد سيصبح فيلين.

وفي مناسبة اخرى، شارك جحا جماعة تألّبوا على رجل، وانهالوا عليه بالضرب. فسأله احد المارّة: لماذا تضرب هذا الرجل؟ فاجاب: لا ادري، انما اردت مشاركة الجماعة، التماساً لرضا الله ـ فالله مع الجماعة!

ثم ان في شخصية جحا ومواقفه مفارقات كثيرة تنبيء بتعدد مصادر نوادره، واختلاف أقلام مدونيها. فهو في واحدة منها رجل دين يعتمر عمامة فقيه. وقد وقف في باب امير. وكان قد سمع ان الامير يطلب معلماً يعلم حماره المدلل النطق لقاء أجرٍ سخي. فجاء يعرض خدمته على الامير. على انه اشترط مهلة خمس وعشرين سنة. وانذره الامير بقطع رأسه ان هو اخفق. وعندما عاد الى البيت صاحت به زوجته:

ـ هل جننت؟ من يستطيع أن يعلم حمارا النطق؟

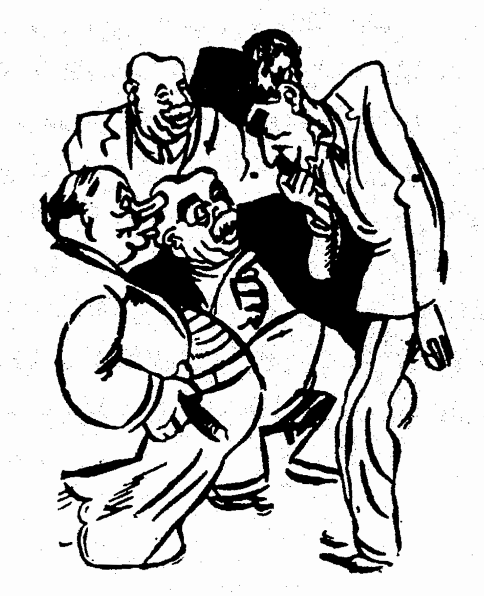
ـ لا احد. ولكن هوني عليك يا امرأة، لا تخشي عليّ شراً، ففي مدى خمس وعشرين سنة لا بد أن يموت احدنا: الامير او الحمار او انا!

تذكّرتُ هذه النادرة، وتحقّقت من مدى تأثير شخصية جحا في اهل الشرق الاوسط، عندما قرأت مخطوط كتاب يهاجم احد الحكام العرب، فقلت للمؤلف: لا يمكن نشر هذا الكتاب الآن وإلا عرضت حياتك لخطر الموت! فأجاب: لا تخف. فمن الآن حتى اجد ناشراً ينشره. ثم طابعاً يطبعه، يكون الحاكم قد خلع، او الناشر قد افلس، أو انا قد متّ!

كان الاستبداد على اشدّه في الشرق الاوسط، في غضون حكم تيمورلنك. والكثير من نوادر جحا تدور حول حكومة هذا الطاغية المغولي. فذات عام صمم على مراجعة دفاتر حسابات احد ولاته، فعثر فيها على قيود تجرّم الوالي، فحكم عليه بأن

يأكل جميع دفاتره حتى ولو تسببت بموته. وعين جحا محاسباً مكانه. وفي آخر تلك السنة جاء جحا الى الحاكم بحساباته مكتوبة على حزم من الخبز الفطير!

تكاد تكون كل نادرة من نوادر جحا نموذجاً لظرف يهدف الى تصحيح خلل اجتماعي، او تقويم تصرف سيّء. ولئن كان الكثير منها تعليمي مملّ، فان القليل منها ينبع من السياق المعروف الذي سلكه زملاؤه من الظرفاء في الكشف عن عيوب القضاة والحكام، من انحراف وجهل. ومع مرور الزمن، ومعاناة الناس من خلل الادارة العثمانية، كثر استنباط الظرفاء لامثال هذه النكات والنوادر، وشاعت على السنة الناس، حتى كان منها مجموع ضخم من الادب المروي، يتحدثون به في الاسواق والمقاهي، ويتخذون منه شعارات ترتفع بها اصوات المتظاهرين في الاحياء والطرق. ولقد اورد الجبرتي من الأغاني الشعبية والقصائد الزجلية، ما حفل بالتهكم الجارح والسخرية المؤلمة، نخصُّ بالذكر منها قصيدة الشربيني: «هزّ القحوف في شرح قصيدة ابي شادوف» التي تصوّر بوضوح تعاسة المزارعين. وتدعو الى تحسين احوالهم. ولا شك أنّ جزءاً كبيراً من النكات الموضوعية قد فقد الآن لكن الكثير منها بقي متداولاً حتى نهضة العرب في اوائل القرن التاسع عشر، مع مزيد من معالم الحضارة الاوروبية، وارهاف الحس الدعابي. وهو موضوع الفصل التالي.



ـ لازم نبعد مكرم باشا من وسطنا
لأن مكرم كل غرضه ان
يستفيد على حسابنا!



ـ مالناش دعوة باحزاب المعارضة
لأن غرضهم أن يستفيدوا على
حسابنا احنا، يا مستقلين!

الموقف السياسي !!



- يجب ان لا نتعاون مع الجماعة المستقلين،
لأن غرضهم أن يستفيدوا على حسابنا!

الفصل الثالث

الظرف الصحافي في عصر الانبعاث

هنالك طريقة اخرى للتعامل مع الصحف المغالية بالتهكم هي الرد على هزلهم بالهزل، ومقابلة تفاهتهم بالتفاهة.

طه حسين

لقد هَبَّ الشرق الأوسط من نومه الطويل، عندما هَزَّهُ نابليون، سنة ١٧٩٨، هَزَّةً عنيفةً، باجتياحه للديار المصرية، واطلاق نشاطات ذات ابعاد لا تحصى فيها، بدا، في مقابلها، تراث الاجداد وحصاد الماضي، وكأنهما شيء لا يذكر، تجاه التجهيزات الآلية والفكرية والفنية الواردة من اوروبا. ولقد عبّر امين الريحاني، عام ١٩٢٢، عن هذا الاحساس بقول كثيراً ما أُثِرَ عنه، هو: أنا الشرق... عندي فلسفات... وعندي اديان... فهل من يبيعني بها طائرات؟! ثم إنّ محمد علي الكبير، حاكم مصر الجديد، رغبةً منه في اللحاق بالغرب، عزّز انطلاقه في هذا الاتجاه، بارسال العديد من بعثات الطلاب الى فرنسا، ليدرسوا العلوم الحديثة، ويترجموا المؤلفات الاوروبية الى العربية. وكان قد سبق للعباسيين في مستهل نهضتهم، في اوائل القرن التاسع، أن ترجموا علوم اليونان، إلا أنّ تلك العلوم اصبحت الآن قديمة، وغدت تراثاً ميتاً، لا سيما في حقل الادب. اما الادب الأوروبي الحديث فهو حيّ. وانظار العالم باسره مشدودة اليه. ولا ريب في أنّ ادباء العرب أُخذوا بسحر روائعه. وأنا استطيع أن اتصور هذا التأثير من اختباري الخاص. ذلك انني ما كدت اقرأ «سانت جوان» لبرنارد شو، ونظرية اصل الانواع لداروين، في اوائل العقد الثاني من عمري، حتى غدا النثر في الادب العربي عندي كالهباء المنثور، وغدا الهدف الملحّ في اعتباري التضلع من لغة اوروبية باقصر ما يمكن من الوقت. وقد عزّز عندي هذا

الانطباع، معلمي جاسم محمد الرجب، الذي كان دوماً يحثُ طلّابه على تعلُّم اللغة الانكليزية بقوله: ان مقطعين بالانكليزية يساويان مكتبة كاملة من الكتب العربية. والمهزلة في هذا التوجيه أنّ الاستاذ بالذات كان مدرسنا في مادة الادب العربي. ولم يتسنّ لنا تعديل نظرنا الى ادبنا العربي، واسترجاع اعتبارنا لتراثنا القومي، إلا بعد مرور اعوام طويلة.

تحت تأثير هذا العامل، اقبل كُتّاب العرب على المؤلفات الاوروبية، وراحوا يترجمون ويعدّلون، ويقتبسون ويعبثون، وينتحلون ويجددون، كل ما ظفروا به من ادب الغرب. والعرب، كما تقدّم لنا القول، اصحاب نزوع فطري شديد الى الدعابة. وهم مع ضخامة انتاجهم في هذا الحقل، فإنّ تراثهم منه محدود في تنوعه. لذلك عملوا، الى جانب اهتمامهم بالمخترعات الأوروبية الآليّة، على اقتباس الروائع الفنية. وكان اول مقتبساتهم البارزة الفن المسرحي الهزلي. واول الترجمات في هذا الحقل، تمت في لبنان على يد سليم النقاش واديب اسحاق، فقد ترجما عن الفرنسية لموليير مسرحيتين هما: «البخيل» و «ترتوف». على أنّ أولى المحاولات الاهلية في التأليف المسرحي الهزلي ظهرت في القاهرة سنة ١٨٧٢ بقلم الاديب المتعدد المواهب، يعقوب صنوع. ومن الاهمية بمكان، في هذا الصدد، ان نحيي ذكر هذا الاديب الفنان، وأنْ نسجّل، بكل دقّة وعناية، مراحل حياة هذا المحرك السياسي الفريد، فقد كان صنوع هذا ابناً لامرأة يهودية مصرية، وأب ايطالي. لكن امه، انسياقاً لقناعة خاصة، اقسمت على أن تنشئه على العقيدة الاسلامية. فتسنى له من التربية والتعليم والتوجيه، كل ما هو جدير بأن يجعل منه مسلماً صالحاً. وبحكم الجو البيتي الذي نشأ فيه، اقبل على تعلم اللغة العبرية ودرس الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. وما بلغ الثانية عشرة من عمره حتى اجاد قراءة القرآن بالعربية، والعهد القديم بالعبرية، والعهد الجديد بالانكليزية. وبعد أن اتقن الايطالية والفرنسية استأنف تحصيله في ايطاليا، ودرس من الفنون: الرسم والموسيقى، ومارس تعليم هذين الموضوعين في بعض المدارس. وقد قضى صنوع الشطر الثاني من حياته منفيًا في فرنسا، وفيها تزوج من امرأة كاثوليكية، ورزق منها اولاداً نشأوا في اوروبا على العقيدة المسيحية. وعلى ذلك، فقد انطبع صنوع بطابع عالمي لم يتيسّر مثله لسواه، ولم يظفر مصري قبله بافضل مما ظفر به هو من الثقافة الاوروبية والفكر الغربي.

قبل هذا التارخ بزمن طويل، عمد فنانون شعبيون الى تمثيل غطرسة الاغنياء. وتصرفات الاغراب. واستبداد الاقوياء بالضعفاء، عن طريق العاب الظل والمحاكيات

الهزلية. إلا أنّ صنّوعاً تحول الى المسرح التقليدي فألّف فرقة تمثيلية، بنى لها مسرحاً مؤقتاً بما تيسّر له. وكتب لها مسرحيات هزلية تهكمية تصدّى فيها لشرور مجتمعه. والحقّ أنّ الكثيرَ من الأوّليات في تاريخ المسرح العربي، وفنون الظرف العربي، بالامكان ارجاع اصولها الى هذا الرجل الفذّ. نذكر منها على سبيل المثال، التشنيع بممارسة تعدد الزوجات، كما تجلى في مسرحية «الضرّتان». فكان من الطبيعي ان تثير هذه المسرحية غيظ التقليديين، ورجال الدين المحافظين. كذلك الخديوي الذي كان قد اطرى مسرحياته الاخرى. وشرّفه بلقب «موليير مصر». ارسل الآن في طلبه الى القصر، وانذره عن هذا التعرُّض الوقح للدين الحنيف، والسنة الشريفة، وقال له: إذا كنت لا تقوى على ارضاء اكثر من امرأة واحدة، فليس لك أن تفترض أن سواك من الرجال هم على شاكلتك! وفي هزلية أخرى يسخر من الاستعمار البريطاني جاءت في مسرحية «السائح والحمار» رسم فيها «جان بول» رسماً هزلياً، وقد دفع به الانكليز الى الخديوي باعتباره رجلاً خطيراً. عوقب صنوع عليها باقفال المسرح، وتعطيل التجربة المسرحية العربية الأولى وعلى الاثر تحول مؤسس المسرح العربي الى حقل آخر من حقول الظرف النقدي.

كان صنّوع تلميذاً للمحرض والمصلح السياسي الاجتماعي جمال الدين الافغاني، الذي عرف ما للظرف من وقع في الميدان السياسي. فحثّ الفنّان الكاتب على اصدار صحيفة هزلية نقدية، رأت النور سنة ١٨٧٧، وطلعت على الناس بعنوان «ابو النظّارة الزرقاء». وعرف عنها بأنها نشرة معنية بالظرف والدعابة لا غير. وتعهّد أن لا يتعرّض فيها للدين ولا للسياسة المحلية. لكنه حنث بتعهده. ولما كان على علم بمدى صعوبة التعامل مع الخديوي، والمؤسسة الحكومية، والسلطة البريطانية، لجأ في نقده الى طريقة العرب المعهودة، في نبش الماضي واختيار ما فيه من النوادر التي تلقي ظلاً على الاوضاع المعاصرة، كتلك التي تميز بها حكم قراقوش.

وقد ساق احداث نوادره بشكل حوار بين شخصيتين هما ابو خليل وابو نظارة. وفي احد الامثلة راح يدافع عن فساد حكم الخديوي واستبداده بما يعرف في البيان العربي بالذم في معرض المدح كما في هذه القطعة في الحديث عن الصحيفة. ابو خليل: هلس ايه يا سيدي؟ ده عين اخد والحكومة لازم تكون مبسوطة منه... بيوري للاهالي الظلم اللي كان حاصل في ايام الغز، والعدل والانصاف اللي حاصل في عصر ملك مصرنا الحليم الشفوق اللي بيحب الرعايا كأولاده العزاز كما ترى.

ابو نظارة: انما بعض الأمراء ما همش فاهمين الأمر ده... ربنا يظهر الحق.

واذا لم يكن بين الأمراء من يعرف الحق، فقد عرفه الخديوي تماماً فأدرك ما كان يقصده صنّوع في هذه السخرية المتسترة، فأرسل رجاله ليوقعوا بصاحب الصحيفة، لكن الضرب الذي انهالوا به عليه لم يقض على حياته، بل حفزه لشحذ سيفه الانتقادي. وفي هذه الأثناء اوغل الخديوي في كبت النقد وتصفية الخصوم فشاع بين الناس انه كان يغتال اعداءه بإعطائهم قهوة مسمومة. وتناول صنوع هذه الشائعة بحوار ظريف:

- تريد تشرب ايه؟
- ابو نظارة قتيل البيرة.
- لا، الراجل يحب القهوة.

ابو نظارة: لا يا خويا. القهوة ما احبهاش، لأنها خطرة في الأيام دي واللي بيشرب منها فنجان بيبرم.

وأخيراً سافر صنوع الى فرنسا منفياً على الأرجح. وفيها أصدر عدداً من الصحف بأسماء مختلفة، تدور نشاطاتها حول شخصية «ابو النظارة الزرقاء» التي أصبحت الشعار الذي يعرف به. وكانت منشوراته هذه ممنوعة في مصر. فاستخدم أساليب مختلفة لتهريبها الى الداخل. ولم يتمكن محافظ الاسكندرية البريطاني من منع دخول هذه المنشورات الا باتفاق عقده مع وكيلها المحلي. هو ان يبيعه جميع الأعداد الخمس مئة المخصصة للبيع في مصر. فكان يدفع ثمنها ثم يجمعها ويتلفها. ولما بلغ صنوع هذا المصير لمنشوراته - وكان في وضع مالي سيّء - صار يرسل الى وكيله الف نسخة: ٥٠٠ منها للمحافظ برسم الاتلاف و٥٠٠ اخرى للبيع الحر. مما ساعده على تصحيح وضعه المالي. وهكذا استمر المحافظ البريطاني زمناً يمول الصحيفة الهدّامة من حيث لا يدري، معرضاً نفسه لمنتهى السخرية.

واستمرّ صنوع من منفاه يكيل الضربات لسيده السابق، (اذ كان قيماً على تعليمه في حداثته)، وهو في مأمن من بطشه، فقد كتب مرة عنه يقول:

«... وكفاك انه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً. ولا يوجد في وقت الصلاة الا قذراً. وفي رمضان الا مفطراً... نعم يصوم، ولكن عن الخيرات... ويستقبل الفجور ملطخاً بنجاسة الفحشاء... فاجر يقتات بالكبائر، ويتفكّه بالصغائر. ويروح من المَوْلَى شاكياً، وللشيطان شاكراً. فكأنه عاهد ابليس فلم يخفر له عهداً، ووعده ان يرتكب كل معصية فلم يخلف وعداً. اذا ذكر الاتقياء والانقياء قال أحضروا اليّ الحكيم، وان سمع بالأشقياء الأشرار قال: غنيّ بهم يا نديم...».

اما هدفه الثاني، بعد الخديوي اسماعيل، فكان الانكليز. فقد كرههم كمصري

وطني، وكمنحاز للفرنسيين. وعندما شهر السودانيون السلاح في وجه الانكليز، في أغسطس (آب) عام ١٨٨٨، هلل لنصرهم الأول في مقال له بعنوان «برج ايفل» قال فيه: «اني رأيت من اعلى «برج ايفل» اسود السودان قد اخذوا الانكليز على اسنة رماحهم، وكأنهم كباب من لحم الخنزير، مسيّخ بالسياخ، مسقّى ببول الحمير»! وكان صنّوع مصمماً على ان لا يطأ بقدمه ثانية التراب المصري، ما دام الانكليز هناك. وعندما احيل اللورد كرومر على التقاعد كحاكم على مصر سنة ١٩٠٧، وألحّ المصريون على صنوع بالرجوع الى مصر، كتب يقول: ان الطاغية الروماني، وهو في طريقه الى الحرب، استغرب من امرأة كان قد فتك بأهلها، دعاءها الى الآلهة ان تعيده من الحرب سالماً مظفّراً. فسألها عن سرّ دعائها هذا فأجابته: كان ابوك طاغية، وبعد موته ترك لنا بك حاكماً اطغى. وانني لأخشى ان انت مُتّ، أن تخلّف لنا من هو أطغى منك وأدهى...! قال صنّوع: انا ما افرحش بالرايح قبل ما أرى الجاي!

ومع كل ما أتى صنوع من أوليات في ميدان السياسة العربية، فإنه شخصيًّا لم يكن مفكراً مبدعاً، ولا دماغاً خارقاً. وفي الشواهد التالية يظهر مدى العمق في فكره ومقدار سعة النظر في ظرفه. لقد كانت أفكاره كأفكار معاصريه من أبناء المجتمع المتأثر بحضارة الغرب، لكن اسلوبه لم يتحوّل عن السياق التقليدي، القائم على الهجاء التهكمي، في قالب من النثر المسجّع، أو الزجل الشعبي، الحافل بضروب الشتائم البذيئة، والقذف القبيح، المعزّز بحكايات أخلاقية ونوافل تاريخية، الساخر من رطانة لغة الأجانب العربية «المكَسّرة». وقد جرى، كسواه من الكتّاب الظرفاء على استخدام اللغة المحكية لزيادة في الظرف، على اعتبار ان رفع اللغة العامية الى مقام اللغة الفصحى المكتوبة، هو بحد ذاته مجلبة للضحك.

وتعطي القطعة التالية نموذجاً من حواره العامي المسجوع يهاجم فيها الخديوي اسماعيل الذي اعتاد على قضاء معظم وقته في ايطاليا وأغرق مصر بالديون الأجنبية:

ارميا: كيف جالس في نابولي لوحده الأمير؟
ابو نظارة: لأن الناس الطاهرة تبعد عن الخنزير.
ارميا: من يسكن الآن في سراياتك الفاخرة يا فرعون؟
ابو نظارة: الفيران لأن بنبيعها في المزاد لدفع الديون.
ارميا: كيف صبح الخديوي الجليل اذل الأمراء؟
ابو نظارة: لكونه استهزأ بالملوك والوزراء.
ارميا: يبكي اسماعيل في الليل ودموعه على خده.

ابو نظارة: نعم من غيظه.. روحه بيده.
ارميا: ما فضل له من معز من محبينه.
ابو نظارة: لكونه ظلم شعبه وكفر في دينه.

وبمناسبة المعركة التي انتصر فيها المهدي على الجنرال غوردن في الخرطوم، كتب الزجل التالي الذي مزج فيه بين الجنس والسياسة على عادة سكان الشرق الأوسط عندما يريدون التهكم بالخصم:

يا محلا الانكليزية ام عين زرقا وشعر اصفر
يا خسارة دي صبية في جوزها العسكري الأحمر
شفتها امبارح يا أسيادي ما كانش حولها انكليز
فقلت لها يا ماي ليدي غف مي اكيس اف يو بليز

***

انا في عرضك ون كيس قالت غو يو بلودي فول
بلا فول بلا شعير ما تتبغدديش علي
انا ابن المهدي الكبير احلمي علي شوية

* * *

فشفنا المهدي منصور والغوردن في الشق مكتوم
تاني يوم جابوه اسير في مصيدة سودانية

ولقد اسعفته دراسته الفنية على إدخال عنصر الرسم الهزلي في الصحافة العربية. لكنّ فنّه هذا، كما يرى الناظر الى رسومه، بقي بدائياً وفي حدود المحاولة. لكنه قلما خلا من فكرة بارعة، فمن رسومه البارزة، وهو في منفاه، رسم يمثل الخديوي اسماعيل (هو الذي اغرق مصر في الديون واضطرها الى بيع ما تملك من أسهم في قناة السويس) بائع صحف، يبيع في شارع مصري جريدة الاهرام. والاهرام بالطبع رمز لمصر، وتلميح صنوع في هذا الرسم في منتهى البراعة ولا شك.

ونلتقي بعد صنّوع، في حقل الاضطراب السياسي، شخصية عبد الله النديم (١٨٩٦)، التي جمعت ما بين علم رجل الدين، واندفاع المفكر الاشتراكي الثوري، وتهكم الظريف الشعبي. لكنه لم يلبث ان غدا كسلفيه، اشعب وجحا. شخصيّة اسطورية شعبية، نسج حولها الكثير من النكات والنوادر. ولد عبد الله النديم في اسرة

فقيرة من طبقة العمال، وعمل في أول الأمر خادماً في دارة احد الأغنياء الارستقراطيين. وأظهر في سن باكرة ميلاً فطرياً الى الظرف والتهكم والتمرّد، تجلى في قصيدة زجلية نظمها ساخراً من سيدة المنزل. فضرب بالقباقيب حتى فقد وعيه. وفي شبابه انشأ جريدة هزلية بعنوان: «التنكيت والتبكيت» ظهرت في يونيو (حزيران) سنة ١٨٨٧، وكشفت عن نبوغ يحمل بذور آمالٍ واسعة. وكانت المواضيع التي شغلته، في معظمها، في الحقل الاجتماعي، نذكر على سبيل المثال، الحكاية التي كتبها بعنوان «عربي تفرنج» جاء فيها:

ولد لفلاح اسمه «معيط» ولد، اختار له اسم «زعيط». وتركه يلعب بالتراب وينام في الوحل، حتى صار قادراً على ان يُسَرِّح الجاموس. فعاش مع البهائم كواحد منها... وبينما هو مع ابيه يوماً، مر بهما احد التجار فقال لأبيه: لو أرسلت ابنك الى المدرسة لتعلم وصار انساناً. فأخذه وسلمه الى المدرسة. فلما أتمّ علومه الابتدائية، ارسلته الحكومة الى اوروبا ليتعلم فناً عينته له. وبعد اربع سنوات، ركب الباخرة عائداً الى مصر... فلاقاه ابوه الى الاسكندرية. وعندما نزل الى الرصيف، هجم والده، وطوقه بذراعيه، وأخذ يقبله. فنفر الشاب من أبيه وجرى بينهما الحوار التالي:

زعيط: سبحان الله عندكم يا مسلمين مسألة الحضن دي قبيحة جداً.
معيط: امّال يا ابني نسلم على بعض ازاي؟
زعيط: قول «بون اريفي» وحط ايدك في ايدي مرة واحدة وخلاص.
معيط: لهو يا ابني انا بأقول منيش ريفي.
زعيط: موش ريفي! يا شيخ انتم يا ابناء العرب زي البهايم.
معيط: الله يسترك يا زعيط. والله جا خيرك يا ابني.

ويسيران الى القرية ويدخلان البيت حيث يجدا الأم، معيكة، وقد اعدت للعائلة الطاجن التقليدي من اللحم والبصل فينظر فيه الابن المتفرنج ويقول:

زعيط: له كترتي من ال...
معيكة: من ال ايه يا زعيط؟
زعيط: من البتاع... اللي اسمه ايه؟
معيكة: اسمه ايه يا ابني؟ ده الفلفل.
زعيط: نونو، دي البتاع اللي بتزرع؟
معيكة: الغلة يا ابني.
زعيط: نونو، دي اللي يبقى له رأس في الأرض؟
معيكة: والله يا ابني ما فيه ريحة الثوم.
زعيط: البتاع اللي يدمع العينين... اسمو أونيون.

معيكة: والله يا ابني ما فيه اونيون ولا. دا لحم ببصل.
زعيط: سي سا! بصل... بصل!
معيكة: ويا زعيط يا ابني نسيت البصل وأنت كان أكلك كله منه؟!

وذهب معيط ليروي قصة ابنه لأحد النبهاء فقيل له: «ولدك لم يتهذب صغيراً ولا تعلم حقوق وطنه ولا عرف لغته ولا قدر شرف الأمة... لقد أصبح كالغراب لما اراد ان يقلد الحجل في مشيته وعجز عن التقليد واستحال عليه عوده لطبيعته الأولى فأصبح يقفز قفزاً وقد خرج عن حد الجنسية وطباع النوعية».

بعد ذلك بسنين، تداول الناس في سورية حكاية الشاب الذي ذهب للدراسة في السوربون بباريس ثم عاد الى موطنه فوقف مشدوهاً امام نخلة وتساءل: «يا الله! شو هالعمود؟» واللافت في القطعة الواردة اعلاه من عبد الله النديم، اسلوب الحوار المسرحي الذي أخذ يؤثر في الكتاب العرب اثر اقتباسه من المسرح الغربي، واستعمل النديم ذلك بسلاسة احياناً وباضطراب مطبعي في أحيان اخرى. والقطعة اعلاه كانت في الأصل مشبوكة بعضها ببعض بشكل يعرقل استيعاب القارىء لظرفها.

ويهاجم عبد الله النديم في مقالة اخرى الكسل واللاابالية والتسكع السائد في المجالس المصرية، اذ يدخل رجل نابه الى واحد من مثل هذه المجالس فيسأل الجالسين عما هم فاعلون فيقولون له «اننا نجتمع كل ليلة للأنس والمفاكهة».

المهذب ـ أظنكم تتذاكرون في تقدم صنائع اوروبا وانتشار تجارتها...

رب الدار ـ ما لنا علم بأوروبا ولا اهلها فنحن ما خرجنا من مصر لمدة حياتنا.

المهذب ـ عدم الخروج من البلاد ليس شرطاً في وقوف الانسان على حقائق الأشياء وعلمه بأخبار من بعد عنه فان التواريخ وصحف الأخبار تقص علينا احاديث الأمم ونحن جلوس في بيوتنا.

رب الدار ـ التواريخ لا يقرأها إلا العلماء والصحف لا يسأل عنها الا الخواجات فإنها عبارة عن حكاية يتسلى بها الشبان.

المهذب ـ الصحف يا سيدي ألسنة الأمم وترجمان الملوك تنقل لك ما قاله هذا الرئيس وهو بأقصى الغرب وما اجاب هذا الأمير وهو في اطراف الشرق وتخبرك بالمحاورات السياسية وأغراض الملوك وأحوال الأمم وسير التجارة واعمال العقلاء وصنائع العلماء وخطب النبهاء وتاريخ الأذكياء وما قامت به هذه الأمة من عمار وطنها

وحمايتها له وحفظه من امتداد ايدي الغير اليه وما أهملت فيه تلك الأمة حتى خاتلها الغريب وتداخل في شأنها وحجر على أهلها عوائدهم ومذاهبهم.

رب الدار ـ هذا شيء يوجب وجع الدماغ ويشتت الفكر ولا يشتغل به الا من ليس له شغل.

المهذب ـ اظنكم تتحدثون في شؤونكم وتتذاكرون في أشغالكم الخاصة بكم لعلكم تهتدون لأمر يزيد في الثروة أكثر مما انتم عليه لتفاخر بكم حكومتكم وتكافئكم على اتعابكم واجتهادكم بالرتب العالية والعلامات الشريفة.

رب الدار ـ هذا أمر لا يهمنا فإن البلاد اذا تقدمت أو تأخرت لا تفيدنا شيئاً احسن مما نحن فيه.

المهذب ـ ما هو الذي وصلتم اليه يا سيدي من التقدم؟

رب الدار ـ لله الحمد كل منا له بيت عظيم بحوش واسع ومضيفة لطيفة وعنده من الخدم ما يقوم بإدارة اشغاله وقد تركت لنا آباؤ نا أموالاً لا تفنيها الأيام فنحن في نعمة عظيمة ترى المسكين من الناس يقوم في الفجر لاشغاله. ويبيت يكتب ويحسب ونحن لا نخرج من البيوت الا قبل الظهر بقليل ونعود اليها وقت العصر للمسامرة بالمضحكات والنكات اللطيفة.

المهذب ـ اذا كانت هذه عادتكم فلم تجتمعون في هذه السهرة؟

رب الدار ـ عادة الكيف انه لا يفرح الا اذا تعاطاه الانسان في مجلس انس بضحك ولعب فنحن نجتمع ليتعاطى كل منا منزوله ثم تدور النكتة بيننا فاذا ونّن الانسان وخدّر قام ودخل محل النوم حسب العادة فيبيت مبسوطاً لا يسأل عن الدنيا ولا من فيها.

ثم التفت الى اقرانه وقال: رأيكم ايه يا اسيادنا في هذه العبارة؟ فأجابه الجميع بصوت واحد: «مفيش غير كده احنا مالنا ومال الدنيا والتجارة والتواريخ احنا رايحين نبقى زي الافرنج اللي كل ساعة يقولوا الدنيا جرى فيها ايه والجرانيل قالت ايه والتلغرافات عادت ايه زي اللي الدنيا ملكهم ها ها هع».

وفي مقالة أخرى يستعمل فيها اللهجة الفلاحية ويصور بظرف نادر استغلال المرابين للفلاح المصري. ويدخل المرابي الفلاح الأمي في متاهات حسابية يتضاعف فيها

دينه بشكل تصاعدي مستمر دون ان يجد المدين سبيلاً لمناقشتها غير الاعتراض اخيراً على كسر النصف جنيه. انه اجرة كتابة صك الدين، يقول له المرابي.

وفي مقال آخر لا يخلو من الغرابة، نشره عبد الله النديم تحت عنوان «تسمية البهيم المتوحش ظلم من الانسان»، عالج فيه موضوع عدوان البشر على الحيوانات البريئة، ذاهباً في ذلك مذهب الطبيعيين والرومانسيين:

ان الحيوان الذي نفر من الحضر، ومال الى الغلظة والقسوة، وصار وحشياً مفترساً، راح يخاطر بنفسه في القفار والكهوف، ويحمّلها مشقات الجوع والحرّ والبرد... فإنه انف من الاقامة في المدن. ورضي بشوامخ الجبال بدل القصور العالية... وبالفيافي الشاسعة مكان الرياض الزاهرة... وبالكساء الطبيعي بدل الثياب المزركشة... ولست أدري بماذا حكم على هذا الضعيف بالتوحش بعد تسلط الانسان عليه... ولو انصفته الحال لسمي زاهداً في الوجود، أو خائفاً من العبودية، أو راضياً بالكفاف.

ويختم هذا المقال الفريد بقوله:

يا ذا الانسان، ما احسن اصلك، وأجمل شكلك، وأعزّ نفسك، وأغزر علمك، وأوفر عقلك! يا ايها الحسن الأصل، ما اقبحك عند الفخر الخارج عن حدّك... والكبر المبني على ظنك أنك الفريد في الوجود... ما أفظعك عند التهور، وأظلمك على أخيك، وأبعدك في كل حين عن الحق والعدل!

واضطرت مصر بعد حين الى حمل السلاح في وجه الانكليز، في ما عرف بالثورة العرابية. وجاء اليوم الذي قرر فيه عبد الله النديم ان يلقي سهمه مع الوطنيين، ويقف موهبته الخطابية على إثارة الشعب المصري، ودفعه الى قتال الغرباء الذين احتلوا بلاده. وعلى أثر اخفاق الثورة، اختفى عبد الله النديم. وراح يتنقل متخفياً بين المدن والقرى، يحدث الناس في المقاهي والطرقات بنكات ونوادر رجل ظريف كان يعرف بعبد الله النديم، اصبح في عداد الأموات منذ عهد طويل. وكان سامعوه يصعّدون الدعاء الى الله طالبين لروحه الرحمة والرضوان. واذ خشي خادمه من غضب الحكومة، اخذ يفكر بتسليم سيده الى الشرطة، لعله ينجو من نقمة الحكومة. لكن عبد الله سئم من هذه التمثيلية، فتخلّى عن جريدته قائلاً: «لا حول ولا قوة الا بالله، لقد اعلنت الحكومة عن مكافأة مقدارها الف جنيه للذي يرشدها اليّ، وخمسة آلاف للذي يدلّ على خادمي». فغدا الخادم اشد حرصاً على الاختفاء من سيده، ودفع السيد الى مكافأة خادمه بالطريقة الوحيدة التي يستطيعها وهي تعليمه القراءة والكتابة. لكنه في غمرة فراره من وجه الحكومة، ومعاناته من وطأة الفقر والعوز، سقط فريسة لداء السل الخبيث، ومات لم يعلم به أحد.

من ذلك الحين، والى ان خلع الملك فاروق عن عرشه، تضاعفت اعباء الحكم الأجنبي البغيض على مصر. فالأسرة الحاكمة كانت ألبانية، والسلطة المطلقة انكليزية، والسيادة الاسمية تركية، والهيكلية الاقتصادية والنشاطات التجارية بيد اليونان والايطاليين والفرنسيين... الخ. اما المصري فكان قد تحوّل الى غريب في بلده! وآية ذلك ان كثيرين من العرب الذين قصدوا الى كبريات المطاعم المصرية في تلك الحقبة دهشوا عندما اكتشفوا ان احداً لا يخدمهم ان سمعهم يتكلمون العربية. واسوأ ما كان في هذا الوضع، وجود المحاكم المختلطة، التي اشتملت على قضاة من الدول الأجنبية، هم أصحاب اليد الطولى في جميع المحاكم العليا في مصر، وفي كل قضية تتصل بأجنبي. اما العدالة الاسلامية او الوطنية، فقلما اعتبرت صالحة للمتقاضي الأوروبي، مما حمل المصري، على المبادرة الى اسقاط دعواه، فور علمه باحالتها الى المحاكم المختلطة. حتى ان «الخواجة» اصبح عقدة المصري التي لم يجد لها حلاً الا بسلاح الظرف. وعبد الله النديم، نظير كثيرين سواه، غالى في اعتماد هذا السلاح. فقد روى عن احدهم ان شرطياً رأى لصاً يهبط من نافذة وبيده صرّة من المسروقات فصاح به:

- مين هناك
- خواجة
- سامحني، افتكرتك مصراوي.

وعلى أثر هزيمة الثورة العرابية، واعدام الكثيرين من الثائرين، شوهد عبد الله النديم يتجول بين اشلاء القتلى ويتفحّص جثثهم فصاح احدهم به:

- تعمل ايه هنا؟
- عاوز اتأكد أنهم ماتوا صحيح ممكن يكون ملك الموت واحد من الخواجات.

لم يكن غيظ عبد الله النديم موجهاً ضد الخواجات وحدهم، بل ضد المتخاذلين من ابناء قومه، الذين استسلموا لقدرهم بخنوع سريع. ففي المظاهرات المعادية للانكليز اطلق حساسياته ضد مواطنيه المصريين والخواجات البريطانيين على السواء، فقال مخاطباً اهل مصر: يا اهل مصر، تشمّموا اجسادكم، انها شديدة القذارة، فيما النيل يجري في اوساطكم، اصغوا الى صراخ الشقاء فيما واديكم حافل بالخير، وانصتوا الى صوت الله يلعنكم فيما انتم تحفظون كتابه عن ظهر القلب، وتذيعون تعاليمه في الشرق والغرب!

وصحيفة أخرى من الصحف الهزلية ظهرت في مصر في هذه الآونة هي «مصباح

الشرق»، انشأها وحررها ابراهيم المويلحي (١٩٠٦). وهو كاتب اشتهر بالتهكّم المباشر الجارح. ولقد ظهرت بعد حين، مجموعة من مقالاته بعنوان «ماذا هنالك؟» بينها الرسائل الصاخبة الثلاث عشرة التي وجهها الى مصر، من منفاه في الاستانة عاصمة الخلافة العثمانية. ففي احداها يتحدث المويلحي عن «سراي» الحكومة. ويذكر انها اشتملت على مكاتب لرئيس التشريفات، وللكاتب الأول، والآغا الأول، والجاسوس الأول (رئيس المخابرات). ويستدرك أنّ المكتب الأخير الغي فيا بعد، ووزعت مهام الجاسوسية على سائر المكاتب الأخرى فكان رئيس كل منها جاسوساً، وله جماعة من المخبرين.

وفي رسالة أخرى يصف حياة رجال الحاشية وسائر مهامهم بقوله: لا يوجد في اية لغة لفظة واحدة يمكن ان تصف الشرور على اختلافها، مفردة ومجموعة، مثل كلمة «حاشية». فهذه اللفظة تؤدّي ثلاثاً من خصائص حجر الرخام: الثقل، والبرودة، والنعومة، تماماً مثل بلاط الضريح، وذلك من أجل ان يتسنّى للملوك احاطة انفسهم بهذه الأوصاف أحياءً واموتاً.

وكان المويلحي في الاستانة عندما غزت فرنسا بلاد تونس، وتمكن كبير الاحرار، مدحت باشا، من الفرار من براثن كبير الجواسيس الأتراك، واللجوء الى القنصلية الفرنسية. وبعد مراسلات طويلة، ومفاوضات مستفيضة تم الاتفاق بين تركيا وفرنسا على تسليم الثائر مدحت باشا لتركيا مقابل تنازل تركيا لفرنسا عن تونس. فكتب المويلحي بهذا الصدد يقول:.. وهكذا اشترت تركيا رجلاً واحداً دفعت ثمنه مملكة بأسرها، مثبتةً بذلك مدى تقديرها للكائن البشري..!

وفي تعليق له على ما جرى عليه السلطان من نفي السياسيين ورجال الحاشية الى مكة المكرّمة، كتب يقول: ان السلطان يعبّر عن غيظه بارسال من ينقم عليهم من بيت السلطان الى بيت الرحمان...!

وفي مقال له بعنوان «جواسيس» يذكر ان الرجال في البلدان الاخرى يحرزون التقدم والترقي بتحصيل العلم، واظهار الشجاعة، وقهر العقبات؛ اما في الاستانة فالطريق الى هذا الهدف اسهل واقصر. ذلك انهم يظفرون بالثروة، ويحرزون المجد بمجرد تلفيق تهمة يلصقونها برجل بريء. وقد اعتاد السلطان الاصغاء، في كل صباح، الى تقرير من جواسيسه عن مؤامرة تحاك ضد شخصه المعظّم. فاذا لم يبلغه مثل هذا التقرير، اعتقد ان الاسوأ قد وقع، وان المتآمرين قد خدعوا الجواسيس وفاقوهم دهاءً، وعندها يقع فريسة الرعب الى ان يأتيه الخلاص من خبر اكتشاف مؤامرة فيعود اليه روعه... وتحدث المويلحي في رسالته التاسعة عن سوري جاء منيف باشا مقدماً

«عبوديته» لانه عينه في مركز تافه. وكان قد اشتهر عن السلطان انه يدعو اعداءه الى قصر يلدز ويتخلّص منهم بقتلهم والقاء جثثهم في البوسفور. فسأل منيف باشا الرجل السوري عن عنوانه فأجابه:

- قصر يلدز.
- كيف ذلك؟
- اعني فندق قصر يلدز.
- انهض ولا تعد الى هنا إلّا بعد ان تتحوّل الى فندق آخر!

كان السلطان يعيش تحت تأثير «شيخ الاسلام»، الزعيم الديني الذي كان دوماً الى جانبه، يتلاعب بحساسياته عن طريق ما يروي له من الخرافات والاساطير. وكان كلاهما يؤمن بـ «الخضر»، النبي الخالد الذي يتنقّل في العالم دون ان يراه إلّا قلة من النخبة المختارة. ففيما كانا يوماً منفردين، ادار شيخ الاسلام رأسه فجأة وردّ التحية قائلاً: «وعليكم السلام». فتعجّب السلطان مما سمع، وهو لم يرَ احداً، وسأل شيخ الاسلام: الى من رددت التحية؟ فأجابه: انه «الخضر» مرّ الآن من هنا وحيّانا!

ولقد جمعت رسائل المويلحي، ونشرت غفلاً من اسم كاتبها. لكن جواسيس السلطان لم يخفقوا هذه المرّة بمهمّتهم. فأمر الطاغية العثماني بمصادرة نسخ المجموع. فجمعها المويلحي نفسه وارسل بها اليه.

ثم ان مقالات المويلحي، هي الاخرى، احرزت انتشاراً شعبيًّا واسعاً، لكن الشيخ محمد عبده (١٩٠٤)، المصلح الديني الكبير، لم يبدِ بشأنها من الحماسة ما ابداه سواه من المواطنين، لانه اعتاد عدم الاحتفال بالاشياء، وكان الممتاز في نظر سواه دون العادي في نظره! فكان متى عرض عليه مَنْ دونَه مِنَ الكُتّاب مقالاً قابله جمهور القرّاء بالاطراء الشديد، هزّ رأسه هزًّا خفيفاً وقال: «مش بطّال». فكتب المويلحي يوماً في غمرة خيبة من رئيسه ومدرّبه يقول:

> لو جلس اله الكون على عرشه في يوم الحساب، محاطاً بملائكته المقرّبين، وجلس عن يمينه انبياؤه ورسله، واصطفّ من ورائه مواكب الجنّ والابالسة، واسراب الطيور والوحوش، ثم سأل احدهم محمد عبده عن رأيه بهذا المشهد لاكتفى بالقول: «مش بطّال»!

اما كتاب المويلحي التالي فكان: «حديث عيسى بن هشام»، عرض فيه للحضارة الغربية ناقداً متهكّماً، وسدّد سهامه على الاخصّ الى اولئك الذين اكتفوا منها

ببهارج وجهها القبيح. وكان مثل هذا الموضوع آنذاك ميداناً لاقلام الكتّاب. لقد قضى المويلحي جانباً كبيراً من حياته خارج مصر، فدعاه ذلك الى ان يطلق عليها حكماً سرعان ما غدا شعاراً سائراً، هو ان مصر اشبه شيء بالمقابر. انها مكان يزار، لا مكان يسكن كدار!

هؤلاء الروّاد عبّدوا الطريق لسلسلة من الصحف الهزلية التهكمية التي ظهرت في مستهل القرن العشرين، مثل «خيال الظلّ» لاحمد حافظ عوض، ثم «السيف» و«المسامير» و«الصاعقة». وقبل الحرب العالمية الكبرى بقليل، انشأ المويلحي نفسه مجلتين باسمَيّ الظريفين الشهيرين: ابي نوّاس، وابي زيد. وتلاه عبد المجيد كامل فاصدر «البيغاء المصري». ثم عبد الحميد زكي: «السياسة المصوّرة». وجميعها اشتملت على رسوم هزلية. وصدرت بعد ذلك «اللطائف المصورة» التي تميزت برسوم الرسامين الهزليين البارعين: نهاد خلوصي - التركي الاصل - وزميله إيهاب. لكنّ تطور هذا الفن وازدهاره توقف باستفحال النزاع بين دول اوروبا، ودخول تركيا في الحرب. اذ وُضِعت رقابة مشدّدة على جميع الصحف، فاختفى العديد من تلك المجلات المزعجة من السوق. إلاّ ان انتهاء الحرب، ونشوب الكفاح من اجل الاستقلال القومي، فتح المجال مجدداً لمجلات كبرى، لعبت دوراً هاماً في السياسة المصرية، وسجّلت لنفسها ذكراً لا يمحى في تاريخ الصحافة العربية.

ففي عام ١٩٢١، انشأ سليمان فوزي «الكشكول» التي عارضت الزعيم الوطني الكبير، وعدو الانكليز الاكبر، ومؤسس حزب الوفد: سعد زغلول. وعام ١٩٢٥ اصدرت السيدة روز اليوسف مجلة باسمها: «روز اليوسف» دافعت فيها عن سعد زغلول، وكانت اشهر مجلة هزلية في العالم العربي. وقد كان لهاتين المجلتين في النزاع بين الحزبين السياسيين: الوفد والاحرار، تاريخ غير مستقرّ، اذ كان نصيبهما من الرضى والغضب في موقفهما من الحزبين يعلو حيناً ويهبط آخر. فالكشكول أيدت اولاً زعيم الاحرار، محمد حسين هيكل، لكنها انقلبت عليه في الثلاثينات، ووصفته في ٢٣ يناير (كانون الثاني) ١٩٣١ بأنه اثري، يستخدم التكهنات الباطنية في كتاباته كما في سياساته، فهو اشبه بقطعة من عجين، او كتلة من طين، في يد مثّال حاذق، يستخدمها في صنع مختلف التماثيل؛ او هو كاسْطُوانة فونوغراف، يلتقط اصوات الناس كيفما اتفق، ويسترشد بهديها!

وقد تميّز من بين الكتّاب البارزين في مجلة الكشكول، حسين شفيق المصري، باحساس مرهف في ظرفه وتندّر بارع في تهكّمه. وكثيراً ما جاء ظرفه في قالب من

الزجل الشعبي، سخر فيه من دوائر الحكومة، ومن اسلوبها في تطبيق القوانين واجراء التدابير. وكان من الشخصيات التي ابتكرها «الجاويش شعلة عبد الموجود» جعل منه اداة اخرى بيد حسين في حملاته على ارباب السلطة، والنظام الرأسمالي، واستغلال الناس، وابتزاز حقوقهم.

وليس ثمة ما هو احرى بالملاحظة، في هذه الحقبة من التاريخ، من بروز الصلة الوثيقة بين الظرف والمسرح، كما تجلّى ذلك في العالم العربي. وهذه الظاهرة تشهد لصواب فرضية مرديث في هذا الصدد (راجع الفصل الأول). فالتماثل بين المؤلف المسرحي والكاتب الهزلي، في شخص الرائد الظريف والمسرحي الفذّ يعقوب صنوع، تكرر في غير تقاطع واحد، في سياق هذا التاريخ، وفي العديد من البلدان العربية. فعلى اثر نشوء هذين الاتجاهين وازدهارهما، انطلق ما فاقهما اهمية، ولم يقلّ عنهما اختباراً، هو النظام الديمقراطي، والحياة البرلمانيّة. فقد رافق ظهور المنشورات الهزلية، بروز ترجمات كثيرة لمسرحيات اوروبية، وقافلة طويلة من الفرق المسرحية تشمل فرقة جورج ابيض، التي ابدعت في التمثيل الهزلي، وفرقة زكي طليمات التي انجبت النجم الهزلي علي الكسار، ثم فرقة عزيز عيد وسواها.

ولقد تنقّل هؤلاء الافذاذ، في مدى عطائهم، بين الصحافة والمسرح، فكان الممثل منهم يغادر المسرح الى مكتب التحرير، والمحرر الهزلي يتحول من مكتب التحرير الى خشبة المسرح. وهذه روز اليوسف، كانت اولاً ممثلة ناجحة، تحدرت من اصل لبناني، وعاصرت يعقوب صنوع، وكانت نظيره ذات وجدان اجتماعي، فآلمتها احوال البلاد السيئة حولها. وكانت مثله كذلك من حيث تعدد الخلفيّات الدينية. فقد نشأت نشأة اسلامية باسم فاطمة، ثم اعتنقت الديانة المسيحية، وعادت في سنين متأخرة الى الاسلام. وهذا التعدّد في الانتماءات الدينية، ينبه الناس احياناً، على ما يبدو، الى جوانب مستغربة في عقيدة ما. لذلك تحوّل اهتمامها نحو الشؤون العامّة، وراق لها النضال القومي من اجل التحرّر بوجه عامّ، مما دفعها اخيراً الى ترك المسرح، والالتحاق بالصحافة. فأنشأت المجلة التي عرفت باسمها، ووقفت نشاطها على التوعية السياسية بالطريقة المصرية النموذجية، وهي الظرف والدُّعابة.

ولقد غدت «روز اليوسف» مدرسة قائمة بنفسها في هذا المضمار. فالعديد من الاسماء الكبيرة، في الصحافة العربية الهزلية، من مثل فكري اباظة ومحمد التابعي وصلاح ذهني، مدينون لها بشهرتهم لانهم انما نشأوا وتدرّبوا في الكتابة الهزلية على صفحات هذه المنشورة. وكان بين محرريها الدائمين، في هذا العهد، علي شوقي، وعبد

الوارث عسر، كاتب السلسلة المرحة: «أبو زعيزع وزعيزع» شعراً ونثراً، وهو احد الكتّاب الذين تحوّلوا الى المسرح، وطارت لهم شهرة واسعة من على خشبته.

ولم يتقدّم على ابداع الكتّاب الا روائع الرسّامين الهزليين، من امثال اسكندر صاروخان، وصلاح جاهين، وجورج بحجوري، وعبد المنعم رخا، والحجازي. فالشخصيّات التي ابدعتها اقلام هؤلاء الرسّامين الهزليين مثل: «المصري افندي» وبنت البلد» و«ابن البلد»، و«كشكش بك»، دخلت كل بيت في العالم العربي. وابرز من هؤلاء ظرفاً وابعد شهرةً كانت شخصيتان لزوجين خالدين هما «السبع افندي» (برسم هزيل وذليل). و«رفيعة هانم» (برسم ضخم وقوة قاهرة) يمثّلان تمثيلاً هزلياً خفيًّا: النحاس باشا، زعيم حزب الوفد بعد سعد زغلول، وزوجته المتسلطة عليه. شأن زوجات العديدين من السياسيين المصريين. ثم هنالك شخصية «حمار افندي» وهو رسم اسطوري هزلي لرجل برأس حمار على انفه نظّارة. ولقد رسم يوماً عبد المنعم رخا النحاس باشا وقد اشار باصبعه الى «حمار افندي» وقال: لا شبه بيني وبينه. . . الاّ بطريقة تفكيرنا!

ويشهد لشهرة هذه الشخصيات الهزلية المبتكرة، أنّ اسماءها، بعد استنباط التابعي وصاروخان لشخصية «المصري افندي» (١٩٣٢) ببضع سنوات، اطلقت على عدد من المخازن التجارية وصالونات الحلاقة، بل وعلى حوانيت تصليح الاحذية، ثم على مجلة اسبوعية بارزة باسم «المصري افندي». ومع هؤلاء الرسامين الهزليين، بلغ فنّ الرسم الهزلي نضجه، وبدأ بأنْ يترك تأثيراً بالغاً في مكانة السياسيين. مثال ذلك أنّ حسين سرّي باشا استاء جداً من رسم له رسمه صاروخان مجللاً بشعر ابيض. . . فارسل اليه يدعوه ليرى شعر رأسه بسواده الطبيعي. اما رخا فقد جنت عليه رسومه الهزلية التهكمية، اذ انتهت به الى السجن حيث مكث ما يزيد على العام.

كانت مجلة «روز اليوسف»، حساسة بشأن كل ما يتصل بالمسرح. فبعد بضعة اشهر من صدورها لا غير، وفي ٢٦ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٢٥، اعلنت الحرب على الوزير احمد بك خشبة. وبعد عام عرضت مسرحية انطوني وكليوبترا فحضرها الوزير واعجب بالتمثيل، فصعد خشبة المسرح وهنّأ البطل والبطلة. فنشرت «روز اليوسف» كلمة عن المسرحية، اشارت فيها الى ان بعض الوزراء حضروا العرض، وتقدم احدهم الى المسرح (دون ان تسميه) وهنّأ الممثلين. لكن ضابط الامن رسم دائرة بالحبر الاحمر حول المقطع الاخير، وبعث بالعدد الى دائرة المطبوعات لتتخذ

الاجراءات المناسبة. وفي العدد التالي نشرت المجلة مقالة تحت عنوان «غلطة كبرى» قالت فيها:

«غلطة كبرى ارتكبها الوزير ساعة ان نسي نفسه ومقامه وتنازل ورضي ان يمد يده الكريمة ليصافح يد حقيرة، يد مطربة ويد مطرب. ضعف كبير من الوزير وزلّة كان من واجب الصحف ان تخفيها وألّا تنشر خبرها على الناس حتى لا يقل الاحترام الذي تكنّه صدورهم لوزيرهم».

كان ذلك المطرب محمد عبد الوهاب وكانت المطربة منيرة المهدية. واشارت الجريدة الى حفلة جرت في انكلترا لتوديع المطربة الشهيرة المدام ملبا قبل اشهر. وفي هذه الحفلة حضرت ملكة انكلترا الملكة ماري وقدمت باقة ازهار للمطربة وصافحتها بمناسبة اعتزالها المسرح. ومضى كاتب المقال ليقول، «فإن قال لي موظف ادارة الامن العام... شتان ما بين مدام ملبا والسيدة منيرة، قلت له بدوري، وشتّان ايضاً ما بين ملكة انكلترا وامبراطورة الهند واحمد بك خشبة، وزير الحربية والبحرية ايضاً».

ومن مفارقات الدهر، بل فلنقل الحكمة الربّانية، انه لا يوجد اليوم في العالم العربي من يعرف من هو او من كان احمد بك خشبة، في حين لا يوجد من لا يعرف محمد عبد الوهاب ويتمنى مصافحته.

تزامن حادث «روز اليوسف» هذا مع المناظرة الحادّة التي نشأت حول كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» وما اثاره من شكوك في عديد من «الحقائق» الدينية، ومع الضجة التي افتعلت لإلصاق تهمة نشر الكفر بالمؤلف. فقد علقت المجلة على هذه المحنة بقولها: هل من قدر مصر أنْ تبقى عقول ابنائها، ويظل حقهم في التعبير الحرّ عن آرائهم رهناً بارادة زمرة من الشيوخ مصابة بالنقرس وعسر الهضم؟

وفي صدد تصدّي هذه المجلة للمحسوبية المستشرية في الشرق الأوسط، كتبت تسخر من نفاق اعضاء مجلس النوّاب تقول:

> حسن جداً أنْ يقف واحد من النوّاب المحترمين في مجلس النوّاب، ويحمل على المحسوبية وانصارها، ويطالب بالغاء التعيينات التي تمّت ارضاءً للخواطر، ويثير مشكلة ربما ادّت الى طرح الثقة بالوزارة. كل هذا حسن وجيل، لكن ألا يخجل مثل هؤلاء النوّاب من الذهاب في صباح يوم حملتهم الشعواء في مجلس النواب، الى دوائر الحكومة، طالبين من كبار الموظفين التوسط في تعيين «فلان»، او ترقية «فليتان» او ايجاد عمل «لعليتان»؟!

في هذا البلد الذي يحكمه شيوخ يعانون من داء المفاصل، حملت «روز اليوسف»

علم التقدّم والاصلاح والتحرير. وعندما اغلقت وزارة المعارف معهد التمثيل، بحجة انه يشجع على فساد الاخلاق، وفصلت طه حسين لانه سمح بالتعليم المختلط في كلية الآداب، اقدم محرر المجلة على اعطاء وزير المعارف لقب وزير التقاليد. وفي مقال لاحق عمدت المجلّة الى اضفاء القاب جديدة على باقي الوزراء وسائر الوزارات. فلقبت وزير الزراعة بوزير الحشرات والسباخ، وسمت وزير المواصلات بوزير المصارين، ووزير الصحة بوزير «القضاء على المرض بالقضاء على المرضى»، ووزير الدفاع بوزير زينة الحياة الدنيا. ثم انها دعت وزارة المواصلات بوزارة لعنة المسافرين ذهاباً واياباً، ووزارة الاوقاف: بوزارة حماية الاموات والقضاء على الاحياء، ووزارة الخارجية: الوزارة المكلفة بإثارة الدول الضعيفة ومسح جوخ الدول القوية. ووزارة الداخلية: بوزارة تأمين مصالح الافراد ومناصب الوزراء. ووزارة العدل: بوزارة الفضلاء الذين يعينهم كبار اللصوص منعاً للمنافسة. ووزارة المعارف: شركة النور التي تضيء عقول القادرين على تكاليف ادخال النور.

وكان بود السيدة روز اليوسف ان تمنح الملك فؤاد لقباً من هذا الطراز، لكنها خشيت ان يضعها ذلك في موضع المتحدي للقانون، فآثرت بلوغ هدفها بنشر عدد من المقالات عن سير الملوك الطغاة، ممن قُطعت رؤوسهم، أو قضوا نحبهم في السجون، او اقصوا عن البلاد، وتحملوا لعنة الشعب والتاريخ. بل انها زينت المقال عن شارل الاول برسوم واضحة الدلالة!

ولم يفت المجلة، بالطبع، ان تعود الى معالجة الاستقلال والحكم البريطاني. ففي عام ١٩٢٧ سنحت لها فرصة اخرى لذلك، بمناسبة زيارة سعادة المندوب السامي البريطاني الى مستشفى الرمد في الجيزة، فكتبت تقول:

> ... لماذا يكون في استقباله مدير المديرية وحكمدارها ونائب المأمور؟ ولماذا تؤدّي له التحية العسكرية ثلّة من رجال الشرطة؟ وهل اذا قام سفير فرنسا او ايطاليا او بلجيكا، بزيارة مستشفى الرمد، يهرع لمقابلته وتحيته المدير والوكيل، وقوة من رجال البوليس؟

ثم يأخذ الكاتب في وصف تناحر ارباب المصالح امام المندوب السامي فيقول:

> ... ويدور النزاع، ويجلس المندوب السامي بابتسامته العريضة، فاتحاً بابه لكل من يقصده من الطرفين، مستعداً لان يبيعه تعضيده وتأييده، اذا هو باعه حقوق بلاده... والرابع الوحيد من وراء كل هذا التطاحن، هو المندوب السامي البريطاني! واذن فلتحيا بريطانيا... ولتسقط مصر وكل ما لها من حقوق...!

وفي عام ١٩٢٨ بدا للحكومة أنَّ كيل المجلة قد طفح، ولم تعد قادرة على المزيد من الاحتمال، فارسلت تحذيراً الى المحرّر جاء فيه:

حيث ان مجلة «روز اليوسف» ما زالت تبينُّ بفاحش القول، ومنكر الاقاصيص، والامعان بالكذب والاختلاق، سنة مزرية بشرف الصحافة، مفسدة للاخلاق والآداب، فقد قررنا:

١ - ننذر روز اليوسف،

٢ - على مجلة روز اليوسف ان تنشر هذا القرار في صدر اول عدد يصدر منها.

٣ - على محافظ العاصمة تنفيذ هذا القرار.

فنشرت المجلة هذا الانذار، وعلّقت عليه بقولها: «آمنا اننا نسن لشرف الصحافة سنة مزرية . . . ولكن أَلَيْسَ من حقنا على وزارتنا المحبوبة، ومن حق الشعب على وزارته العزيزة، ان تأمر الوزارة قلم المطبوعات ان يكتب للناس قائمة باكاذيبنا حتى يتضح من امرنا ما طالما سترناه، وحتى نتحاشى في المستقبل الاشارة الى شيء من هذه الاكاذيب، انقاذاً لشرف الصحافة المأسوف عليه، من هذه السنة المزرية التي استننا لها له ظالمين؟»

«هل كنا قبلُ كاذبين يوم زعمنا ان دبيب الفشل يدبّ في الوزارة على خفّ من الحرير؟ افتونا في امرنا، ولكم من الله اجر المحسنين، فان لم تفعلوا فليس امامنا - والله - الا الصبر على قضاء الله، والا البحر نشرب منه حتى نشبع، وإلّا ان نتجه الى السماء برؤوس عارية لنقول: الهمّ امسخنا قروداً ان كنّا كاذبين»!

على ان الحكومة لم تنشر جدولاً بالاكاذيب، لكنها اصدرت، بدلاً من ذلك، عام ١٩٣٣ قانوناً جديداً يخص الصحفيين السجناء بمعاملة خاصة وافق عليه القصر لمن لم يتعرّض لاحد افراد الاسرة المالكة. وعلقت روز اليوسف على هذا الاستثناء بقولها: «والطريف ان احد الوزراء قال: والحكومة لا تمانع اذا استثني من يتعرّض للوزارة القائمة . . . وفتح الله على احد النواب الذين حضروا هذا المجلس السعيد، فقال: ان النواب ايضاً لا يمانعون، شرط ان يستثنى الذين يقولون للبرلمان كلمة واحدة لا تسرّ الخاطر الرفيع» وزادت الصحيفة على ما تقدّم: «وغداً يطلب الانكليز استثناء من يشتم دولة اجنبية، او يخرج لسانه لدار المندوب السامي . . . »!

ولقد لوحقت المجلة، وصدرت اوامر بوقفها عدة مرات. لكنّ ذلك لم يحوّلها عن مسارها في كشف نقائص الحكومة ومقاومة السلطة البريطانية. وادّى بها عنادها هذا الى انفصالها عن حزب الوفد الذي وقفت الى جانبه طويلاً. فقد غاظتها المعاهدة الانكليزية

- المصرية التي ابرمها الوفد مع الانكليز عام ١٩٣٦. لانها اعطت الانكليز كل شيء، ولم تسمح للمصريين الا بحق طيران الاسطول الجوي المصري فوق لندن (بحكم المعاملة بالمثل). وكل ما فعلته بريطانيا بشأن الجلاء، كما ذكرت المجلة، كان بمثابة نقل امتعتها من احد جانبي السفينة الى الجانب الآخر...!

وقد نشرت المجلة عدداً من الرسوم الهزلية تشجب المعاهدة وتندّد بالوفد. ففي احدها يرى جون بول والمصري افندي حول طاولة ومعهما النحاس باشا زعيم حزب الوفد وقد امسك بحية (المعاهدة) وقدمها الى المصري افندي المذعور منها، بقوله: نعم إنّ لذعها مؤلم، وسمّها قاتل... لكنها اصغر حية عثرت لك عليها! وفي رسم آخر يخاطب النحاس باشا زميله مكرم عبيد، على اثر ابرام المعاهدة بقوله: لقد خسرنا عطف جلالة الملك، وخسرنا الانتخابات، وخسرنا مالنا، وخسرنا المعاهدة، وخسرنا صداقة الانكليز. وماذا بقي لنا لنخسره؟ فيجيبه مكرم عبيد: بقي ان يخسر كل منا الآخر!

ولم تكن، السياسات العليا وحدها موضع اهتمام روز اليوسف. بل انها تصدت لسائر مفارقات المجتمع العربي الانتقالي. من ذلك تعليق نشرته في ٢٢ مايو (ايار) ١٩٢٧ حول اعلان صغير في احدى الصحف عن مكافأة تمنحها سيدة انكليزية لمن يعثر على كلبتها «لولو» جاء فيه:

«خمسة عشر جنيهاً تدفع من اجل كلبة... ضعيفة. اذن فكم جنيهاً ستدفع من اجل كلبة متمتعة بالصحة التامة، موردة الخدين، كحلاء العينين، ثقيلة الردفين، بارزة النهدين، ذات خصر نحيل... وذيل قصير... وهذه الكلبة المحبوبة المعززة من صاحبتها، لماذا تتوه يا اولاد الحلال؟ تقول عنها صاحبتها انها ضعيفة... اذن لعل مرضها اعياها واعيا نطس الاطباء فسئمت الحياة والقت بنفسها في نهر النيل.

واذا صدق ظني، فلعل صاحبتها ترسل هذه الخمسة عشر جنيهاً الى ملجأ ابناء السبيل (ملجأ الرحمة والنور) على روح المبكي على شبابها لولو، فتدخل الفرح الى قلوب عشرات الاطفال الصغار المساكين. خمسة عشر جنيهاً تدفع مكافأة من اجل كلبة! وفي البلد مئات والوف من الاطفال والعجزة يتضورون جوعاً. اللهم انزل غضبك وسخطك»!

لقد كان مقدار الجائزة كبيراً لا يمكن لكاتب مثل هذا العمود الهزلي في هذه المجلة أن يحلم بمثله عن اتعاب شهر كامل.

ان النجاح الذي احرزته «روز اليوسف» دفع كثير من الصحف الى سلوك سبيلها. ففي عام ١٩٢٦ اصدرت دار الهلال مجلة «الفكاهة» تولّى تحريرها حسين شفيق، فكانت على يده نموذجاً للظرف المصري. وانضمت بعد حين الى مجلة المصور الجدّيّة تحت عنوان «مجلة الاثنين» التي جمعت بين الجد والهزل، وانتشرت انتشاراً واسعاً. وكان من مبتكرات حسين شفيق فيها باب «فضلوّنا العسكري» استهدف فيه التشهير ببعض الشخصيات، عن طريق محاكمتهم محاكمة دعابية. ولم يلبث هذا الاسلوب في النقد التهكمي، أن شاع بين الكتاب الهزليين، فجروا مجراه في منشوراتهم.

وكان هذا الاتجاه جديداً تماماً في حياة العرب العامة. وراح الكتّاب والقرّاء معاً يخوضون في بحور مجهولة المعالم، غير مسبورة الاعماق، الى ان اصطدمت سفينتهم، عام ١٩٣٣ بصخور صمّاء، وذلك عندما قرر المدعي العام التصدّي لهم. فأتّهم محمد التابعي، محرّر «روز اليوسف» بالبذاءة وقلة الاحتشام، وارسل به الى السجن اربعة اشهر. لقد صدر حكم القضاء بأنّ الصحافة الهزلية اخذت تنشر موادّ غير اخلاقية وغير لائقة، تحت ستار الادب الصريح. وتستخدم اساليب شتى لنشر الاكاذيب والامعان في الذم والتشويه والتشهير والافتراء المكشوف. وكان المقصود بهذا الحكم، الاقاصيص الكثيرة المشابهة لما ينشر في بريطانيا، في هذه الايام، تحت عنوان «العين الخاصّة» ويتناول الامور الشخصية والحياة الخاصّة.

ثم ضمت جريدة الاهرام صوتها الى اصوات المنّددين، فكتبت في ٢٣ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٣٣ تقول: «ان التقارير التي تحرص «الصريح» على نشرها، هي من التوافه. لكنها مضرّة بالحشمة ومفسدة للاخلاق. ونحن نعيش في بلد شرقي، يأبى فيه الرجل أنْ يتلفّظ باسم زوجته او اخته او ابنته». والاهرام لم تكن على حق في اطلاق هذا الحكم بهذه الصورة العامة، لان التعرض للرجال بذم نسائهم كان، كما سبقت الاشارة، من الممارسات السائغة في الشرق الاوسط. وبعد ذلك بسنين كثيرة (١٩٦٢) أيد انور الجندي هذا التنديد. وقد علّل موقفه هذا بقوله: لا شك في ان الاستعمار كان له اليد الطولى في انتشار هذا النوع من الصحافة وتقويته، وفي تحويل الصحافة من النقد النزيه والتوجيه المجدي، الى هذا الضرب من الممارسة المخزية. فالذي كان يعني الجندي، على ما يبدو انما هو النزاهة في النقد. وقد سنحت للجندي فرصة اخرى لاظهار سخطه الشديد على ما لجأ اليه بعض الرسّامين الهزليين من الرمز الى مصر بامرأة ترتدي ثياباً غير محتشمة، واحياناً نصف عارية، تقف وقفة اغراء امام جون بول - رمز بريطانيا - وهو في رأيه امر مخزٍ ومخجل.

وسرعان ما تحول هذا الموقف الى قضية كبرى، عندما انضمت الى هذا الصراع شخصيات مصر الفكرية والسياسية. فقد هاجم محمد حسين هيكل زعيم الاحرار، في جريدة السياسة، ٣٠ مايو (ايار) ١٩٣٣ مجلة «روز اليوسف»، فطعن في اسلوبها ومضمونها جميعاً بقوله: ان تشجيع هذا النوع من الصحافة جريمة بحق الاخلاق. ولعل اعظم اساءة نزلت بقضية هذا البلد، في السنين العشر الاخيرة، كانت تشويه مظهره الاخلاقي، باستخدام اي سلاح، مهما كان نوعه، ومهما كان ضرره في الاخلاق العامّة، ضد خصوم مصر السياسيين.

وجاء رد طه حسين على هذا الموقف في عدد ٣١ مايو (ايار) من «كوكب الشرق» حيث قال: إنْ اولئك الذين يؤثرون الحياة الديمقراطية، ويقفون مخلصين في حراستها، لا يجوز لهم ان يفرحوا بحسناتها ويسخطوا لسيئاتها الى هذا الحد. ويعد أنْ يلفت الانتباه الى ان هذه الصحف عينها، عندما كانت تؤيّد الاحرار بالاساليب الغاشمة نفسها في التصدي لخصومهم، لم يحركوا ساكناً، ولا حاولوا ردعها بأية وسيلة، قال:

ليس صحيحاً أنّ النزاع السياسي انما هو التسليم الخالص والتنزيه للحق، والقائم على مبادىء الاخلاق لا غير، نعم انه لكذلك، ولكنه يشمل ايضاً اموراً اخرى مثل التعرض للضرر، ومعاناة الظلم الفادح والعدوان الصريح. ومن الغريب حقّاً ان يتصور صديقنا هيكل، أنّني سأفقد صبري اذا قالت عني بعض الصحف شيئاً مما قالته عن آخرين في هذه الايام. إنّني، يا صديقي العزيز، لا اعرف احداً من معاصريّ استهدف للشتم والاهانة في الصحف الهزلية والجدية كما استهدفت انا. إنّك لتذكر، اذا لم تكن قد نسيت، أنّ الصحف الجدية والهزلية قضت الشهور والسنين لا همّ لها الا النيل مني. لقد قالوا عني كل ما خطر لهم قوله، دون حسيب او رقيب يكبّل اقلامهم، او خجل يلجم لسانهم. ولعلّك تذكر، اذا لم تكن قد نسيت، أنّني ادرت ظهري لما قالوه، وأنّني على ذلك لا ازال. لم اكتب بحقهم شيئاً، ولا شهّرت بهم. ولا ادعيتُ عليهم امام القضاء، ولا شكوت امري الى اصحاب السلطة. هنالك طريقة اخرى للتعامل مع الصحف المغالية بالهزل هي: الرد على هزلهم بالهزل، ومقابلة تفاهتهم بالتفاهة.

واستأنف الاديب الكبير حديثه فأشار الى ان العلاقة ما بين الاحرار الدستوريين والصحافة الهزلية كانت، بواقع الامر، مخزية. فكان هذا القول اكثر مما استطاع هيكل ان يتحمّل. فقصد توّاً الى خصمه، وطلب اليه أنْ يسمي تلك المخازي باسمائها. فجاء جواب طه حسين بالصورة اللطيفة التالية:

لا اود الآن ان اقلّب صفحات «السياسة» بالذات. لقد قيل لي انها جريدة جديّة. ولا اود ان استخرج منها فصلاً او عبارة او خبراً. لا اود ان اشهّر بدائرة المطبوعات. ولا

بالمقالات التي انشئت هناك وغذّيت بها بعض الصحف. لا اود ان اذكر الزيارات التي جرت. والمآدب التي اقيمت، والليالي الطويلة الصاخبة التي سهرت. لا اود ان اذكر شيئاً من ذلك كله... وانني لأؤثر؛ الف مرة، ان اكون المهزوم في هذا الوضع، على ان اكون المنتصر!

هذا كله من اسلوب مارك انطوني الماكر في يوليوس قيصر ولكن على الطريقة «الطه الحسينية». ومن الجدير بالملاحظة هذا اليسر الذي يخاطب به الخصم خصمه، في المقارعات العربية، فيدعوه تكراراً بـ «يا صديقي العزيز»!

على أنّ هذين الجبارين من اعلام اللغة والفكر العربي الحديث اشتبكا بعد سنوات في مناظرة من نوع آخر، اختار هيكل ان ينقل اليها معركته مع طه حسين، هي الميدان اللغوي القديم المعهود. فقد حاول ان يكشف عن مكانة طه حسين اللغوية، فوضع جدولاً بالاخطاء الاصطلاحية التي اخذها عليه في بعض ما كتب. فردّ طه حسين بالاشارة الى الاخطاء التي وقعت لهيكل في مقاله بعينه. مما لا يشجّع كثيراً طلاب العربية على المضي في تحصيلها!

لقد كانت حياة طه حسين الادبية حافلة بالمشاحنات والمناظرات التي شملت اكثر قادة الفكر العربي المعاصر. منها المشادّة العنيفة بينه وبين زكي مبارك التي لم تخلُ من اعتبارات شخصية ـ كما جرت العادة ـ والتي دفعت بزكي مبارك الى نشر مقال في جريدة البلاغ اليومية سنة ١٩٣٥ جاء فيه:

> بقي طه حسين في مدى ستين خيالاً في جلة خيالات العالم السياسي. فهو لم يترك حزباً سياسياً الا خدمه واطراه برسائل طويلة زاهية. ومعلوم ان المواقف السياسية انما هي جانب من الموقف الفكري، والرجل الذي يتنقل من عقيدة سياسية الى اخرى، لا يمكنه ان يكون بعيداً عن ان يصبح فريسة الحيرة والتردد بين المدارس الادبية. فالرجل الفاضل جداً ـ طه حسين ـ خدم ثلاثة احزاب سياسية قبل الحرب، واربعة بعدها... انه مقلّد في كل شيء... تأمل كيف يهز كتفيه كالفرنسيين.

ولم يشر زكي مبارك كيف استطاع طه حسين الاعمى تماماً أن يقلّد الطريقة الفرنسية في هز الكتفين، لكنه استمرّ في تأكيد قسمه: اذا قُدِّر لي يوماً أنْ اجد اولادي جياعاً، فانني سأشوي لهم طه حسين! ومما قاله عنه: لعل أكبر نكتة في حياة طه حسين كانت الطريقة التي حُمل بها على ان يتراجع فيعترف: انا آمنتُ بالله وكتبه ورسله وملائكته وباليوم الآخر، وبأنّ كل خير وشر انما هو من العليّ العظيم.

اما محمد التابعي، الذي اضرمت مقالاته نار المشاحنة السابقة، وراق له

الشجار، فمدينٌ بشهرته للسجن. ذلك انه في العام ١٩٣٤ تخلى عن «روز اليوسف» ليصدر صحيفته الهزلية الخاصة «آخر ساعة» التي انطلقت منها شهرة مصطفى امين واحمد الصاوي. ثم اخذ العديد من الصحفيين يلتحق بالقافلة. ذلك انهم اكتشفوا في الصحافة الهزلية اسباب الشهرة والنجاح والاجور الضخمة التي حققها الرسامون الهزليون، وكتاب النوادر والدعابات. ففيما كان محرر جريدة الاهرام الكبرى يتقاضى ثلاثين جنيهاً في الشهر، كان محرر «روز اليوسف» يستوفي خمس مئة جنيه. وهذا مثال نموذجي من بلاغة التابعي التهكمية، في حملته على المسايرين المتملّقين، والسياسيين المنافقين. فقد كتب في ٢٦ ابريل (نيسان) ١٩٤٢ يقول:

> لنا في مصر زملاء محترمون، استطاعوا ان يعملوا في الصحافة والسياسة سنين وسنين، دون ان يخسروا صديقاً واحداً، او ان يكسبوا عدوّاً واحداً من بين قادتنا وزعماء احزابنا. وهذه موهبة سارّة وبراعة فائقة، قد ينال بعضهم عليها التهاني ولو من رجال لا يتميزون بمستوى اخلاقي. اما الاسلوب الذي يجري عليه امثال هؤلاء الزملاء المحترمين فهو امتداح كل رئيس وزارة، وكل زعيم جماعة، بالمشاعر نفسها والعبارات عينها. .. فاذا كان سعد زغلول، ومصطفى النحاس، وحلمي عيسى، وعلي ماهر، ومحمد محمود، واسماعيل صدقي، وحسين سرّي، واحمد ماهر، وجميعهم انبياء الوطنية، وينابيع الكرم؛ واذا كانوا رجال الكفاءة، واركان الوطنية المصرية، صادقين في عزائمهم وطموحاتهم لخدمة بلادهم وصيانة دستورها، فمن هم اذن الذين خالفوا دستور مصر، وعطلوه والغوه، وزيفوا ارادة الامة، ووصموها بالذل والصغار، واعطوها مجلس نوّاب عزيزاً بالاسم، حقيراً بالروح؟
>
> اذا كان هؤلاء الزعماء متساوين في اعتبار زملائنا الكرام، ويستحقون اطراءً متساوياً، واوصافاً تجعل منهم مُثُلاً عليا جديرة بأن تخلد على صفحة واحدة من مراحل التاريخ المجيد، وأنْ يكونوا مُثُلاً سامية للحكم الصالح، متفانين في الاخلاص لمصر ولدستورها القومي. فمن هو المسؤول اذن عن اكوام الاقذار التي تجمعت بين سنتي: ١٩٢٤ و١٩٤٢؟ مَنْ المسؤول عن هذه الاعمدة المحطمة في صرح نهضة مصر؟... «من فعل هذا يا ابراهيم لآلهتنا»؟

لم تكن «آخر ساعة» مجلة متطرفة، ولا سعت لمجابهة النظام القائم او الدفاع عن قضية المحرومين، كما فعلت «روز اليوسف»، بل عملت - اساساً - من داخل النظام. وافردت اعمدة متسعة لاخبار المجتمع الراقي واحاديثه. لكنّ البعض من تعليقاتها كانت عنيفة جارحة، كما تشهد النماذج التالية:

- رن جرس الهاتف في بيت محمود شاكر باشا، وعندما رفع السماعة قال له امين سر وزارة العدل: ان الوزير ضرب له موعداً الساعة العاشرة صباحاً، فأجاب الباشا

اخطأت في طلب الرقم، انا لم اطلب هذه المقابلة. ولا عجب أن يفترض سعادته أن يكون الرقم غلطاً. فسعادته هو المدير العام للبرق والتلفون.

- عزيز صدقي كان يتوقع ولادة ابن له، في الاسابيع القليلة المقبلة، موسوم بكل دلائل النبوغ. وقد قيل إنّ سعادته قد حفظ لطفله العتيد مركزاً رفيعاً في شركة قناة السويس.

- في الاسبوعين الاخيرين تزوجت ابنه سعادة فؤاد بك شيرين من المحامي الاستاذ حاذق وقد قيل إنّ العريس كان طالع خير على والد العروس، لأنه ما ان تمّ الزواج حتى صدر مرسوم ملكي بتعيينه حاكماً على القلوبية، والباقي على الطريق كما يقال.

- سعادة حسين سرّي باشا، وزير المالية، فقد نظارته في الوزارة. وفي اليوم التالي وجدها سليمة على مكتبه. فقرع الجرس ونادى امين سره الخاص:

- اسمك ايه؟

- فلان بن فلان

- كم عمرك؟

- كذا وكذا

- ما عملك؟

- سكرتير سعادتك

- لا، انت غير صالح كسكرتير، ولا لأي شيء آخر.

- لماذا يا صاحب السعادة؟

- انت لقيت نظّارتي، ونسيت ان تنظفها؟ اطلع من هنا. انت مفصول!

ان القضايا المحيّرة التي ترافق خروج الامة الناشئة من اوضاعها القديمة البالية، كانت كذلك من القضايا التي عولجت بكثير من الاسهاب. فبعد ان منعت الحكومة المشاهد البشعة للنساء الثكالى، يتبعن نادبات، مواكب الجنازات، متفجعات متباكيات، وصفت المجلة مشهداً ابشع لصدام بين رجال الشرطة وبعض النساء النادبات بالصورة التالية:

... كانت النتيجة التي افضى اليها هذا القرار، سلسلة من الاضطرابات في اثر كل نعش، اذ ارتفعت صيحات النساء اكثر فأكثر، واصبح موقف قائد الشرطة احرج فاحرج، اذ وجد نفسه بين نارين: اذا اصرّ على تنفيذ الاوامر الصادرة اليه، تحولت

الجنازة الواحدة الى اثنتين، والفقيد الواحد الى اثنين، ثانيهما رجل الامن. وإنْ هو أغضى عن اوامر الحكومة... فالويل له!

وفي الاسبوع الفائت كان موكب جنازة يسير، وفي اثره نساء يتصايحن: آه يا سبعي، يا ضبعي.. يا لهوتي... ما أشأم يومك هذا علينا... فاسرع قائد الشرطة وقطع عليهن الطريق، فصرخت احداهن: ليه يا عمر...؟ فأجاب: انها اوامر وزارة الشؤون الاجتماعية. فصاحت المرأة بصوت أعلى: ليه يا عمر... هل انتقل ملاك الموت الى «شون الاجماعية»؟ فلزم الشرطي السكوت وعادت المرأة الى الصياح؛.. يا زوجي يا سبعي يا ضبعي.. سبتنا كده ليه للي يسوا واللي ما يسواش في الشون الاجماعية...!

ومع ان انتقاد «آخر ساعة» هذا كان مرحاً اكثر منه جارحاً، فقد صدر مرسوم بتعطيلها (١٩٣٩) لمدة ثلاثة اشهر. وبعد انقضاء مدة التعطيل الاداري كتب محررها الى القراء يقول:

يسرنا ان نلقاكم ثانية بعد غياب «آخر ساعة» ثلاثة اشهر قضتها متنقلة بين مرابع الشقاء على ضفاف النيل السعيد. نودّ اولاً ان نطمئنكم اننا بخير، وفي غاية الشوق للتحدّث اليكم، ونخبركم ثانياً اننا نبحث عمن نوجه اليه هذه الرسالة، لنكشف له عن البلايا التي حلّت بنا، في غضون الاشهر الثلاثة الاخيرة، لكننا لم نجد سواكم.

حاولنا ان نرسل بها الى نُقّادنا، فقالوا: كل شيء الا هذا، فالذي يلمس النار يكتوي بها... فقلنا لنرسل بها الى رئيس مجلس الوزراء. لكن، ما كاد ذلك يمرُّ في خاطرنا حتى تصوّرنا نظرات الاستنكار تحدجنا من كل جانب... وطرقنا ابواب جميع الوزراء فكان الجواب: كل الوزارات في واحد هو رئيس الوزراء، إنْ رضي رضينا وإنْ رفض رفضنا... فقد غدوا جميعاً مثل حمام مسجد الكعبة، لا يسمح لاحد بمسه.

واخيراً كان رجوعنا اليك ايها القارىء العزيز... وفي خواطرنا اشياء تعتلج ولا تخرج نترك لذكائك الاحاطة بها. حاول أنْ تقرأ ما بين السطور بعض ما نود ان نفضي به اليك. فاذا لم تتبينه، فعوّض عما فاتك منه بقراءة امالي القالي، او حيوان الجاحظ، او ادب الدنيا والدين، فانها كتب حرية بالقراءة، مطبوعة على ورق جيد، ومزينة بالرسوم، ثم هي معروضة للبيع باقل من اشتراك سنة بمجلتنا المحترمة.

ولقد صحب هذه الافتتاحية استفتاء كشف عن تأييد للمجلة بنسبة ٩٧ في المئة من القراء. والظاهر ان ادعاء ناصر والسادات بعده، بدعم شعبي بلغ ٩٩ بالمئة، انما هو امتداد لتقليد راسخ.

وبنشوب الحرب العالمية الثانية، واكتساح دول المحور لمصر، فرضت الرقابة على الصحف، فتلقت الصحافة الهزلية صدمة جديدة. لكنّ الظرف الذي طُبعت به مصر،

اوجد للظرفاء مصدراً جديداً لدعاية لا ضرر فيها. فقد اشارت «آخر ساعة»، في صدد تحديد اسعار الضروريات، الى أنّ جداول التسعيرات الجديدة لم يشمل حشيشة الكيف، ومع ذلك فاسعارها لم ترتفع في السوق السوداء ارتفاعاً محسوساً. ويبدو ان ذلك حمل حشّاشي القاهرة على أنْ يكتفوا بمخزونهم من الظرف الذي ليس له حدٌّ

ادنى. وذلك باعتماد ميدان آخر للتنكيت هو ميدان الحرب. فقد سمع احد الحشاشين ان الالمان اوقفوا القتال لتنظيف دباباتهم، فسأل زميلاً له:

ـ ليه الحلفا ما يهجموا والالمان مشغولين بنظفوا دباباتهم؟

ـ علشان الحلفا ما يحبوش الوساخة.

وروى حشّاش آخر، أنّ قائداً المانياً سمع صفارة الانذار تدوّي مؤذنة بغارة جوية، فاسرع ليختبىء تحت سريره، لكنه وجد هناك عشيق زوجته فصاح به:

ـ تعمل ايه هنا؟

ـ اختبي من الغارة.

ـ إطلع ده مكاني اختبي فيه.

فخرج العشيق وانضم الى زوجة القائد فوق السرير.

كذلك الرسامون الهزليون، فقد انضموا الى الجمهور في معالجة نظام التعتيم بسلسلة طويلة من الدعابات. فقد ظهر في احد رسومهم رجل يحطم دراجته بغضب شديد فجرى بينه وبين احد المارّة الحوار التالي:

ـ انت بتكسر الباسكليت ليه؟

ـ زهقت. في الاسبوع اللي فات غرموني علشان ما كانش عندي نور. اليوم ده غرموني علشان كنت مولع النور.

وفي رسم هزلي آخر، يرى الشرطي نوراً ينبعث من نافذة مسجدٍ. فيطرق الباب ويجري بينه وبين امام المسجد الحوار التالي:

ـ بيت من هذا؟

ـ هذا بيت الله.

وقد شهد زمن الحرب صعود نجم مجلة «البعكوكة» الاسبوعية، التي وقفت نشاطها على الظرف والدعابات الشعبية من مثل حوار: «القافية». لكن ولاءها الرسمي دفعها في اتجاه معاكس لروح المقاومة الجديدة، والتحركات المناهضة للملكيين، مما ثلم

حدّها التهكمي، وتركها متخلفة عن مسيرة «مصر ـ ما بعد ـ الحزب». فحلت محلها عدة مجلات هزلية منها «كلمة ونص»، و«صباح الخير» الى جانب «الاثنين» و«المصري افندي». أصدر هذه الأخيرة عبد الرحمن نصر، وحررها مأمون الشناوي، وسلكت سبيل «آخر ساعة» في الجمع بين الجد والهزل.

بقيت الصحافة المصرية لسنين كثيرة المصدر الاول للقراءة الناضجة الواعية في العالم العربي. وكان لا بد لمنشورات الظرف والتهكم من ان تترك طابعها على صحافة البلدان العربية الاخرى.

وعلى ذلك فإن نوري ثابت، عندما تقدم بطلب ترخيص لإصدار جريدته الهزلية في العراق، ضرب مثلاً بالكشكول، وروز اليوسف، وقال: لقد آن للعراق ان تكون له منشورات مماثلة. على ان نوري ثابت لم يكن بواقع الامر، رائد الصحافة الهزلية في العراق، اذ كان قد تقدّمه في ذلك ميخائيل تيس، فاصدر في السنة نفسها التي ظهرت فيها «روز اليوسف»، اول مجلة هزلية اسبوعية في بغداد بعنوان: «كنّاس الشوارع». فقد كتب في صدد التعريف بمجلته الجديدة: إنّ خطتي واضحة وضوح الشمس في منتصف الليل. إنني سأحمل مكنستي، واجول بها في الشوارع والازقة المتعرجة، وحيثما وجدت احداً يأتي ما يمجّه الذوق، او يأنفه الشم، او تاباه الآداب العامة، او يتحدّى القوانين والحدود، فانني ساضربه بمكنستي على رأسه. فإما ان تنكسر مكنستي فأكون الخاسر واما ان ينكسر رأسه فيكون هو الخاسر.

ومن الحريّ بالقول إنّ ميخائيل تيس هذا، كان احد الرواد الذين وقعوا تحت تأثير الثقافة الغربية. كان مسيحياً، تخرج في الكلية اليسوعية الاميركية في بغداد. وكان من سوء حظه أنْ يحاول هذا النوع من الكتابة في العراق. فقد تعرّض، بعد اشهر قليلة، بسبب حملاته، لرصاصة اطلقها عليه سفّاك كاد يودي بحياته.

هذه الرصاصة وضعت حداً للمحاولة الاولى في هذا الميدان. لأن تيس انسحب على اثرها من هذا الميدان الدامي من ميادين الصحافة. لكنْ سرعان ما اقتفى خطاه شوقي الداودي. فأصدر صحيفة «قرندل». ومن اشهر ما كتب فيها مقال بعنوان «العراق شلون يساويك ترقّي» هكذا بعربية مكسّرة، وبلهجة قائد بنغاليّ في الجيش البريطاني ـ الهندي. ولقد كانت النكات في معظمها شفوية، لكنها كانت موضوعاً لاعجاب شديد في اوساط العراقيين، اذ جرت في السياق المتبع من كراهية الاجانب والتطرّف القومي. لقد اعتاد العراقيون رؤية الهنود المسلمين يقصدون الى الاماكن المقدسة مستعطين

يعيشون تحت رحمتهم، وأنْ يروهم الآن ضباطاً يعاملون المواطنين بسلطة الحاكمية البريطانية المستبدّة، ويدّعون انهم يمدّنونهم، فقد كان ذلك من سخرية القدر.

اما الجريدة التي حظيت بشهرة اوسع وابقى، فقد كانت «حبزبوز» التي اصدرها نوري ثابت عام ١٩٣١، متعهداً بالتصدّي للشرور الاجتماعية، والحرص على تفادي المجابهة السياسية مع ارباب السلطة. ولكن العياذ بالله! فالظرف الذي جرت عليه انما يتمثل بالاقتباس التالي:

اوقف الحارس ليلاً رجلاً يطلق ماءه في الطريق فقال له:

- افندي شتسوي هنا؟
- ابول. ما تشوف!؟
- ما تخاف من ربك؟ تبول عالطين اللي قدسه الله؟
- عجايب! صار الطين مقدس؟
- الله الساتر، انت ما تعرف الطين مقدس؟ الله منين خلق آدم؟

فالجدل لم يتركز على الصحة العامة او الآداب العامة، بل على تدنيس الطين الطاهر! وفي مقال آخر، يصف الرجل المتزيّي بالزي الغربي متهكماً فيقول:

انه يقف حاسر الرأس شتاءً وصيفاً، وشعره المسرّح بالزيوت يلمع تحت اشعة الشمس كقطعة من الجلد المدبوغ. ولكي يطيل سالفيه يستعير لهما نحواً من خمسة سنتيمترات من لحيته. وعلى خديه تنتشر المساحيق، الابيض منها والاحمر، مع مسحة من احمر الشفاه، او قشر الجوز حول فمه كأنّي امرأة تافهة. طوقه الطويل متدلٍّ كأذني حمار، فوق ياقة عريضة كمنشفة الحمام. عذراً فالسيد ممثل هاوٍ. لذلك تراه يلبس سترة هي من الضيق والقصر بحيث لا تستر عجيزته التي يلبس فوقها سروال تشارلستون هو من السعة والفضفضة بحيث يستوعب اثنين او اكثر من فخذي ابي حمد في كل جانب.

ان نوادر «حبزبوز» وتعليقاتها بقيت حديث الناس، يرددها العراقيون لسنين كثيرة بعد وفاة منشئها وتوقفها عن الصدور عام ١٩٤٠. والنكتة التي بقيت عالقة في ذهني من نكات نوري ثابت الطريفة الكثيرة، تلك التي اطلقها جواباً عن سؤال طرحه عليه أبنه:

- بابا هالقحاب اللي في المنزل ينامون ويًا الرجال الليل كله ما يحبلن؟ وين ولادهم؟
- معلوم يحبلون، وليش سواق التاكسي والعربجية منين طلعوا؟

كان من المحررين البارزين في مجلة «حبزبوز» ابراهيم صالح شكري. فقد تميز بتقبيحاته النقدية التي اودعها سلسلة من المقالات تناول فيها شخصيات برزت في غضون ثورة الشريف حسين العربية، نشرها تحت عنوان «قلم الوزير». والقلم المقصود هو الذي اهداه الى المحرر الوزير علي جودت الايوبي. وقد استأنفت الصحافة العراقية الهزلية مسيرتها بعد الحرب. وتمكن العراق من احراز مقدارٍ من النظام الديمقراطي بظهور مجلة «الوادي» الاسبوعية التي اصدرها خالد الدرّة. وكان اهم ما نشرته سلسلة من المحاكمات الدعابية، اكسبتها شهرة واسعة، صدرت تحت عنوان «في قفص الاتهام» لتكشف عن اخطاء السياسيين وتظهر نقائصهم. ثم ان المجلة اتاحت لحميد المحل، فرصة لاظهار براعته وفطنته في الرسم الهزلي. ولقد كان حميد المحل، الى ذلك، ممثلاً مسرحياً، وعضواً مؤسساً في فرقة «الزبانية» التي اختصت بالتمثيل الهزلي. فكانت هذه الازدواجية دليلاً آخر على الرابطة عينها التي جمعت بين المسرح، والملهاة، والرسم الهزلي والظرف السياسي. والواقع أنّ العديد من الوزراء والزعماء العراقيين المعاصرين، مثل نجيب الراوي، واحمد الراوي، وصادق البصّام، قضوا حداثتهم على خشبة المسرح، وساعدوا في تكوين الفرقة المسرحية السابقة، تحت رعاية الحزب الوطني سنة ١٩٢١. وكان من اعضائها المؤسسين نوري ثابت صاحب «حبزبوز». وقد وضع لها عدداً من المسرحيات الاجتماعية منها «روبين الصرّاف» (١٩٢٦) التي اعتبرها مؤرخ المسرح العراقي، الدكتور علي الزبيدي، اول مسرحية تامة الشروط الفت في العراق. والمسرحية تهاجم شخصية المرابي بالذات.

العراق بلد لم يشتهر بالحس الظرفي او الروح الدعابي، لكنه اقترن في اذهان العرب الآخرين بالعنف، وقلة الصبر، وعدم الاحتمال. فلم يكن لمحرري الزوايا التي تقاوم هذه السمات أنْ يعتمدوا على تأييد من المسرح، او دعم من الديمقراطية. وعلى ذلك فقد سقطوا في الخطأ المتوقع، وهو اعتبار الكتابة باللغة الشعبية، هو بحدّ ذاته، ضرباً من الظرف، وأنّ استخدام اللهجة الدارجة هو بذاته نوع من الطرافة البارعة. ولقد اوغلوا في هذا الخطأ فكتبوا باللهجة العامية العراقية التي يعوزها الكثير من الرقة التي تتصف بها اللهجة المصرية. على ان السمة التي ميّزت لغة العراقيين انما هي القذف والشتم والبذاءة، مما أبرز قديماً طبقة من اعلام الأدب العباسي. لكن القذف البذيء حرّم عليهم بتأثير الترمّت الذي غلب على اجواء القرن التاسع عشر في اوروبا. ولقد بدا لي يوماً ان اقابل ما بين اصناف الشتائم عند مختلف الشعوب ـ بلغة الأصل آناً، وبالترجمة آناً آخر ـ فلم اتمكن من حرمان العراقيين في هذا الميدان من احراز قصب السبق.

لقد اخذ الوزراء يوماً على رئيس الوزارة إغلاظه بالشتم، وتماديه في استخدام التعابير المبتذلة. فالتفت الى اكبر الوزراء سناً وقال معتذراً:

انا لا اشتم اكثر من غيري يا عم! ألا توافق؟ فاجاب الوزير الشيخ: الواقع انني لا اعرف عنك شيئاً كثيراً، لكنني اعرف الكثير عن والدك - رحمه الله - فقد كان في يوم من شهر رمضان صائماً، يقضي ساعات النهار الطويلة بقراءة القرآن، وكنتَ انتَ صبياً كثير الحركة، تشاكس امك فتطلق عليك مختلف النعوت. واذ بدا لوالدك أنّ الوقت شهر رمضان المبارك، وانه في صدد قراءة الكتاب الكريم، ثار غضبه وفقد صبره، فاقفل الكتاب وانتهر امك قائلاً: يا مرة، تسكتين هذا النغل ابنك، لو أقوم اخشه منين ما طلع!... ثم التفت الشيخ الى رئيس الوزارة وقال: الا تذكر ذلك يا صاحب السعادة؟ فهزّ رئيس الوزارة رأسه قليلاً وقال: كلا يا عم، لا أذكر انني ولدت مرتين...!

ولا سبيل الى الشك في اصالة هذا الحوار، لأن العراقيين - بل العرب جميعاً - كثيراً ما يعبرون عن اعجابهم بسياسي او بزعيم او قائد بالقول إنه «ابن زانية» تقديراً لبراعته. الا أنّ هذا التعبير من حقوق العرب وحدهم، يستخدمونه فيما بينهم. ولا بد من تحذير اي اجنبي من اعطاء نفسه هذا الحق، واستخدامه في مخاطبة بعض المواطنين. ولعل خير ما يعبّر عن استخفاف العراقيين بالمقدّسات، تردادهم بلهجة المتهكّم - عندما شاهدوا الطائرة لأول مرة - وتذكّروا الآية القرآنية «وانظر الى الابل كيف خلقت...»؟ فراحوا ينشدون تهكماً: «متعجب خالق له بعيرة».

لم يعرف ساسة العراق بروح النكتة، ولكن رويت عن ياسين الهاشمي، رئيس الحكومة في الثلاثينات، نادرة تعتبر من أطرف ما ورد في الأدب السياسي من استعمال للتورية والملاعبة اللفظية العربية الاصيلة. كثيراً ما لفظ اسم العراق على الطريقة العامية بضم العين فيقول العُراق بدلاً من العِراق بالكسر. وبعد خطاب طويل تردّد فيه هذا الاستعمال كثيراً، وقف احد نوّاب المعارضة في المجلس فقال له: «انك تتكلم عن العراق ومصالحه دون أن تعرف حتى كيف تلفظ اسمه فتقول العُراق بدلاً من العِراق.» فوقف ياسين الهاشمي وردّ عليه: «نعم. اقول العُراق لأنني احب أن ارفع عين العراق».

اما في سورية، فقد كانت اطول الصحف الهزلية عمراً «المضحك المبكي» اصدرها حبيب كحالة سنة ١٩٢٩، واستمرت خمساً وثلاثين سنة، عطّلها المندوبون الفرنسيون في اثنائها، فترات مجموعها زهاء عشر سنوات. وفي هذه الأثناء اشتهر أظرف شعراء سورية على الإطلاق اديب التقي. ومن أطرف قصائده تلك التي نظمها يتهكّم فيها من هبوط الليرة السورية:

ايا ورقات هذا البنكنوط ... هم قد اصدروك بلا شروط
بدوت لنا مرقشة الحواشي ... موشاة كانواف المروط
فكنت غريبة في كل معنى ... كأنك بعض اصداف الشطوط
تحاماك الشباب وكل شيخ ... فلا للمهر انت ولا «النقوط»
كأنك من نسيج هلهلته ... يدان فليس فيه سوى الخيوط
وكم من اخطبوط فيك ينمو ... ومن علق يمص كأخطبوط
ولولا الظلم ما عدوك الا ... كأسناد مزورة الخطوط
لقد ارهقت اقواماً خسارا ... فعاقبك المهيمن بالهبوط
فلا تأسي بذاك على سقوط ... فنحن اليوم في عهد السقوط

تلقّت الإدارة على أثر نشرها قراراً بالتعطيل الإداري لعدة اشهر.

ومن غريب المصادفات أنّ لبنان، وهو كذلك في تلك الأثناء تحت الانتداب الفرنسي، ظهرت فيه مجلة هزلية تجاوزت حياتها الستين عاماً هي مجلة «الدبور» انشأها وتوالى على تحريرها غير واحد من آل مكرزل. وقد منيت هي الأخرى بسنين طويلة من التعطيل الإداري بأمر من المفوّض السامي الفرنسي. وفي هذه الأثناء ظهر في لبنان، كما في سورية شاعر شعبي فذّ تميّز بظرفه وبراعة تهكّمه. وكان من أطرف قصائده تلك التي تهكّم فيها من سقوط الفرنك الفرنسي، كما تهكّم زميله السوري من سقوط النقد السوري، بدأها بقوله:

حاسب يا فرنك يا فرنك حاسب

فكان جزاؤه الطرد من وظيفة كان يشغلها في الإدارة الحكومية. إلّا أنه تميّز عن زميله السوري بأنه كان ملحناً موهوباً، وذا صوت حسن. فامتهن، بعد فقد وظيفته، نظم القصائد الشعبية في الانحرافات السياسية، والعيوب الاجتماعية والأخلاقية، وتلحينها ثم انشادها في الحفلات الخاصة والعامة، وقد عادت عليه باضعاف ما كان يتقاضى من وظيفته. وكان اول ما نظمه وغنّاه بعد اقصائه من وظيفته قصيدة «ماشي الحال» كان هذا العنوان لازمتها بعد كل مقطع منها، جاء فيها:

ربحت تجارتك او خسرت ... طلعت الليرة او نزلت
طارت وظيفتك او بقيت ... عمرت الدنيا او خربت
ماشي الحال

وكان لمجلة الدبّور رسّام هزلي كان من افضل ما رسم في عهد الانتداب السعيد

الذكر رسم استوحاه من الوضع التالي: ذلك انَّ المفوّض السامي منح لبنان يوماً استقلالاً تحت اشرافه، وسمح له بمجلس نواب شرط أن يعيّن ثلث نوّابه ويوافق على ترشيح الثلثين الباقين، واعطاه الحرية باتخاذ القرارات شرط أن تقترن بتوقيعه الكريم، فصدر عدد الدبور وعلى غلافه رسم هزلي كبير لقطيع من الخراف بعدد النواب، امامه راعٍ مديد القامة يحمل عصاً معقوفة الرأس، وقد كتب تحت الرسم المقطع الأول من مزمور داود النبي الرابع والعشرين: الرب راعيّ فلا يعوزني شيء. . . فكانت المكافأة على هذا التمثيل الظريف، المطابق لواقع الحال، تعطيلاً ادارياً امتدّ بضعة اشهر.

وفي عام ١٩٤٨ ظهرت في دمشق «عصبة الاثني عشر» من المحررين الهزليين. لكن نشاطها لم يلبث ان توقّف، لأن البلاد وقعت تحت الحكم العسكري. على ان جيلاً جديداً من الكتّاب الهزليين اختطّ اسلوباً اكثر حصافة وأدهى حيلة في التهكم السياسي، كان من ابرز افراده زكريا تامر. وكان تامر اصلاً من كتّاب القصّة القصيرة، فاستخدم فنّه في القصص الاسطوري، والمثل السائر، ليشير بأصبع الاتّهام الى سقطات الإدارة. ومن غمزاته النموذجية في احدى قصصه عن تربية الجيل الجديد من اولاد المدارس في ديار العرب السؤال الحسابي التالي: اذا كان عندنا مليون من البشر، وشنقنا منهم مئة وخمسين، فكم يبقى عندنا من الأحياء؟

وفي عام ١٩٧٧ عقدت السلطة مع تامر اتفاق تسوية كلفته بموجبه تحرير عمود في جريدة «تشرين» الرسمية، اتّفِقَ على وضعه تحت عنوان عام هو «حكايات جحا الدمشقي» احيا فيه حكايات جحا القديمة، بعد أن حمّلها بعض المضامين السياسية الجارية. ففي احداها يسأل الملك جحا عن رأيه في حماره فيجيبه: إنّ حمار الملك ملك الحمير. فالحّ الملك على جحا ان يعلّم حماره الكلام، لكن المحاولة تفضي الى أنّ الحمار علّم جحا النهيق! على أنّ جهود جحا لم تذهب جزافاً. ذلك لأن الحمار، عندما تولّى العرش بعد وفاة سيده. اثبت انه افضل ملك ارتقى عرش ذلك البلد.

وفي لقاء آخر يستشير الملك جحا في تأليف وزارة جديدة، فيشير عليه بانشاء وزارة شموع تقدم للناس شموعاً ليقرأوا على ضوئها النشرة الرسمية. واستحداث وزارة ثانية للحياة والموت تتولى إخبار الناس بأنّ الصحّة والمرض بيد الله، ووزارة ثالثة للآداب العامّة، لتوجيه الناس الى ان يمتنعوا عن مقاومة القهر، وان يحوّلوا التنكّر للظلم الى مقاومة الأفلام الخلاعية. وراحت التلميحات النقدية تزداد صراحة وعنفاً حتى قرّرت السلطة منعه من النشر، ودفعه الى اللحاق بسواه من المفكرين، فكان

نصيبه النفي الى لندن، على انه استأنف في لندن كتابة المقالات النقدية تحت العنوان القديم المعبّر «المضحك المبكي».

وفي تونس تجدّدت الصحافة الهزلية سنة ١٩٣٢ على نحو ثوري، وذلك برجوع الشاعر الشعبي بيرم التونسي اليها. فقد أصدر، بالتعاون مع سواه من الظرفاء المواطنين، مجلة «الشباب». فكان بيرم يحرر الافتتاحيات، وينظّم «الملزومات» (قصائد شعبية) ويمدّ الرسام الهزلي، عمر الغرايري، بالأفكار لرسومه. وقد جرت الجريدة على مبدإ غريب هو رفض قبول الإشتراكات. وبرّر بيرم رفضه هذا بأنه خير له أن يكتب ٥٠٠ سطر ربما انتهت به الى السجن، من ان يقضي وقته بكتابة اسماء المشتركين المتغطرسين. لكن بيرم اعتقل، ونفي الى فرنسا، وعُطِّلت جريدته. لكنه استطاع في الفترة القصيرة التي عاشها في تونس، أن يساعد في تأليف عصبة «تحت السور» من الكتّاب الهزليين والتهكّميين، وهؤلاء استأنفوا اصدار «السرور».

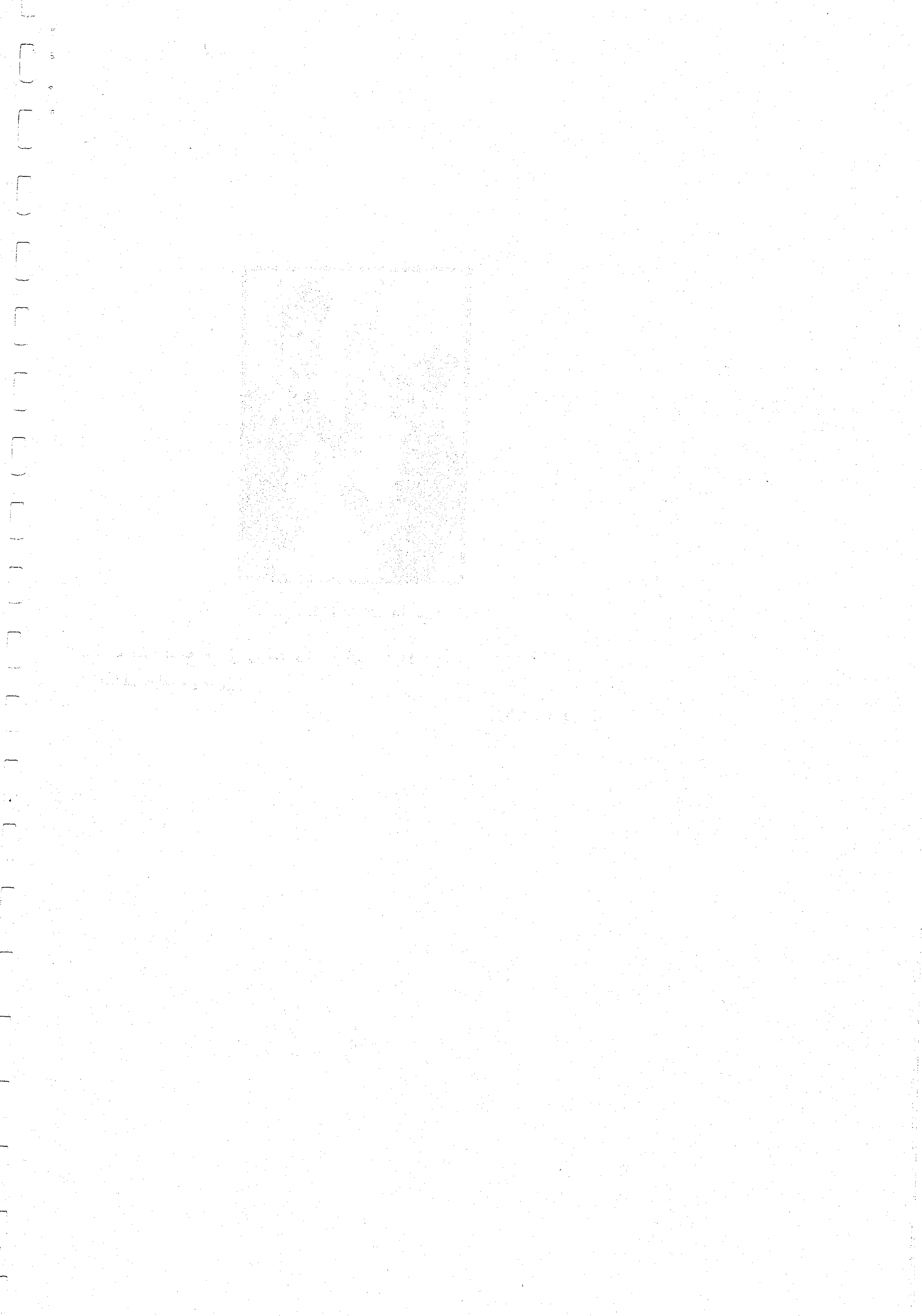
إن الصحافة التونسية كانت ذات تاريخ طويل، امتدّ حتى مطلع هذا القرن. لكن اكثر المنشورات توقّفت بأمر من السلطة الفرنسية لأسباب شتّى، ما عدا «النديم» التي تَوَاصَلَ صدورها من عام ١٩٢١ حتى ١٩٤٠. ولقد جرت «النديم» مجرى سواها من المنشورات العربية الهزلية في دنيا العرب، فاستخدمت خليطاً من الفصحى والعامية في التصدي لتسرّب اساليب الحياة الغربية الى المجتمع الإسلامي، واثارت الإضطرابات من اجل تحقيق استقلال البلاد.

وهنا كذلك نجد انفسنا عرضةً لسخرية القدر، اذ نجد الاستقلال يقضي اخيراً باقصاء ابطاله. لقد تلاشت الصحافة الهزلية في تونس، كما تلاشت قبلُ في مصر وسواها من المجتمعات الخاضعة للحكم العسكري حيث جرى تأميم الصحافة، وغدا الصحفيون والكتاب موظفين لحساب الحكومة، يتصفون بما يتّصف به نظراؤهم من الموظفين المدنيين من الذكاء والمواهب.

نقص الكبريت اثناء الحرب:

- انت كلما تسمع حريق في مكان تروح تجري اليه؟
- علشان أولّع سيجارتي

«الاثنين» ١٩٤٤



الفصل الرابع

أعلام الظرف في عصر الانبعاث

ليس ادلّ على شخصية الرجل من استجابته لما يستثير الضحك

غوته

أحدث دخول الحياة البرلمانية في العالم العربي، تأثيراً قوياً ومميزاً في نوعية السياسة والسياسيين فأعطى جيلاً جديداً من الحكّام الظرفاء. لقد كان للعرب قديماً حكّامهم المستخفّون، من مثل الإمام علي، والحجّاج ابن يوسف، ممن تميّزوا بالخطابة وقول الشعر وكان لهم سلطان مطلق على جمهورهم. لكن البلاد العربية لم يكن عندها امثال ريتشرد شريدان، وبنجامين فرانكلين، ودزرائيلي، من رجال البداهة والظرف والكياسة. فمثل هذه الطبقة من الرجال حديثة النشأة ـ نسبياً ـ في عالم الأدب السياسي. برزت الى الوجود بتأثير النقاش الحر الطليق ما بين المثقفين طبقاً للنظم الديمقراطية البرلمانية. ولقد اظهر العرب، مرة أخرى، في ظل الملكية الدستورية، ما باستطاعة عبقريتهم الكلامية ان تؤدّيه، استجابة لمتطلبات الزمن الحاضر واستفادة من امكاناته. يأتي في طليعة امثال هؤلاء الرجال سعد زغلول، الزعيم القومي الكبير، ومهندس الاستقلال المصري. فهو باعتباره زعيماً تحرُّرياً، وسياسياً قومياً، ورجل وعي وانفتاح، كان نموذجاً فريداً لهذه الطبقة الجديدة من السياسيين، بثقافتهم الغربية وحميتهم الوطنية.

سعد زغلول الفتى الناشىء، جرى مجرى سواه من الفتيان الأذكياء، من ابناء الطبقة الوسطى. درس الحقوق في القاهرة، ثم اتمّ تحصيله في باريس، وعاد منها برغبة حارّة في توعية قومه، واحراز الاستقلال والكرامة لبلده؛ عاملاً من اجل النظام

الديمقراطي، والحكم الدستوري، والحياة البرلمانية؛ مؤكداً على التعايش بين الصليب والهلال. وكان سعد من أوائل المسلمين السياسيين الذين سمحوا لزوجاتهم بحضور جلسات النقاش والاشتراك فيها. فكوفىء على بادرته هذه بأكثر مما تستحق، اذ سموا زوجته بـ«أم المصريين». ولم يكن لسعد اولاد، وكان هذا الواقع محرجاً لزوجته صفية، وهي من بلد تعتزّ فيه النساء عادة بأنْ يكنَّين باسماء اولادهنّ، فينادَين بـ«ام فلان». واذ لاحظ مريدو سعد زغلول هذا الفراغ في اسرته، عمدوا الى ملئه بتسمية السيدة صفيّة «ام المصريين». ولا غرابة، فان السيدة صفية عملت وكأنها ام المصريين جميعاً. فقد كانت ابواب منزلها مشرعة في وجوه القاصدين من جميع الطبقات، ممن جاؤوا يلتمسون النصح، وينقلون الأخبار، ويشاركون في المناقشات التي لم تكن تقف عند حدّ. ولقد حدث في احدى المحاورات أنْ احد المتحاورين فقد السيطرة على اعصابه في نقاش حادّ، فوجه الى مناظره كلاماً بذيئاً، فلم يكن من سعد إلاّ أنْ تدخّل في المشادّة، وطلب من الشاب المتهوّر أنْ يلزم الأدب قائلاً له:

ـ كيف تجسر على التلفّظ بمثل هذا الكلام في بيتي؟

ـ هذا ليس بيتك يا سيدي. انه بيت الأمّة! ولقد بقي «بيت الأمّة» الاسم الذي يطلقه المصريون على بيت سعد زغلول منذ آنئذٍ. ومع ان سعد لم يكن من دعاة التأميم، فقد كان بيته مؤمماً بجميع من فيه وبكل ما فيه!

ولقد لعبت السيدة صفيّة عملياً دور الامومة الناجحة ولو في مناسبة واحدة. ذلك ان الشرطة البريطانية، عندما اعتقلت بعض المحرضين في تظاهرة شعبية، لم تسمح بزيارتهم في سجونهم الا لاقرب اقربائهم. ولم يكن لبعضهم اقرباء يستطيعون زيارتهم، فكانوا في وضع سيّء للغاية. ذلك ان السجين قلّما يتناول طعاماً شهيّاً إلاّ ما يجيئه به زائروه. فجهّزت السيدة صفيّة سلالاً من الوان الطعام، وذهبت بها الى السجن. وعندما طلبت مقابلة اولئك السجناء سألها حارس السجن عن صلة القرابة التي تربطها بهم فقالت له: «انا امّهم»! وام المصريين، كما يبدو، كانت تنعم بنصيب وافر من بلاغة زوجها. ففي الحفلة الملكية التي أقيمت، بعد وفاة سعد، لرفع الستار عن تمثاله التذكاري، لم يعين لها مكان بجانب الملك كما جرت العادة، بل في مقصورة محجوبة خاصّة بالنساء. فرفضت هذا الإجراء، ليس بداعي الكبرياء، بل دفاعاً عن حق المرأة بالمساواة الذي كانت وزوجها يدافعان عنه. قالت لرئيس المستقبلين: قل لجلالته: يشرفه ان يجلس الى جانبي، وجلوسي الى جانبه لا يزيدني شرفاً. وانتهى المشكل بأن تشرّف الملك بالجلوس الى جانب ام المصريين.

كان سعد زغلول تلميذاً للمصلح الديني الكبير جمال الدين الافغاني، الذي ترك اثراً بالغاً في مفكري العصر. وقد وصف سعد بأنه كان خير داعٍ لآراء معلمه في الحرّيّة والتوعية. وعلى ذلك فقد سارع الى تأييد الثورة العربية فور اندلاعها. وفي إبّان نضجه الفكري، عبر عن اعجابه الشديد بالتمثال الذي نحته الفنان مختار تجسيداً لنهضة مصر، بصورة فلاحة مصرية توقظ السفانكس من سباته، وكان من رأيه ان يقام في أبرز ساحات القاهرة. على أنّه نُصِحَ أنْ لا يجمع التبرعات لتحقيق هذا المشروع، لئلا يعاكسه رجال الدين، على اعتبار انه ضرب من الوثنية ربما جلبت اللعنة على البلاد! فكان جوابه: لماذا يعارضون وقد رأوا تمثالاً يرفع للخديوي محمد علي في الاسكندرية، وآخر ينصب للخديوي ابراهيم باشا في القاهرة، فلم يحرّكوا ساكناً!

وواقع الأمر ان تمثال «نهضة مصر» احتجزه الانكليز بعد ثورة عام ١٩١٩ وحجر عليه في مستودع حصين، حيث مكث رهن الاعتقال ثماني سنوات. ولم يَفُتْ سعد أنْ يلفت النظر مرة ان «تمثال النهضة» هو المعتقل الوحيد الذي لم يطلق سراحه!

هذه المجابهة بينه وبين الانكليز، كان لا بد من ان تؤدّي الى نفيه. واخيراً سمع باذنه القرع على الباب الذي توقعه طويلاً في وجدانه. وبادر القائد البريطاني الذي ناوله الأمر باعتقاله بالقول: لقد تأخّرتم، انا بانتظاركم من زمن طويل. فاجابه القائد: ان اوامري ان اعتقل سعادتكم الساعة الخامسة مساء، وها هي الساعة الخامسة مساءً. ومشى القائد به مرتبكاً، دون ان يدرك الدعابة الساخرة التي رماه بها سعد. وقد شاهد هذا الموكب احد الظرفاء من المقهى المقابل فقال لرفاقه: الذي يبدو لي ان الموكب يسير بالضابط الانكليزي وكأن سعد زغلول قد اعتقله! وتأمّل سعد بوثيقة الاعتقال فاذا هي موقّعة بـ«خادمك المطيع الجنرال اللنبي» فابتسم حيال رياء الرجل الانكليزي وقال: يمسكني بياقتي حتى ليكاد يخنقني، ثم يزعم انه خادمي المطيع!

واخيراً نفي سعد، ومعه عدد من الزعماء الوطنيين الى جزيرة مالطة، وبقوا جميعاً يتحسسون الألم الذي تعانيه زوجاتهم لهذا الفراق القسري. الى ان أُلهم سعد بما قد يسرّي عن خواطرهم، فقال: ارى ان يكتب كل منّا الى زوجته انه قد اتخذ امرأة مالطية زوجة ثانية له، فإنها سرعان ما تنساه وتدفن أساها! لكنّ السيدة صفيّة لا نسيت ولا يئست، بل اثبتت انها ركن شامخ من اركان الدعاية في الكفاح القومي. فقد وقفت موقفاً حازماً في وجه التدبير البريطاني، عبّرت عنه بشعار قصير وجازم هو «يحيا سعد» على ان يصاح به في كل مكان، ويكتب بالطباشير على كل جدار، ويطبع بالخاتم على كل ورقة وكل ورقة بنكنوت. حتى غدا البلد برمّته يُنشد لازمة واحدة هي

«يحيا سعد». وبلغ بالمصريين ان مزجوا الاحساس الدعابي بالوهم الخرافي... فقد تناقل الناس خبر اعجوبة هي ان الله انبت اللوبياء وقد نقش على اوراقها «يحيا سعد»، وروى طبيب في تقرير له انه فيما كان يفحص امرأة حاملاً سمع بسمّاعته الجنين يهتف: «يحيا سعد»، فدعا زميلاً له ليسمع ما سمع، فأكّد الخبر!

حاولت بريطانيا مرة عقد صفقة مع احد المواطنين المتذبذبين، وبدأت فعلاً بمفاوضات مع حكومة عدلي يكن. وعندما سمع سعد زغلول بالمحاولة ابتدع شعاراً دخل المصطلح السياسي العربي هو: «جورج الخامس يفاوض جورج الخامس». ولم يجد البريطانيون بدّاً من اطلاقه والتفاوض معه. فدعوه الى لندن لهذا الغرض. وقد حاول، اول الأمر، ان يكون مفاوضاً مرناً، وسياسياً توفيقيّاً، ففتش عن جامع بين مصر وبريطانيا فلم يظفر بشيء الا بعد ان عاد ادراج التاريخ نحواً من الفي سنة، فقال للحضور من البريطانيين: اذا نحن ناجينا روح يوليوس قيصر لذكر لنا بأن جميع البلدان التي حكمها لم تسبب له من المتاعب ما سببت مصر وبريطانيا.

لقد وصفه مساعده ومدوّن سيرته، عباس محمود العقّاد، بالشجاعة والصراحة والدهاء، وشبّهه بلويْد جورج في ظرفه واحساسه الدعابي، فقد التقيا يوماً، فسأله رئيس الوزارة البريطانية عن نواياه بشأن الأجانب والبريطانيين في مصر فأجاب: صداقة مع جميع الأجانب حتى البريطانيين! فتبرّع لويْد جورج بتفسير «حتى البريطانيين» بمعنى «لا سيما البريطانيين» رغبة منه في التمهيد لمفاوضات ناجحة. وكان العرب دوماً يرتابون بنوايا لويْد جورج، ويعتبرونه مصدراً لأزماتهم المتلاحقة. فقد نقل احد الصحفيين لسعد ان رئيس الوزارة البريطانية قد قال عنه: ان صحة سعد تتماثل بمعالجة الأزمات. فاجابه سعد: الله يطول عمره... وكأنه يقصد ان عبارة لويْد جورج من قبيل الشفقة لا من قبيل الدعاء بالشفاء. لأن صحّة المصري العظيم لم تلبث ان انهارت. فتوقفت المفاوضات مع الانكليز بوفاته عام ١٩٢٧.

لا يجمع المراقبون على صحة هذه المقارنة التي اقامها العقّاد بين سعد ولويْد جورج. إلاّ أنّ ثمة صفة واحدة ربما صحّ اعتبارها مشتركة بين العرب والسلتيين تجمع بين الخطباء من العرب والويلزيين من البريطانيين هي حبهم للتعبير الشعري في الكلام كما في قوله: إن في الناس ناساً إذا رؤوا، رجلاً يضرب وآخر مضروباً يبكي قالوا للمضروب لا تبكي قبل أن يقولوا للضارب لا تضرب. وهذا من اقوال سعد التي يتعلمها الطلاب في المدارس شاهدة على بلاغته الخطابية. ومن اوصافه لاحد مؤيّديه المزعجين: انه كالمخاط تشمئز منه اذا اخرجته وتتقزز منه اذا ابقيته.

هذه العبارة توجز الدليل على تسامح سعد وسعة صدره. ولقد كان على صواب عندما قال انه خليق بأن يتحمّل حتى خصومه بمثل هذا التسامح. تجلّى موقفه هذا في تغاضيه مع الصحافة. فقد كان اول رئيس وزارة عربي يعقد مؤتمراً صحفياً، على ضعف اعتقاده بصدق رجال الصحافة. ففي تعليق له على قول المنفلوطي عنهم: انهم كتّاب يوردون آراءهم بما يشبه قطرات الندى، بلا افصاح شامل لما يريدون، قال: بالطبع انهم تجّار مفرّق لا تجّار جملة! وقد عاد الى الحديث عنهم في مناسبة اخرى، عندما قال: ان الحرية قد قطعت شوطاً طويلاً في مصر. فقد كان ضيوف الأمير يأكلون مما يأكل، ويتركون ما يترك، فصاروا اليوم يأكلون كل شيء ولا يتركون شيئاً! وقد سأل يوماً عن صحفي مريض مستطمناً، فقيل له انه يشكو من عسر هضم فقال: لعله ابتلع احدى مقالاته...!

واخلاص سعد في اطراء الديمقراطية لم يحجب نظره عن مضحكاتها في البلدان الناشئة. فقد جاءه يوماً رجل غالى امامه في التمني لحزب الوفد بالفوز في الانتخابات النيابية، فقال معلّقاً: ولِمَ لا؟ اننا ان فزنا كما تمنّى لنا، عاد يطلب المكافأة، وان خسرنا لم يعد ليرينا صورة وجهه. واستأنف سعد كلامه برواية حادثة وقعت لمعلّمه الافغاني. فقد كان في نزهة مع جماعة من مريديه في نهر النيل. فتعرّضت سفينته لعاصفة عاتية، مما روّع كل من كان معه، إلّا انه حاول تهدئة خواطرهم فتنبّأ لهم بالسلامة على اساس كرامته عند الله. ثم اسرّ الى مرافقه الخاص: اذا غرقت السفينة لا يبقى من يخبر بكذبتي هذه، واذا نجت كسبتُ اعتقادهم بقداستي!

وفي حادثة اخرى امتدح سعد وزير الأشغال العامة عثمان محرم ثم زكّاه امام مهندس صغير، ولما انفرد به لطفي السيد قال له مستغرباً: انا افهم ان تزكي المهندس الصغير امام الوزير، لا الوزير امام المهندس. فاجابه سعد: عثمان محرم نائب عن دائرة دسوق، والمهندس ناخب فيها.

كان سعد لطيفاً للغاية ومتفهماً للأمور. وكان في جواره نائب من عادته رفع صوته في المكالمات الهاتفية الخارجية، وكان كثير الاتصال بالاسكندرية فغدت مكالماته مصدر ازعاج لسعد. فدعا امين سره وقال له: قل لسعادة النائب، لا حاجة به الآن لأنْ يرفع صوته ليسمع من يخاطبه في الاسكندرية، فقد جهزنا مكتبه بهاتف. وجاءته يوماً امرأة تشكو زوجها اليه وتعدّد اساءاته اليها... فقال لها بعد ان افرغت جعبتها: جميع هذه الأمور لا تعنيني! فزاد غيظها واخذت تعدّد التهم التي يكيلها زوجها له... فقال لها: وجميع هذه الأمور لا تعنيك انت!

وشغل سعد منصب وزير معارف فلعب دوراً هاماً في تقرير مستقبل مصر الثقافي، وفي ان يجعل منها نموذجاً للعالم العربي. وكان فيما اقدم عليه ارسال بعثات طلابية من خريجي مدارس مصر الى اوروبا، لمواصلة التحصيل والتخصّص. فاحتجت حلقات الدراسات الدينية في الأزهر على إقصائها عن تلك البعثات فكان ردّه عليهم: الى اين يودّون ان ارسلهم لدراسة الإسلام؟ هل ارسلهم الى الفاتيكان. . .! ومن الطريف حقاً ان نقارن ما بين مفهوم سعد للتحصيل العالي وبين ما يجري حالياً من توجّه الطلاب العرب الى اوروبا واميركا لدراسة لغتهم ودينهم!

وتقدّم اليه احدهم بطلب لمواصلة الدراسة في اوروبا ولاحظ انه كبير السن، فسأله:

- هل انت متزوّج؟
- نعم، بنعمة الله. . .
- وكيف تستطيع ان تنفق على زوجتك في أثناء غيابك؟
- سأطلّقها يا سيدي. . .!

فأسقط سعد اسمه من جدول المرشّحين وكتب على طلبه: «مثل هذا لا يُؤتمن على تعليم اولادنا». وتحسن المقارنة، في هذا الصدد بين هذا الموقف، والتدابير التي لجأت اليها مؤخراً بعض الحكومات العربية بتشجيع بعض الرجال على تطليق نسائهم لأسباب سياسية متباينة.

وسعد زغلول، قورن بدوره، بفارس الخوري، رجل الدولة الكبير في سورية. لكن هذه المقارنة تنحصر في استخدام كل منهما للظرف في متابعة القضايا السياسية في بلده. وهما، في ما عدا ذلك، مختلفان سواء في الأسلوب او في وجهة النظر. فسعد كان مصرياً صميماً، في حين ان فارس الخوري كان قومياً عربيّاً، وكان ظرفه اكثر انسجاماً مع الظرف العربي التقليدي. لكنه نظير سعد وبورقيبه، وسواهما من السياسيين في العالم العربي المعاصر. كان محامياً، فاستعان في اسلوبه بادوات مهنته، وكثيراً ما توكأ في اسلوبه هذا على التلاعب اللفظي والفني البياني لا سيما التورية. وكان فارس الخوري يحاضر طلابه في كلية الحقوق في موضوع الثورة، فاستدعاه المفوّض السامي الفرنسي واتهمه بتعليم طلاّبه الثورة (Revolution) فأجابه: انا لا أعلّمهم الثورة بل التطوّر (Evolution). ومن الغريب حقاً ان نشهد سليل الثورة الفرنسية يتنكّر لتعليم موضوع الثورة في معهد للحقوق!

وُصِفَ فارس الخوري بأنه رجل دولة خارق الذكاء. ومما استدلّ به مواطنوه على ذلك حجم رأسه الكبير. قيل انه كان دائماً يواجه صعوبة في العثور على طربوش بقياس رأسه، وقد قضى مرة يوماً كاملاً في التفتيش عن طربوش يناسب رأسه، الى أن عثر آخر النهار على مطلوبه، لكن البائع طمع به، واراد استغلال الفرصة التي قلّما تسنح، فطلب بالطربوش ثمناً اعتبره فارس الخوري باهظاً فقال له البائع: اذا وجدت يا سيدي طربوشاً بحجم رأسك في دمشق، فانا اعطيكه مجاناً. فأجابه فارس: اذا وجدت انت في كل سورية رأساً بحجم هذا الطربوش فبعه بالثمن الذي تريد!

ومن سمات ظرفه العروبي استعانته بالأمثال السائرة لبلوغ اغراضه او افحام خصومه، ومما يشهد لفرط ذكائه وقوة عارضته، دفاعه في الأمم المتحدة عن استقلال بلاده، كمندوب عنها في المؤسسة الدولية. فالجيوش الفرنسية والبريطانية لم تبارح سورية بعد اعلان الاستقلال السوري، وعبثاً طالبت سورية بجلائها. فعلل اللورد كادوغان، مندوب المملكة المتحدة، بقاء الجند البريطاني في سورية بأنه من اجل منع اشتباك الجيش الفرنسي بالجيش السوري. فأجابه فارس الخوري: انها بالواقع حكاية الرجل والمصباح؛ فقد جرى بين صاحب المصباح وأحد عابري السبيل الحوار التالي:

- لماذا تعلّق هذا المصباح هنا في كل ليلة؟
- لأحذّر الناس من الاصطدام بالعمود.
- ولماذا تضع هذا العمود ههنا؟
- لأعلّق عليه المصباح!

ان الكثيرين من المندوبين الأجانب في الأمم المتحدة قد اضجرهم الحاح العرب على إثارة المسألة الفلسطينية، وتكرارهم للمطالبة بحقوق الفلسطينيين المهدورة. لكنهم يدركون حساسية العرب في هذا الموضوع، ويتحمّلون هذه المطالبة على مضض. إلاّ أنّ السيد فيشنسكي، المندوب الروسي في الأمم المتحدة، لم يكن مستعداً لإبداء مثل هذا التفهّم للوضع، وهاجم المندوب السوري على إثارته للقضية الفلسطينية كل يوم. فأجابه فارس الخوري بقصة الزوج الذي مثل وزوجته امام القاضي فشكا امره أنه رجل فقير وأن زوجته مع ذلك تطالبه كل صباح بجنيه تنفقه على نفسها. فسألها القاضي: هل هذا صحيح؟ فقالت نعم إنه صحيح، إنني اطالبه في كل صباح ولكنني لا اطلب منه أن يعطيني في كل صباح جنيهاً، انما انا اطلب منه أن يعطيني جنيهاً واحداً مرة في العمر كله.

ان العرب اليوم يشعرون، ولا بدّ، بشيء من الكآبة والانهزامية، عندما يذكرون، كما أذكر أنا الآن، اولئك الجبابرة من أعلام الفكر العربي، وروّاد الوعي القومي، وأقابلهم بهؤلاء الذين يتحدّثون اليوم بلسانهم ويعالجون مهامهم. على ان ثمّة ظريفاً عربياً معاصراً آخر عانى ما لا يوصف من آلام هذه الأوضاع، وعبّر عن احاسيسه بأسلوب فريد في البلاغة والروعة، هو الصحفي المصري الشهير مصطفى أمين، الذي اقترن اسمه بجميع المجلات والجرائد الهزليّة التهكميّة في بلاده، وكانت افكاره ـ بشهادة الرسّام الهزلي رضا ـ من وراء اكثر الشخصيات الهزلية، مثل «ابن البلد»، المواطن الساذج الذي يتحدّى جميع القوانين دفاعاً عن العدالة والفطرة السليمة.

درس العلوم السياسية في الولايات المتحدة، ثمّ عاد الى القاهرة ليلتحق بمجلات «روز اليوسف»، و«آخر ساعة»، و«الاثنين». ويقتنع بالنتيجة ان مكانه الصحيح هو الصحافة لا العلم السياسي. وعلى ذلك اطلق جريدته الناجحة «اخبار اليوم». وهو في ما أرى، يمثل اسعد عقود الزواج بين الثقافة الغربية والتقليد الشرقي، مما يتجلّى في التزامه المخلص بقيم الديمقراطية الغربية، وبالاقتصاد الحر من جهة، وبالايمان الواعي بالله، وبالاعتصام بالإسلام من جهة اخرى. وقد روى انه كثيراً ما وجد نفسه، بحكم العادة، يردّد في نومه الدعاء: «يا ربّ»، على ان تديّنه هذا لم يَحُلْ دون رؤية الجانب الدعابي من الهوس الديني. فقد روى تفاصيل كثيرة وممتعة تتصل باربعة من الاخوان المسلمين، الأربعة الذين التقاهم في السجن، وكان كل منهم يحاول أن يؤم الثلاثة الآخرين بالصلاة، فيبادر الى رفع الأذان قبل موعد الصلاة بقليل. وراحت الصلوات الخمس اليومية تتقدم كل يوم بضع دقائق عن موعدها. لاحظ ذلك مصطفى امين فعلّق عليه بقوله: اذا استمرّت هذه المسابقة بين الاخوان، فقريباً تؤدّى صلاة الظهر عند الفجر، وصلاة المساء عند الظهر!

ولقد كان ظرفه هو الآخر زواجاً رائعاً بين كياسة الانكلو ـ سكسون وبداهة المصريين. مما يكاد لا يحلم بمثله اي ظريف! وخير ما يمثل عنده هذه الظاهرة ردّه عن استفتاء وجّهه مخبر صحفي الى عدد من الشخصيات، حول طريقة تغلبها على الأرق. قال: قلما أصابُ بالأرق، فاذا اصابني عمدت الى قراءة احدى مقالاتي في «الاثنين» فيغلب عليّ النوم فوراً!

على ان ميوله السياسية الغربية، او بكلام أدقّ، انحيازه الأميركي المكشوف، كان لا بدّ من أن يصطدم بسياق الحركة الوطنية الجديدة، وتشديدها بالأخصّ على

الاشتراكية وسياسة التأميم، ومعارضتها للإتجاه الأميركي. وباستفحال الصـراع بين القاهرة وواشنطن، اعتقل مصطفى امين وألقي في السجن، مع كل ما كان له من علاقة شخصية بالرئيس عبد الناصر. لكن معاناته في السجن كانت من أسباب منافعنا. لأنه قضى فيه ايامه المؤلمة وشهوره المضنية وهو يلاحظ، ويفكّر، ويكتب. فكان من ذلك سلسلة طويلة من الرسائل، جمعت بعد حين في اربعة مجلدات كل منها يضمّ احداث سنة في السجن. ومضمون هذه الرسائل ممتع للغاية. وهي تحمل احكاماً مخزية بحقّ الدكتاتورية، والبيروقراطية، والترويع، وخسارة المواهب، وضياع الامكانات. وهذه جميعها يبدو انها تقترن ابداً بما يسمّى بالزعامة الديمقراطية الشعبية الأبوية، والديمقراطية الموجّهة،... الخ. لكن الذي يشوّه هذه الوثائق، واقع بسيط هو ان مصطفى امين كاتب عمود هزلي، لا مراقب سياسي. وهو كالجاحظ الذي قال عن نفسه إنه لا يستطيع كبتَ نكتة اذا خطرت له، ولو أدّت به الى الجحيم؛ فقد كتب يقول: «انا لا استطيع مقاومة النكتة ولو ادّت بي الى السجن». اما وصفه للحياة في السجن، في عهد عبد الناصر، فمحبوك بالكثير من المغامز والمآسي، بحيث يتعذّر على القارىء احياناً التمييز بين التاريخ والاسطورة. ومن حسن الطالع ان كتابي هذا ليس دراسة في احوال السجون، او في النظام الدكتاتوري، بل مجرّد بحث في موضوع الظرف. وهذا نموذج من رسائل مصطفى امين:

من القضايا التي معي قضية زائفة مزيّفة - اسمها: «قضية الحزب الشيوعي العربي». والمتّهم الأول فيها حكم عليه، قبل ذلك بسبع سنوات، بتهمة تزييف النقود. ثم لما رأى ان الحكومة تعيّن الشيوعيين في وظائف كبرى، وفي الصحف... ادعى انه شيوعي، لكن الشيوعيين قالوا إنّه مزيف نقود. وعبثاً حاول اقناعهم بأنّه انما زيف النقود ليخرب الاقتصاد المصري وتصبح مصر شيوعية.

وقد خطرت له فكرة... وهي ان يوهم المخابرات بأنه رئيس حزب اسمه: «الحزب الشيوعي العربي» وبأنّ الحزب يفكر باحداث انقلاب، واعلان مصر دولة شيوعية. وقد حرص على ان يبلغ هذه المعلومات الى زوج اخته الذي يعرف انه متصل بالمخابرات. وكان يتصوّر انه عندما تعلم الحكومة ذلك سوف تستدعيه فوراً وتعيّنه بمئتي جنيه شهرياً في «اخبار اليوم». وفرحت المخابرات بهذه الفرصة، واتفقت معه على أنْ يدّعي انه سيقوم بانقلاب لمصلحة الصين. وقبض عليه، وادّعى على ١٢٠ شخصاً انهم اعضاء الحزب. واعترف عدد منهم كذباً بأنهم اعضاء في الحزب، مع انّه لا يوجد حزب، وأنه في الواقع رئيس واعضاء وانصار هذا الحزب.

وقال لي بصراحة عجيبة: لو أنني قلت ان الحزب هو انا وحدي، لما اهتمّ بي أحد.

ولكن عندما ادعيت ان كل هؤلاء اعضاء معي، وانهم وزراء في الانقلاب، اصبحت شيئاً مُهمّاً.

وقد طلبوا منه ان يكتب قائمة باسماء الوزراء الذين قرر ان يؤلف منهم الوزارة عندما ينجح الانقلاب، واخذ صاحبنا يذكر كل انسان اساء اليه في حياته، وقرّر ان يعينه وزيراً.

وتذكّر ان موظفاً صغيراً في مجلس الفنون والآداب اسمه عدلي ابادير يتولّى احدى النقابات، طلب «الزعيم» منه ان يعيّنه مستشاراً لنقابة التجار، فاعتذر عدلي لأن «الزعيم» غير مقيّد في جدول المحامين. وهنا عاقبه الزعيم بان عيّنه وزيراً للثقافة. وجلدوا بعدلي وضربوه وعذّبوه، فاعترف بأنه وزير للثقافة في حكومة الانقلاب.

وتذكر أنّ اندراوس وكيل بنك الاسكندرية في الموسكي اختلف معه، فعينه وزيراً للاقتصاد. وقبضوا على شفيق وعذّبوه حتى اعترف بأنه وزير الاقتصاد. وتذكّر «الزعيم» ان محمد النشرتي، التمرجي بالقصر العيني، رفض مرة ان يدلّه على ممرض زميل له استدان منه جنيهين، فعيّن الممرض وزيراً للصحة. وقبضوا على النشرتي وعذبوه حتى اعترف انه وزير الصحة.

وتذكّر «الزعيم» انه تشاجر مع عادل سليمان المحرر بالجمهورية، فعيّنه وزيراً للاعلام. وقبضوا على عادل وانهالوا عليه ضرباً وركلاً حتى اعترف بأنه وزير الاعلام. وتذكّر ان انور زعلوك، صاحب مجلة «الحقائق» رفض ان يعينه محرراً في مجلته، فعينه محافظاً للوادي الجديد. واعترف انور تحت وابل من التعذيب الذي لا يحتمله بشر أنّه فعلاً محافظ الوادي الجديد. ثم تذكّر «الزعيم» ان شقيقته متزوجة من سامي سلام «الجرسون» بالأوبرج وان سامي «دون جوان» بين الراقصات، وأنّه يخون زوجته، فقرر ان يُعاقبه على خيانته لشقيقته فعيّنه وزيراً للخارجية في الانقلاب المزعوم. وقبضوا على سامي وضربوه وعذبوه وعلقوه حتى اعترف بأنه فعلاً وزير للخارجية في حكومة الزعيم.

ونشرت الدولة بالعناوين الضخمة نجاح الدولة في القبض على اعضاء الحزب الشيوعي العربي واعتراف قادة الحزب جميعاً بأنهم دبّروا انقلاباً للاستيلاء على الحكم. وان هذا الانقلاب لمصلحة الصين.

بلغ عدد الرسائل التي حررها مصطفى امين الى اخيه الأكبر احمد امين من سجنه زهاء تسعة آلاف رسالة، جميعها من هذا الطراز. وهو انجاز ادهش ولا شكّ حتى اخاه الكاتب المكثر. ذلك ان الكاتب السجين يخبر أنّ الطريقة الوحيدة التي ابقته حياً هي الضحك، ومواصلة الضحك. واستلهام ما لا يحصى من المقالب العملية. وان يكتب صفحات وصفحات من الدعابة والتهكّم. وفي جملة ما كتب وصف رائع للملك التعذيب وكلابه المدلّلة، فقد سئم منه يوماً رئيس مؤسّسة السجن، شمس بدران، وعاقبه

بحرمانه من متعة التعذيب. لماذا؟ ما الجرم الذي ارتكبه ليفقد امتيازه بجلد السجناء وتعذيبهم؟ حتى أنّه اضطرّ يوماً الى ان يخرّ ساجداً على ركبتيه امام رئيسه مسترحماً: ارجوك سيدي، دعني أعذّب هذا الشاب فقط!

«كان ملك التعذيب مؤتمناً على كلاب الجنرال البيسوني الأربعة، المدرّبة على التعذيب تدريباً جيّداً، وهي: ركس وعنايات وغولدا ولاكي. وكانت اوامر اللواء حمزة البيسوني تمنع من نشوء اية علاقة غرامية بين ركس وغولدا حرصاً على شرف عنايات زوجة ركس. وفي احدى الليالي أفاق السجناء على اصوات نباح وهراش. ذلك ان عنايات ضبطت زوجها ركس في وضع غرامي مع الكلبة غولدا. وارادت عنايات ان تحتج على هذا الفعل الفاضح في الطريق العام. ولم يُطِقْ العاشقان هذه الغيرة العمياء من الزوجة فهجما عليها، وصرعاها وهي تستنزل اللعنات على الأزواج الخونة الكلاب!! عندها أعلنت حالة الطوارىء في السجن، وحضر اللواء البيسوني الى صالون السجن، وجاء الضباط والجنود يقدّمون احرّ التعازي. وكان الرجل الذي لم تسقط من عينه دمعة واحدة حزناً على العشرات الذين قتلهم في التعذيب، يبكي على عنايات بكاء الأطفال. قال لنا احد الضباط: حظكم من السماء ان وقع الحادث ليلاً عندما كنتم في «الزنازين» فاكتفى اللواء بجلد كل من حراس الليل مئة جلدة! فصحنا بصوت واحد «تحيا العدالة!». ثم امتنع الكلب لاكي عن الطعام، وقال الطبيب انه مرض الشيخوخة، ونصح بقتله وهو نائم. وبكى ملك التعذيب على لاكي بكاءً مرّاً واعلن حالة الحداد... ودخل علينا احد الحراس وانهال علينا بالسوط وصاح بنا: ابكوا... ابكوا... يا اولاد الكلب! ابكوا على سيدكم لاكي... فاضطررنا ان نبكي على الكلب الذي طالما نهشنا بأنيابه وادمانا بمخالبه».

وهكذا فان مصطفى امين استمرّ فرحاً يعالج مشاكله بالهزل، لا يستثني منها فنون التعذيب التي مارسوها عليه بلا شفقة. والمناسبة الوحيدة التي ابكته، كما قال، كانت عندما وصفت امه بالزانية. ان عالم العرب، والحق يقال، عالم عجيب. فالرجل فيه مهما تلقّى من انواع التعذيب، فمن العار عليه ان يبكي. لكنْ اذا ذكر شرف امه بسوء، فعار عليه ان لا يبكي.

على أنّ اكثر رسائله طرافةً كانت تلك التي ارسلها الى اخيه في ٢٧ فبراير (شباط) ١٩٦٩. وكان قد تعرض لاشتراكات مرضية تعذّر عليه معها استخدام مستراح السجن. فاضطرّ الى ان يبتاع مستخدمة نقّاله خاصّة به، وان يكتري بعض صغار السجناء بالسكاير لافراغها (والسكاير تقوم في السجن مقام النقد النادر). لكن حاكم

السجن اعتبر المستخدمة من الأدوات الممنوعة في السجون واحتجزها. فكان على المسكين ان يتوسط اعلى المراجع في البلاد للافراج عنها. واليك نص الرسالة:

اخي العزيز.

اكتب اليك في يوم عيد الأضحى المبارك مهنئاً بالعيد، وازفّ اليك، في الوقت نفسه، خبراً ساراً جداً. فقد جاءت الموافقة على ان استعمل كرسي التواليت. وكانت هذه البشرى السارّة بمناسبة العيد السعيد وكأنها هدية عيد.

وفعلاً تسلمت كرسي التواليت بعد ان بقي مسجوناً في مكتب مأمور السجن ثلاثة اسابيع. يدخل الزائرون الى مكتبه ويسألون عن قصّته، فيروي لهم القصّة، ويقول لهم: انا في انتظار موافقة سعادة وزير الداخلية. واحمد الله ان مسألة التواليت «القصرية» لم تعرض على مجلس الأمن، ولم يتقرّر رفعها الى المشاورات الرباعية بين الدول الكبرى، او الى اجتماع القمة المنتظرة بين الشرق والغرب. وكنت طوال هذه الأسابيع اضع يدي على قلبي خشية أنْ تحدث ازمة عالمية كبرى فتتأخر الموافقة على اعادة كرسي التواليت الذي سحب مني.

وعندما عاد اليّ كرسي التواليت، حضر في زفّة، محمولاً على الأعناق، كأنه زعيم سياسي عائد من المنفى، او كأنه «بوتو» وزير خارجية الباكستان، بعد ان أفرج عنه الدكتاتور أيّوب خان. جاء كرسي التواليت يحمله اربعة عساكر، يتقدّمهم ضابط اركان حرب الليمان ولا اظنّ ان اية قصرية تستعمل للبول والتبرّز في انحاء العالم نالت مثل هذا التكريم والاحترام!

وعندما تسلمت «القصرية» في هذا الاحتفال الرسمي، طلبوا مني ان اوقّع على ورقة جاء فيها: «تسلمت الكرسي الخاص بالتبرّز والبول، بناءً على كتاب مصلحة السجون السرّي رقم ٢٩٠٢، الصادر في ٢٥ فبراير (شباط) ١٩٦٩، برقم ١٤٦٢ سرّيّ» وسألت الضابط الذي طلب مني ان اوقّع على هذه التعليمات، اذا كان في هذه التعليمات السّرّيّة، انه لا يجوز ان اجلس على هذه «القصرية» الا في حضور مدير الليمان، وقائد حرس السجن، او أنه يجب ان استأذن وزير الداخلية كلما اردت ان اجلس على كرسي التواليت. فقال لي الضابط «لا»، ثم تراجع بعد ذلك، ووعدني بأنه يعود اليّ بالتعليمات السرّيّة، ويخبرني بما يجب ان افعل.

واعتقد انني الوحيد في الجمهورية الذي استعمل قصريّة بخطاب سرّي، وباذن من وزير الداخلية. وقد مهر الخطاب، بعد توقيعه، بتوقيعات هامّة اخرى، وهذا شرف لي، لو تعلمون، عظيم!

٢٧ فبراير ١٩٦٩

ثم ان مصطفى امين اتبع رسالته هذه بالتعليق التالي:

«إنّ مدير الليمان اعتقد، لسذاجته، ان الافراج عن كرسي التواليت هو افراج عن كرسي السلطان. وقال لضابط اركان حرس الليمان: من غير المعقول ان يكون وزير الداخلية حرّر على اعادة التواليت اليّ، الا اذا كان استأذن اولاً سيادة رئيس الجمهورية، باعتبار التواليت من شؤون السيادة. وما دام الرئيس وافق، فمعنى هذا انه عطف جمهوري. فالمتفائلون من المسجونين اعتبروا الافراج عن كرسي التواليت بداية الغيث، وسوف يتبعه، الافراج عن السكاير التي تقرر منع دخولها الى المسجونين في الزيارة. ثم الافراج عن القلم والورق اللذين سُجبا من جميع المسجونين. ثم الافراج عن الصحف العربية التي مُنعت من دخول السجن، واصبحنا نهربها داخل السجن كالمخدّرات. والمتشائمون من المسجونين اعتبروا الافراج عن كرسي التواليت ظاهرة سيئة معناها أنّ كرسي التواليت الخاصّ بي، هو المسجون الوحيد الذي افرج عنه بمناسبة العيد»!

ومع ذلك، فقد سنحت لمصطفى امين اويقات توقف فيها عن الضحك، واخذ ينظر الى الأمور نظراً جدّيّاً، نفذ الى عقول السجناء، التي استأثرت بها مشاكل الزمان والمكان، بشيء من الوعي، اذ كتب مرةً الى اخيه يقول:

«... وامسِ حضر عسكري وضابط، وفتّشا غرفتي. وقد وجد العسكري ساعتي، وظنّ انه وضع يده على مخالفة خطيرة. واسرع بالساعة الى الضابط وهو يقول: «وجدتها». لكنّ الضابط قال ببرودة: ان هذه الساعة مسموح بها في المصلحة. فاعاد العسكري الساعة الى مكانها. وساعتي مشهورة، مثل ساعة الجامعة او ساعة محطة القاهرة، بين المسجونين. ولهذا فهم يعتمدون عليها في اوقات الصلاة، واوقات الفسحة، والأوقات المقرّرة لاغلاق الزنازين.

والحياة بغير ساعة مؤلمة جداً. ولقد عشت في بعض الأيام بغير ساعة. وكنت احاول أنْ أعرف الوقت «بالتشعلق» في نافذة الزنزانة، وسؤال السجّانين عن الوقت. وفي بعض الأحيان يلغي السجان كسور الساعة، فاذا كانت الساعة السابعة الا خمس دقائق، قال لك انها السادسة.

والساعة التي يفقدون فيها اعصابهم هي الدقائق السابقة لاغلاق ابواب الزنازين عليهم. فتجد كل واحد منهم يحاول ان يؤجّل اغلاق الزنزانة دقيقة، او خمس دقائق. ليتمتّع «بالحرّيّة» هذه المدة الاضافية القصيرة. صحيح انها حرية داخل عنبر السجن، الا ان المسائل نسبيّة. فهم يعتقدون انهم اكثر حريّة في ردهة العنبر منهم في الزنزانة. واحاول ان اقنعهم بأنه لا فرق بين الزنزانة وردهة العنبر، وبين حوش السجن، ما دامت كلها محاطة بالاسوار. ولكن من الغريب ان المسجون يشعر بالحرية عندما يخرج من باب الزنزانة، او عندما يفتح باب الزنزانة دون ان يخرج منها. فهو يكره الباب المغلق. وحتى لو فتح هذا الباب، وادّى الى باب مغلق آخر، او الى عدة ابواب مغلقة، فمع ذلك يتمنّى ان يبقى باب زنزانته مفتوحاً».

نستطيع أن نرى في مصطفى امين، كيف يكون الضحك، في كثير من الحالات، وفي العديد من الأمراض، علاجاً طبّياً ناجعاً. ونحن، لهذا السبب ربما، قلما نصادف شخصيات فكهة بين الذين يمارسون الطبابة. إذ لديهم علاجات اخرى لمحاربة الامراض، ولم يكن الضحك يوماً في جملة عقاقيرهم. إلا أن العراق ملأ هذا الفراغ، واعطانا نموذجاً بارزاً من هذا النوع من الرجال. وربما كان ذلك، إما لقلة الادوية فيه، او لعدم توفر العناية الصحية. فكل عراقي نال يسيراً من الثقافة العامة بإمكانه أن يروي لك طرفة من نوادر الدكتور فايق شاكر، الطبيب الاختصاصي بامراض العين.

إن حماقة البيروقراطيين في العالم الثالث، وضعت الدكتور فايق شاكر في مستوى جيلبرت وسوليفان، عندما دُعِيَ العراق الى المشاركة في حلقة دراسية عالمية في الطب النفسي، تعقد في مدينة فينّا، فرشّح العراق الدكتور شاكر ليمثله في تلك الحلقة. وعندما عاد، كان مما حدّث به بعض زملائه أنّ مكانه في الحلقة كان بجانب طبيبة فنلندية جرى لها معه، في فترة الاستراحة، الحوار التالي:

ـ ما آخر بحث كتبته؟ وما آخر مكتشفاتك في علم النفس؟
ـ آسف، انا طبيب عيون، لا اتعاطى علم النفس...
ـ طبيب عيون لا غير؟
ـ نعم، الى أن توليت تجهيزات الجيش العراقي.
ـ تقول انك تعمل في التجهيزات الحربية؟
ـ نعم، لكنني رفعت بعد ذلك الى حاكمية اقليم الكركوك، ومديرية حقول النفط.
ـ وماذا تفعل في الوقت الحاضر؟
ـ انني الآن امين العاصمة في بغداد. فَعَلا وجه الطبيبة النفسانية الاصفرار، وبدا عليها الاضطراب. ثم اخذت ورقة وكتبت عليها: «لطفاً... ادركوني... إن الرجل الجالس بجانبي معتوه، فارٌّ من مستشفى الامراض العقلية»! وارسلتها الى رئيس الحلقة.

إن الاحساس الدعابي الذي تميز به الدكتور شاكر، كما وصفه مواطنوه على الاقل، غزير فيّاض، ومشوب بكثير من البذاءة المعتادة في ذلك البلد. فقد كان رئيساً لمجلس ادارة الكلية الحربية، وكان يوماً يقابل المرشحين لدخول الكلية. فمثل امامه شاب مأبون. فطرح عليه السؤال المعتاد عن سبب رغبته في الالتحاق بالجيش.

وبدلاً من أن يعترف بأن السبب هو أن الضابط في الجيش العراقي يتقاضى ضعفي مرتب الموظف المدني المماثل، فضلاً عن قطعة ارض، وسيارة مجانية وقرض بلا فائدة، وزوجة تكاد تكون هي الاخرى مجانية؛ اعطى الجواب الزائف المعتاد: انه حبه لبلاده ورغبته في الدفاع عن وطنه. وكان الدكتور، في هذه الأثناء قد اطلع في التقرير السرّي عنه على انه مأبون. فقال له: تدافع عن وطنك ومساحته متي الف ميل مربّع من الموصل الى البصرة، وقد تعذّر عليك الدفاع عن سنتيمتر مربع واحد!

وكان بوصفه لواءً في القوى المسلحة يتفحص، في مناسبة اخرى، اعتراضاً لضابط صغير على قرار بعدم ترقيته الى رتبة كان يطالب بها. فنظر الدكتور المسنّ الى الملازم الشاب وهو قوي البنية، لائق البدن، مفتول العضل، وسأله:

ـ كيف انت والعمل الجنسي؟

ـ . . . .

ـ سألتك عن كفاءتك الجنسية جاوبني

ـ على ما يرام بحمد الله!

ـ على ايش اذن تطلب الترقية؟

ثم اقتلع عن صدره وكتفيه جميع الاوسمة والنجوم والشارات والقاها امامه على الطاولة وقال له: هاك. خذ هذي النياشين كلها واعطني «.. سلاحك»!

وفايق شاكر، كسواه من ارباب الظرف العربي، كثيراً ما لجأ في ردوده الى الامثال. مما أكسبه شهرة واسعة بين السياسيين وكبار شخصيات العراق. والحادث الطريف الذي لم يبرح ذهني، بعد مرور السنين الطوال، هو ذاك الذي جرى له مع المرحوم نوري السعيد. فقد التقى رئيس الوزارة وابرز زعماء العهد الملكي بفايق شاكر في دعوة عامة، وسأله عن آخر اخبار البلد. من يعارض؟ من يتآمر؟ من يتذمّر؟ ماذا يقول الناس؟ وهكذا. . . ولم يكن فايق شاكر ممن ينمّ عن رفاقه. فتفادى الاجابة بلباقته المعهودة. فقال له رئيس الوزارة: اي امين انت للعاصمة، إذا كنت لا تدري ما الذي يجري في مدينتك!؟ فأجابه شاكر: انا مجرد امين عاصمة، وصلتي بالسياسة، غير مباشرة. أما انت فرئيس وزارة ويفترض أنك تعلم كل شيء لأنك تتعامل يومياً مع الناس، وتقابلهم وجهاً لوجه. فحكايتي معك كحكاية عاشقَيْ خرنبات. فسأله نوري السعيد عن حكاية العاشقين. والحّ عليه بسردها فقال المحافظ:

حدث يوماً، في قرية خرنبات النائية، أن معلماً التقى معلمة فنشأ بينهما حب

جارف وتواعدا يوماً على اللقاء في البساتين حيث نالا حظهما من العناق والقبلات. فلمحهما القرويون المحافظون، وغضبوا لشرف قريتهم، واطبقوا عليهما واغتصبوهما. وعندما رفعا امرهما الى الشرطة جمع رجل الأمن كل من كان فوق التاسعة ودون التسعين، وجميعهم «بالدشداشات» القذرة والوجوه الكالحة والشعر الاشعث المغبّر بحيث ظهروا وكأنهم رجل واحد. فتعذر على المجني عليهما معرفة الجانين. وعندها قالت المعلمة للمعلم:

- قول انت ما تعرف منّو منهم عمل هالعمل؟

- انا أعرف؟! أنا جوني من ورا. لكن انت عيني اجوك من قدام وجه بوجه. انت لازم تعرفيهم.

فاستاء نوري السعيد من هذه الحكاية ومن مدلولها، ونقلها الى ولي العهد طالباً اقالة المحافظ. أما الامير فضحك لها ملء شدقيه، ولم يجد مبّرراً للاقالة!

جميع هؤلاء الظرفاء الذين قدمنا الحديث عنهم، نالوا حظًّا من الثقافة الغربية. واجادوا الفرنسية او الانكليزية بحدود معقولة. أما عبد العزيز بشري، وهو اشهر ارباب الظرف في العالم العربي الحديث، فلم يكن على شيء من ذلك، بل كان عميق الجذور، واسع المعرفة في فن الظرف العربي التقليدي، وصفه طه حسين بانه من نوادر الرجال الذين وهبوا شخصية خفيفة الظل، حلوة الطباع مرهفة المزايا. أما انه رجل دين وفقهٍ وقضاء، فالظاهر أنه اخذ ذلك، مع ميله الى الظرف، من ابيه. فقد كان هو الاخر شيخاً وظريفاً. ثم انه غذّى كيلسته وشحذ ميله الى الظرف عن طريق صلته بمشاهير الظرف واعلام الدعابة، من مثل جمال الدين الرمادي، ومحمد البيلي، وامام العبد. وقد وصف هذا الاخير بانه القصّاب الذي امتهن الصحافة، «فكانت الكلاب تتبعه، فصار هو يتبع الكلاب»!

وقد اشتهر والده ببداهة عجيبة. قيل كان مدعوًّا الى مأدبة. فرأى ظريف من رفاقه جبّته معلقة قرب الحمام، فرسم عليها رأس حمار. وعندما اراد الشيخ الانصراف رأى رسم الحمار على جبّته، فصاح بالحضور: من منكم يا سادة مسح وجهه بجبّتي؟ وكانت عِمّته كذلك مصدراً لنكتة اخرى. قيل اوقفه مرةً فلاح أمّيّ في الطريق وطلب منه ان يقرأ له رسالة. لكن الخط كان سيئاً للغاية، فرد الرسالة الى الفلاح معتذراً. فقال له الفلاح: كل هذي العمة والجبة وانت مش قادر تقرا سطرين جواب؟! فما كان من الشيخ إلا ان نزع عمامته عن رأسه، ووضعها على رأس الفلاح، وقال له: «أهوه! اقراها»!

لم يكن البشري سياسياً، ولم يورّط نفسه بالسياسة، لكنّ دعاباته ونكاته وتعليقاته كثيراً ما كانت تحمل غمزات خبيثة، وتلميحات سياسية خطيرة. ان العرب، بحكم افتخارهم بتاريخهم الغنيّ، وثقافتهم العريقة، كثيراً ما تذمّروا من انخفاض مستوى الاداريين والمشيرين الانكليز المفوّضين بتدبير شؤونهم وتوجيه تقدّمهم. وقد علّق محمد حسين هيكل تعليقاً جارحاً على هذا الوضع حين قال: «كل موظف انكليزي اضافي ارسل الى مصر يقوم بعمل ليس له فيه معرفة ولا خبرة. وهو مع ذلك، يتقاضى ضعف مرتب وظيفته. فيكفي ان يكون الموظف انكليزياً حتى يعلم كل شيء ويعمل كل شيء»! وهذا ادّى الى حكم العدل فيه هو المساواة في الظلم. ففي إبّان الاستعمار الانكليزي، زار عزيز البشري لندن، وقصد يوماً الى مركز البيكادللي ليمسح حذاءه. وعندما انتهى الماسح عمله ناوله جنيهاً وقال له: احتفظ بالباقي. فصاح به رفاقه غاضبين: كان يكفيه شلن واحدا! فمال اليهم واسرّ اليهم: دعونا نكسب ودّه، من يدري؟ لعل ماسح الاحذية هذا يعين عندنا قريباً مفتشاً للمعارف!

كثيرون من الناس يشبّهون الشيخ البشري ببرنارد شو الاديب الانكليزي الفكِه، ولعله اشبه بالجاحظ. فقد تأثر البشري بالجاحظ تأثّراً بالغاً، كما تأثر به سواه من ظرفاء العرب. والرسم الهزلي الذي رسمه البشري لاحمد زيور، لا يترك شَكّاً في هذا التأثر. كانت طريقة أحمد زيور في الظرف، برأي سعد زغلول، «تجعله اخطر من عبد الخالق ثروت، لأنه لا يُغْضِب الناسَ بل يحفز فيهم ملكة الفكاهة، ويقلب الأمر من الجد الى المزاح. وهم لا يكرهون ذلك بل قد يستمرئونه». وكان البشري يكره زيور شخصياً وسياسيّاً، فقرر ان يعطيه شيئاً من بضاعته، فوصفه وصفاً كاريكاتوريّاً قال فيه:

> ... أما شكله الخارجي، وأوضاعه الهندسية، ورسم قطاعاته ومساقطه الافقية، فذلك كلّه يحتاج في وصفه وضبط مساحاته الى فنّ وثيق وهندسة بارعة. وصاحبنا إذا طلعت عليه، ادركت لأول وهلة، انه مؤلّف من عدة مخلوقات، لا تدري كيف اتصلت. ولا كيف تعلّق بعضها ببعض. وانك لترى بينها النابت وبينها المختلج، ومنها ما يدور على نفسه، ومنها ما يدور حول غيره، وفيها المتيّس، وفيها المرخي المترهّل...
>
> ... واهل مصر يأخذون على زيور كلّه ما لا يحصى من الجرائم على القضية الوطنية. وانهم ليعدّون عليه ابتزازه لاموال الدولة، واستهتاره بمصالحها. ولكن من الظلم ان يؤخذ البريء بجريرة الاثيم، ومن العسف ان يعاقب المظلوم بجريمة الظالم. فقد يكون الذي اقترف كل هذه الآثام هو كوع زيور الايسر، او القسم الاسفل من المعدة، او المنطقة الوسطى من فخذه اليمنى... ان الحق والعدل ليوصيان بتأليف لجنة تقوم بعمل تحقيق مع صاحب الدولة تسأل اعضاءه عضواً عضواً، وتحقق مع اشلائه شلواً شلواً.

ولعل العضو الوحيد المقطوع ببراءته من كل ما ارتكب من الآثام هو مخ زيور. فيما احسب شارك ولا دخل في شيء من كل ما حصل.

... وزيور يحترم البرنيطة، حتى انه لا يردّ لحاملها طلب، فلقد زعموا ان بعض كبار علمائنا الاعلام، مصابيح الدجى وعمد الاسلام، بعدما اعياه الكدّ والجهد، وشدّة الطلب والسعي، وطول الوقوف بالابواب، في سبيل وظيفة خالية، عزم اخيراً على لبس القبّعة، لعله يحظى بمعونة زيور على منصب مفتي الديار او مشيخة الاسلام. ومولانا الشيخ المذكور اعلاه لا يعدم الف فتوى من الشريعة تحلّ له هذه الذريعة».

وسيامي آخر اغاظ الشيخ البشري هو الدكتور محجوب ثابت ـ رجل يعالج كل شيء ولا يتقن شيئاً ـ فقد تلقى يوماً دعوة من سعد زغلول هو وحافظ ابراهيم الشاعر الكبير والظريف البارز. فاخذ الطبيب يسرد على رفيقيه حلماً رآه خلاصته انه كان يركب جملاً تتبعه قافلة من الحمير، فاستوقفه احد عابري السبيل وسلمه رسالة... فسأله سعد اذا كان لديه تفسير لهذا الحلم فصمت، فقال حافظ ابراهيم: التفسير بسيط يا سيدي. الجمل مقعدٌ في مجلس النواب، والرسالة قرار بتعيينه وزيراً للصحة، والحمير؛ الناخبون الذين اوصلوه الى مجلس النواب!

أما الشيخ البشري فقد وصف الطبيب المتعجرف المدعي، بقوله فيه:

«... والدكتور بين المصريين كانكلترا بين الامم. كل منهما يرى عليه للآخرين تبعات لا تنقضي على وجه الايام. فإذا كان الكلام في النيل... تولّى الدكتور الكلام عن جمهرة المهندسين... وإذا كان عن الثورة تصدر الدكتور لجنة الوفد المركزية. وكلما قامت تظاهرة في البلد كان الدكتور زعيمها. وكلما ساروا بجنازة شهيد كان الدكتور اول المشيّعين... ولو فكرت طوائف الجرذان والسنانير، وجماعات الجعلان والصراصير في ان تتخذ لها نقابة، لتمثّل الدكتور محجوب ثابت فيها خطيباً، ثم استوى لها بفضل الله نقيباً...».

ولقد كان من الطبيعي ان تبادر اذاعة القاهرة، فور شروعها بالارسال، في الثلاثينات، الى الاستعانة بمواهب الشيخ البشري. فكان ما ادّاه اليها من اجود طرائف الظرف العربي. فحديثه عن «التأمين ضد الموت» لا يزال يتّصف بالجدّة التي ميّزته عندما اذيع، لا سيما والموضوع الذي عالجه قد اصبح اليوم اشدّ تعقيداً والصق بالوضع القائم مما كان قبلاً. ثم أن دخول المنهج الغربي في الاستهلاك الاجتماعي الى الشرق المتزمّت، مقترناً بروح المزاحمة في الرأسمالية الحديثة، أثار توقعات الناس وطموحات الطبقة الوسطى، ومكامن الغيرة فيها. فالشاب تعذر عليه الزواج الباكر، والشابّة لم تعد تقنع «بقسمة الله». وراح كلاهما يفتشان عن موارد اضافية، وصار الاثراء

المفاجىء معقد الآمال. فلا غرابة في ان يصبح هذا الوضع الصعب موضوعاً شائقاً لما يكاد لا يحصى من المسرحيات والروايات - المضحكة منها والمحزنة - والدعاوى والمناجزات. فوجد الشيخ من واجبه ان يتناول هذه المشاكل في احاديثه. قال في احدها تحت عنوان «التأمين على الموت»:

... لقد اعرض عن الزواج كثيرون من الشباب المثقفين، لأن مواردهم لا تفي بحاجاتهم الكثيرة الثقيلة في هذا الزمان. فإذا فكر احدهم بتحسين وضعه اتزن تفكيره بالتماس زوجة غنية تعينه بمالها على شأنه... فإذا لم يكن لها مال حاضر، فحسبه غنى الاب أو الام... ففي ميراثهما امل بالعون على موالاة السير في طريق الحياة...

... اعرف كثيرين من الشبان لم يقدموا فعلاً على عقد الزواج إلا بعد ان اخرج لهم الأحماء سندات املاكهم... وربما مضى احدهم في سرّ من اولياء الفتاة فاستخرج الشهادات العقارية الدالّة على خلوّ الاعيان من كل رهن... حتى يقبل مطمئناً على الزواج!.

... ولكن من الذي يضمن ان تقصر آجال هؤلاء الاحماء، ويعجّل المقدور بالرجاء؟ وما يدرينا لعل اعمارهم تطول حتى يقيموا هم المناحات على البنات وابناء البنات؟ واذن فينبغي ان يضاف الى الاطمئنان الى صحة عقود الملكية، الاطمئنان الى أن المورّث قد أسنّ وهرم، وتزاحفت عليه العلل من كل جانب، ليضمن العريس ان أيام حيه... اصبحت - إن شاء الله - معدودة!

... اعرف رجلاً واسع الغنى، ذا وقار ودين، له بنت اوفت على غاية من الجمال والرشاقة وحسن الادب... تقدم شابٌ موظف في الحكومة لخطبتها، ورضيت الام في سرٍّ من بعلها باخراج اسانيد الملكية له. وبعد فحص السندات والاطمئنان الى انها نظيفة... صرف سعيه الى تفقد صحة حيّه العزيز... فجعل للخادمة جعلاً على ان تريه مناديل الرجل فيعلم منها إذا كان عليها آثار دم من نفثات صدره فلم يجد. ولكن الا يموت الناس بغير السل؟ إن السكري والزلال هما أيضاً من حبائل عزرائيل... ولكن كيف السبيل الى تحليل الدم والبول دون ان يعلم؟

وبعد أن يذكر الشيخ البشري ان الرجل اكتشف محاولة الشاب التأكد من قرب وفاته قبل أن يوافق على اتمام عقد الزواج، وطرده وزوّج ابنته الى قريب لها، عاد الى معالجة مشكلة الزواج فقال:

إذن لم يبق إلا حلّ واحد لهذه المشكلة الاجتماعية... حلّ يستدرج الشبان الى الزواج... ويفسح في النظام الاقتصادي. ويضيّق من مجال العطلة في البلاد... وهو أن تؤسس في مصر شركات للتأمين على الموت... تجري في معاملاته على عكس ما تجري عليه شركات التأمين على الحياة. واليك البيان:

يؤمن الشاب الخاطب على موت حميه الغني بمبلغ معين يؤديه هو للشركة عند موت حميه واستيفاء الارث، وذلك لقاء اقساط شهرية او سنوية تؤديها الشركة للشاب المؤمن. ويتفق على الاقساط بنسبة للمبلغ المؤمن عليه، ووضع المورّث الصحي. وبهذا النظام يظفر الشاب باليسر العاجل، وتضمن الشركة الغنم الآجل.

فهو يعتقد ـ مداعباً طبعاً ـ أن هذه البدعة في التأمين على الموت تحسم مشكلة العزوبة والعنوسة، وتقضي على معضلة البطالة والدعارة، وتجعل سوء التفاهم بين الاصهار والاحماء في خبر كان. . . !

وفي حديث آخر له عبر الاذاعة، سخر من عالم الاعلان بالاشارة الى عادة الصناعيين في الشرق الأوسط في اللجوء الى نشر صورهم في اعلاناتهم بدلاً من التنويه بمنتجاتهم. ثم استدرك فقال: ولِمَ لا؟ ألم يقل الله في القرآن الكريم: «لقد خلقنا الانسانَ في أحسنِ تقويم» (٩٥:٤). انه لم يقل ذلك عن المقاعد المريحة والاسرّة الوثيرة والطنافس الثمينة!

وكتب مرة عن احد الوزراء» في موضوع «المحسوبية» المستشرية في الدوائر الحكومية، يقول:

جاءه مرّة احد زملائه من الوزراء، فسأله ان يرقّي احد صنائعه، على أن يرقّي هو احد اقرباء هذا الوزير في ديوانه. فأدار الوزير الاول ذهنه الرياضي في الحسبة. فرآها تفرق ٢٤٠ قرشاً في كل شهر. فاشكل الامر وتعذّر الحلّ. واخيراً، بعد طول محادثات ومفاوضات، توسط احد الوزراء الحاضرين في الامر، على أن يزيد الوزير الثاني لقريب الوزير الاول مئتي قرش على مرتبه الشهري، وهي كل ما تسعه طاقته ويدخل في جهده. وبعد لأي، رضي الوزير الاول بهذا الحل، عتباً عند الله اربعين قرشاً كل شهر.

ولم يكن البشري سوى واحد من جمهرة من كبار الظرفاء وبلغاء الكتّاب. مثل ابراهيم عبد القادر المازني، وفكري اباظة، وعلي ادهم، وحافظ ابراهيم. ولقد كان من دواعي الاسف الشديد أن شعر حافظ ابراهيم الاجتماعي لم يتّسع لظرفه وخفّة روحه. لكن استمرار حرب الظرف بينه وبين البشري يشكل، ولا بد، فصلاً كاملاً في ادب العرب الدعابي. ففي رحلة كانا يقومان بها معاً تأخر حافظ يوماً في نومه صباحاً، فأيقظه البشري والح عليه أن يسرع باللحاق به، فأجابه حافظ:

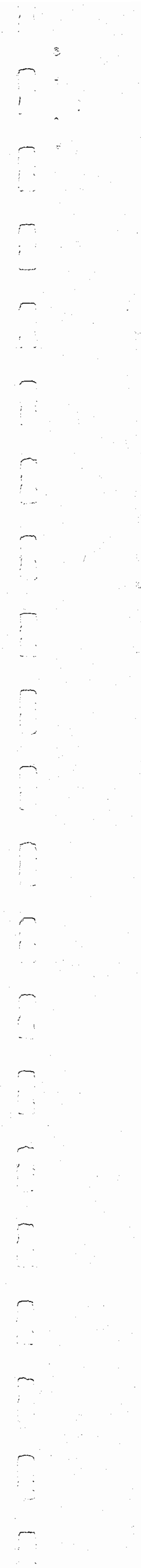
ـ اعطيني دقيقة اغسل وجهي.
ـ مفيش وقت. نفّضه.

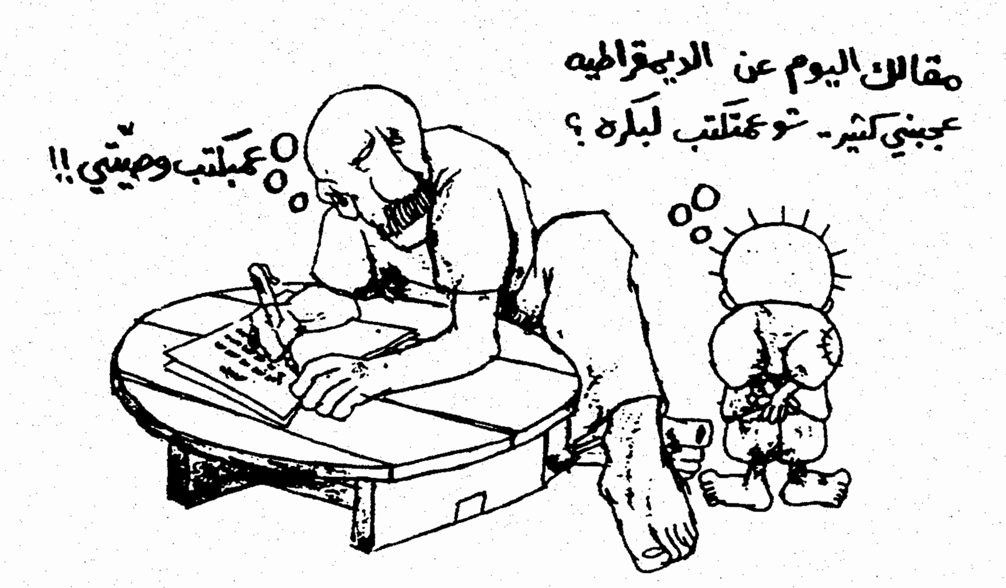
وتصادفا مرة في الشارع فحاول حافظ ابراهيم الثأر من زميله:

ـ اعوذ بالله، شفتك من بعيد افتكرتك ست.
ـ أهي دي الشيخوخة. أنا كمان شفتك من بعيد لكن افتكرت انك راجل.

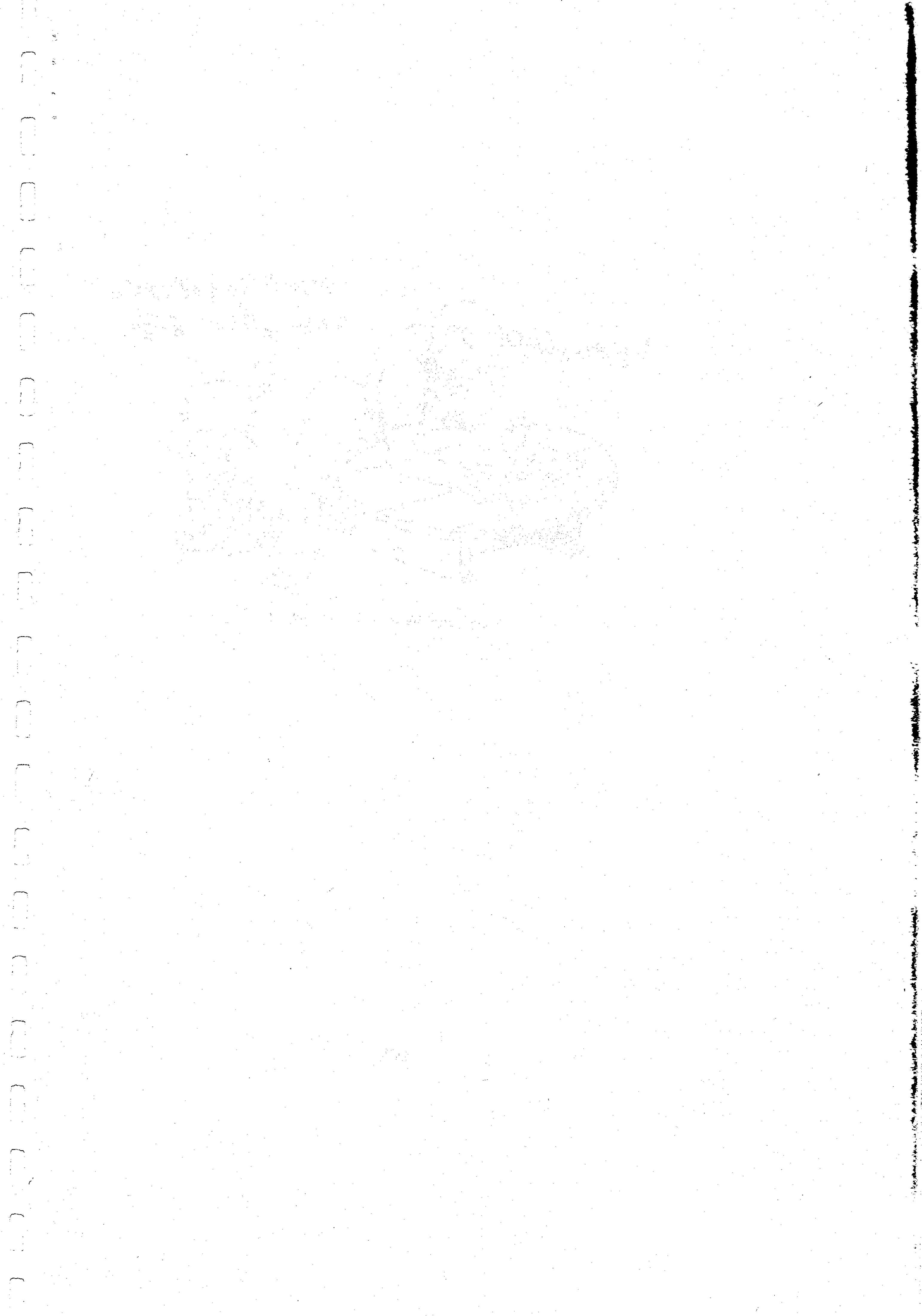
وتتجلّى كياسة حافظ وبراعة تلميحه في جوابه للخديوي عباس الذي اشتهر بالبخل. وكان قد دعاه الى الغداء وقدّم له طعاماً عادياً جدّاً. فسأله بعد الطعام هل سرَّ مما تناول؟ فاجابه حافظ: الواقع يا افندينا إنني شعرت كأنني اتغدّى في بيتنا... !

عاش الشيخ عبد العزيز البشري في زمن كان فيه الادباء احرار في العيش ـ نسبيّاً ـ كما يحلو لهم. فنشأت في عدد من العواصم العربية حلقات تضمّ الادباء يطلقون فيها النكات، ويناقشون السياسة، ويتداولون في احكام اللغة. ففي بغداد، كان ملتقى النخبة من الادباء المقهى السويسري، والمقهى البرازيلي، ومقهى الزهاوي (المقهى الذي تردد عليه الشاعر المعروف جميل الزهاوي). وكانت حانة انجلو ملتقى ظرفاء القاهرة من مثل البشري وعلي ابراهيم، وفكري اباظة. وكذلك كانت حانة اللواء ومقهى المتاتية لرجال العلم والادب. وكان لهم في بيروت ودمشق مقاهي عجرم والقزاز والبرازيل يجتمعون فيها لاغراض مماثلة. لكنْ سرعان ما هبّتْ رياح التغيير على الشرق الاوسط، فإذا المسلحون يحلون محل الادباء والظرفاء، وإذا الاناشيد العسكرية تنطلق منها بدلاً من الحان الطرب!





كاريكاتير ناجي علي في جريدة القبس الكويتية



الفصل الخامس

عصر التهكم والخيبة

كانت النكتة السلاح السرّيّ الهدّام الذي استخدمه المصريون ضد الغزاة وقوى الاحتلال، كانت المخرّب الذي خرق قصور الحكّام، واقتحم حصون الطغاة، فاقلق راحتهم وملأ قلوبهم رعباً.

كامل الشنّاوي

إن نهضة العرب الوطنية كانت وثيقة الارتباط بانطلاق حركة القومية العربية، التي كانت بدورها نتيجة لمقاومة الاحتلال الاجنبي. وكانت هذه المقاومة مباشرة ومكشوفة، تدور بالاكثر في نطاق الخطب الرّنانة. والاندفاع الوطني، والمناقشات الحادّة، والتحريض الديني. وحيث استعين بالظرف، جاء على سبيل المحاكاة الساخرة. وكان ابلغ مثال على ذلك نادرة مسمار جحا التي بنى عليها فكري اباظة مقالاً له ردّ فيه على اقتراح الانكليز بالانسحاب من مصر برمتها، شرط الاحتفاظ بقاعدة قناة السويس لا غير. قال الظريف المصري: لكن القاعدة هذه ستكون بمثابة مسمار آخر من مسامير جحا! ذلك أن جحا عرض بيته للبيع، واشترط في عرضه الاحتفاظ بمسمار في احد جدرانه. فلم يفطن الشاري لما يجرّه هذا الشرط وابتاع البيت. وبعد حين طرق جحا الباب واستأذن بالدخول ليطمئنّ على مسماره، فسمحوا له بالدخول. وفي ليلة عاصفة جاءهم يحمل لحافه، وطلب ان ينام تحت مسماره خشية أن تصيبه العاصفة بسوء. ولم يمضِ بعد ذلك طويل من الزمان، حتى عاد الى مقرّ مسماره بسريره وسائر ادوات مطبخه.

ولقد انتشرت هذه الحكاية في العالم العربي. واكتسب فيها مسمار جحا بُعداً

سياسياً، واصبح الجواب البليغ لكل دولة اجنبيّة تتشبّث بقاعدة لها في الشرق الأوسط. ثم عمد احمد بكثير، وهو اديب حضرموتي يقيم في القاهرة، الى تحويل نكتة مسمار جحا الى مسرحية هزلية حظيت بنجاح باهر. وبعد عام ١٩٤٥ انجرف بتيّار الكفاح من أجل التحرير، وحوّل معظم اهتمامه نحو استخدام المسرح الهزلي كسلاح سياسي. وتلقت بريطانيا هجوماً آخر في مسرحيته «امبراطورية بالمزاد العلني». على أنّ أقدم نماذج الادب المناهض للاجانب تولّى نشره الممثل الهزلي الريحاني، الذي لجأ في تهكمه من الاتراك الى نطقهم المكسّر بالعربية. فتبعه في ذلك الكاتب المسرحي، والقصصي الشهير محمود تيمور، وكثيرون سواه.

على أنّ إحراز الاستقلال كشف عن كثير من المتناقضات التي كانت مادة للظرفاء من اهل السخرية والتهكّم، واصبح اليأس من الامل المنشود ـ كما يفترض بسكال ـ دافعاً الى الضحك. أما الزعماء الوطنيّون، فقد اعتقدوا واقنعوا الناس، بأنّ جميع متاعبهم نجمت عن الاستعمار، وبأنّ كل شيء سيكون على ما يُرام عندما يستعيدون حرية التصرّف. وقليلون جداً من بينهم، مَن راودتهم ايّة فكرة عن المشاكل المستعصية، التي تجابه البلد المتأخر، المكبّل بقيود ماضٍ مجيد. فقد روى لي ناجي القشطيني، احد شعراء الوطنية الاولين، هذه الحادثة الحقيقيّة، التي هي في رأيه اول ظاهرة شؤم لظفر العراق باستقلاله الجديد، قال: فور احتلال الجنرال مود البريطاني لبغداد، اقام مركزين للشرطة العسكرية على ضفّة نهر دجلة امام مقرّ المفوضية البريطانية، من اجل الاقتصاص بالجَلْد من كل نوتيّ يجسر على مواصلة استخدام ضفاف دجلة الجميلة لتصريف مائه المبتذل، او يجعل من القطاع الموازي للمقرّ البريطاني مستراحاً عامًا. وهكذا غدا الاستعمار البريطاني شوكة في مثانة هؤلاء الملاحين المساكين. واخيراً ظفر العراق بنيل استقلاله، وفي اليوم التاريخي لاعلان الاستقلال، خرج السيد قشطيني والنواب والصحفيّون من المجلس، وتوجّهوا نحو مرفأ الرصافة ليبحروا منه الى الكرخ. وفيما المدافع تقصف ابتهاجاً، واولاد المدارس يصعّدون الاناشيد فرحاً، ارتفع صوت نوتيّ من جهة المقرّ البريطاني يدعو زميلاً له على الضفّة المقابلة بقوله: حمّاد... يا حمّاد... تعال نبول هنا... احنا صار عندنا استقلال.

لعل العرب اكثر الناس تفرُّداً في العالم. فقد كتب الجنرال غلوب مرةً يقول: إن ابرز ظاهرة في الشخصيّة العربية، ما زالت كما كانت في كل زمان، التمرُّد على السلطة، والكراهية الشديدة لها. لكنّ الذي يثير نقمة المراقب العربي اكثر من ذلك انما هو العجز البالغ، والفساد المستشري، والبلادة المتناهية التي تتّصف بها السلطة

الجديدة. قيل: جاء صبيح ممتاز، السياسي العراقي المعروف، رجلٌ يلتمس منه معروفاً، فقال بعد ان كشف عن مراده:

ـ ... ومهما يكن من امر فان لي بعض الحقوق في هذه الحكومة، فانا احد مؤسسي هذه الدولة...

ـ هل انت احد مؤسّسيها حقًا؟

ـ بكل تأكيد..

ـ إذن فاحني رأسك قدامي حتى انزع كندرتي. انا حالف يمين بس اعرف منو أسَّس هالدولة لازم اضربه الف كندرة على راسو.

وكما في المشرق كذا في المغرب، فاكثر العرب الذين زاروا الجزائر ـ وهي الدولة المغربية التي تعدّ ١٨ مليوناً من السكان ـ اصيبوا بصدمة كبيرة عندما سأل احد الزائرين من المشارقة: هل هذا البلد حقاً بلد المليون شهيد (يقصد شهداء حركة التحرير)؟ فاجابه المضيف الجزائري: كلا يا اخي، بل هو بلد الـ ١٧ مليون شهيد!

واغرب من ذلك وصف ابراهيم عبده لدولة لبنان المستقلة حديثاً، وقد سمّاها وردستان (بلاد الورد)، قال:

«... ما رأيت في حياتي «اشطر» ولا اذكى من ناس وردستان. فهم يعيشون في نظام سياسيّ فريد يرتكز على الدين. فلرئيس الدولة مِلّة، ولرئيس الوزارة ملّة أخرى. ثم توزّع المناصب، الكبيرة والصغيرة الاخرى، حسب المذاهب والاديان. وتمضي القافلة في ضوء هذا النظام الفريد، الذي لا تعرفه امة من الامم، ولا نظير له في اي مكان. ثم تجد في وردستان جماعات تناصر «نفاقستان»، واخرى تؤازر «شقاقستان»، وثالثة تدعو الى «توريطستان». وتمدّ هذه الدول تلك الجماعات بالمال لتنشىء المؤسسات الصحفية الضخمة، وتنشر الكتب والمطبوعات المختلفة تبشّر بمذاهب هذه الدول، وتقوم عند اللزوم بتأجير الجماعات للتظاهر في الشوارع. وتهتف للدولة التي استؤجرت للهتاف لها. وقد يتطور الامر بين المأجورين لهذه الدولة او تلك، وتحتدم المعارك بينهما فينزف الدم ويسيل، ويضطر جند الحكومة الى التدخّل لوقف المعارك واعادة النظام. وبهذه «الشطارة» نجح الصحفيون المغمورون، واثرى متعهّدو الجماعات المأجورة، وعملاء السفارات الثلاث. وبهذا الذكاء عمّ الرخاء وردستان!...

«وردستان» بورصة المنطقة في الاخلاق والتجارة، والصناعات الصغرى، والصحف والمجلات، وتزوير الكتب وبيعها بارخص الاثمان، وسوق مفتوحة للصادرات والواردات، وعالم مجنون للمال والطعام، حتى لتبلغ المشهّيات التي تسبق الطعام خمسين او ستين صنفاً، كل صنف منها يغنيك عن الطبق الأصلي...!

هذا البلد العجيب الغريب لا يمكن ان يكون له مثيل في دنيانا. فانت تدهش لنجاح بنيانه السياسي القائم على المذاهب والديانات، وتدهش لتفوّقه المالي وليس فيه انهار ولا خامات. وتعجب لاستقراره الاجتماعي، في الوقت الذي اجتمعت على حياته كل المخالطات. اذ له ميزانية بلا ميزان... إنّ المرور في شوارعه يستقيم في اطار من الفوضى التي بلغت حدّ النظام، وان القانون يسود بلا قانون. وانك لتسأل اهل وردستان: كيف استقام امرهم مع كل هذه المتناقضات؟ وإنك لتسمع اجابة واحدة: انها الحرية التي يفتقدها اكثر الجيران...!»

وفي رسالة طويلة مستفيضة كتبتها روزاليوسف بنفسها سنة ١٩٣٨ ووجهتها الى رئيس الوزارة المصرية، علي ماهر باشا، حشدت نقائص الحكومة الوطنية، جاء فيها:

«... وما الحزبيّة في مصر الا جمهور مرح صاخب، يجري في اثر فرقة موسيقية تعزف. واذا صحّ أنّ الجمهور قد يملّ العزف احياناً، لأنه يجري على نغمة واحدة، إلاّ أنّ هذا الجمهور يتطلّب العزف ليجري وراءه ويمرح ويضجّ. اما الموسيقيون العازفون، فلا يفترون عن العزف. ولا يستطيعون تركه، لانه همّهم الاول والاخير، لانه سبيلهم الى اكل لقمة العيش، ووسيلتهم الى التمتّع بقيادة الجماهير...».

ان المشاكل الهائلة التي واجهت الحكومة الجديدة الناشئة، وصفها الملك فيصل الاول احسن وصف، في المقدمة التي كتبها لكتاب ألّفه الحسني هو «تاريخ العراق الحديث» جاء فيها أنّه كان على رأس حكومة ولديها ١٥ الف بندقية، تبسط سلطتها على شعب بين يديه ١٢٠ الف بندقية.

اما رجال النخبة الذين زاروا اوروبا واميركا فقد كانوا من المثالية في تفكيرهم بحيث فاتهم أنّ «روما لم تبنَ في يوم واحد» فهم لم يتحسّسوا مدى المعاناة التي يقتضيها تحويل مجتمع أُمّيّ متخلّف، الى امة عصرية راقية. فقد شاهدتُ، في حانة عرفتها في بغداد قرب الباب الجنوبي، ثلاثة قرارات حكومية ملصقة على الجدار، فيها دلالة واضحة على وضع الامة الاجتماعي، هي:

- الغناء ممنوع بامر من أمين العاصمة.
- السلاح محظور بامر من الحاكم العسكري؟
- البصق ممنوع بامر من دائرة الصحة العامة.

وفي اثناء وجودي في الحانة، لما لا يزيد عن عشر دقائق، رأيت الاوامر الثلاثة تخرق. وفي زيارة لي الى القاهرة، شاهدتُ داخل «الترام» جدولاً اطول من الممنوعات، بينها:

- اذا دخلت سيدة القطار اعطها مكانك... لكنْ لا تتوقع منها ان تقبل عرضك.
- لا تبصق على ارض الحافلة، فالبصق دليل سوء التربية.
- لا تضع قدميك على المقعد لئلا يتّسخ.
- اذ واجهت امرأة فلا تزعجها بنظراتك او إشاراتك.

تقوم ما بين الدول العربية هيكلية طبقية يسخر فيها اللبنانيون من السوريين، والسوريون من العراقيين، والعراقيون من السعوديين وشعوب الخليج. ثم إنّ المصريين يهزأون بالسودانيين، والسودانيون بالصوماليين. وجميعهم يسخرون من اليمنيين باعتبار انهم اكثر امم الارض تخلّفاً. وذلك بشهادة الله نفسه - قيل ان الله ارسل جبريل الى الارض ليحمل اليه اخبار الامم وما بلغت من الرقي منذ خلقها. فدلّه على اميركا وحدثه عن ناطحات السحاب، وعالم ديزني، وعجائب هوليوود، وقال له هذه هي اميركا فدهش لما بلغته من التقدم، ثم اشار الى بريطانيا، ولفته الى شبكة الخطوط الحديدية، وأنفاق مناجم الفحم، واحواض بناء السفن وقال: وهذه هي بريطانيا، فكانت دهشته اشد واعظم. وتوجه بعد ذلك الى جنوبي الجزيرة العربية، وقبل ان يقول شيئاً بادره الله بقوله: انا اعرف هذا المكان. انه اليمن، فهو لا يزال كما صنعته!

ومن اخبار اليمن، ان عبد الله السلاّل، الرجل الذي خلع ملك اليمن، وانشأ جمهورية أقام نفسه رئيساً عليها، قصد الى القاهرة للمعالجة، فتسلمه احد ظرفاء مصر، ورووا انه مصاب بداء البواسير. وقد دخل مستشفى القصر العيني حيث عولج بالكيّ الكهربائي. وعندما سأله احد معارفه كيف كانت الجلسة الأولى؟ اجاب: اختبار جديد. فقد دخلت الكهرباء دبري قبل ان تدخل جمهورية اليمن! وقيل ان زائري اليمن اشمأزّوا من آثار البول في الطرقات العامة، ومنهم قائد الجيش المصري، عبد الحكيم عامر. فلفت رئيس جمهورية اليمن الى اهمية النظافة، ووجوب المحافظة على الآداب العامّة. فأجابه السلاّل: مثل هذه الامور تقع في كل مكان. وبعد حين زار السلاّل ثانية مدينة القاهرة، فاستقبله عامر في المطار، وفيما هما خارجان من مبنى المطار، شاهدا رجلاً يطلق ماءه في حديقة المطار. فقال رئيس اليمن للقائد المصري: انظر. إنّ عندكم مثل ما عندنا، ألم اقل لك كلنا سواسية؟ فغضب عامر وامر باعتقال الرجل، لكنه بادر الى اطلاقه فور علمه بأنه سفير اليمن في القاهرة.

ربما تأذّى كثيرون من العرب من سماع امثال هذه القصص، لكنّ نفورهم هذا

بالذات هو احد مظاهر هذا الوضع المضحك، اعني الامتناع عن الاقرار بواقع الحياة، وعن العمل على تضييق الشقّة بين هذا الواقع والتصوّر المنشود - واقع اعوام طويلة من التخلّف والفقر والاهمال. لكنّ كبرياء العرب تأبى الاعتراف بالتقصير والتخلّف. والعراقيون بالذات كثيراً ما يستشهدون على هذا الواقع الذي هم فيه، بقصة شائعة بينهم هي ان رجلاً من قبيلة شمّر طُرِح عليه السؤال المعتاد عن احوال قومه فاجاب: إنّ آل شمّر بالف خير، لا ينقصهم سوى الخام والطعام! ومن العقبات التي اعترضت جهود السياسيين والمصلحين، فخر ابناء المنطقة بتاريخهم وتراثهم، مما حال دون ادخال اي تغيير على احوال حياتهم. من ذلك ان محاولات الارساليات المسيحية والبعثات الشيوعية باءت بفشل ذريع في هذا الميدان. على ان احد المرسلين، تمكن بعد جهد كبير، من تنصير فئة قليلة من مسلمي المنطقة. وعندما زار مطرانه المرسلية متفقّداً اراد المرسل ان يظهر له مبلغ نجاحه. فأعدّ عظة للمناسبة تحدّث فيها عن عجائب السيد المسيح، فروى لرعيته كيف اقام المسيح أليعازر من الموت، فصاح الجميع: اللهم صلي على محمد!

ان حركة القومية العربية، من اولها الى آخرها، انجاز الطبقة المتوسطة، او بتعبير أدقّ: الطبقة الموصوفة بـ«المثقّفة». وابناء هذه الطبقة يأملون كسب المكافأة التي استحقّوها. ان العرب يأنفون من الاعمال اليدوية، ومن كل ما يتّصل بالعمل اليدوي. وما ورثوه عن آبائهم من احترام وخوف كانوا يكنّونه للحكام الأجانب ولكبار الموظفين، جعل من الخدمة في الوظيفة المدنية، في نظرهم، هدفاً منشوداً، لا سيّما في ظلّ الفساد والفوضى. فكلٌ منهم يرغب في ان يكون موظفاً. وسياسة التوظيف المضخّمة اصبحت تلقي بثقلها على صدور الناس، لوجود صفوف طويلة من الكُتّاب والمشرفين والمفتّشين لا عمل لهم سوى وضع خاتم الوزارة على اوراق لا يقرأونها. روى لي احدهم ان موظّفاً جديداً جاء رئيس دائرته ليتلقّى منه تعليمات بشأن عمله الجديد، وكان هذا الموظف مخصياً بعملية جراحية حسب التقرير المطروح امام المدير. فقال له المدير:

- الدوام يبدأ كل يوم في الساعة التاسعة وعليك ان تحضر في الساعة الحادية عشر.

- ليش استاذ؟ الدوام تقول ساعة تسعة؟

- نعم. الدوام ساعة تسعة والموظفون يحضرون الساعة تسعة ويبقون يلعبون ببيضاتهم للساعة الحادية عشرة. انت ما عندك بيضات، عليش تجي بكير؟

في عام ١٩٧٧ تناولت الصحافة فضيحة الرياضي الذي ارسل الى بانكوك

للاشتراك في سباق الدراجات، مصحوباً باثني عشر موظفاً للاهتمام به. ومع انه جاء اخيراً في السباق، فقد احتجّت الصحافة لأنها لم تكلّف بتعيين مرافقين له من قبلها!

إنّ جامعة الدول العربية التي تعجُّ بالموظفين، وتحفل بالسياسيين، ممن توفدهم حكوماتهم لعدم حاجتها اليهم، تمثّل اسوأ ما في العالم العربي. حتى ان هيكل لم يجد ما يصفها به إلّا قوله: انها نكتة مؤذية لكل ما هو عربي. فقد حدثني صديق لي يعمل فيها، واصفاً الجوّ العامّ، قال: عندما تزورنا تجدنا جميعاً نغطّ في النوم. لكنك قد تفاجأ يوماً ما بهرج ومرج، ويتدافع الموظفين يحملون الملفّات، ويجرون في كل اتّجاه، وهو مؤشّر لتوجّه بعثة الى مكان ما للدفاع عن قضية عربيّة، والكلّ يحاول ان يقحم اسمه في جدول اعضاء البعثة. فاذا انجز الجدول، عاد الجميع الى النوم.

وفي عام ١٩٦٦، اطلق الامين العام، السيد حسُّونة، نكتةً مماثلة بشأن عمل الجامعة العربية، قال: يكفي ان تتوقّف الحرب في اليمن، وتستقيم العلاقات المصرية ـ السورية، ويستقرّ الوضع الداخلي في سورية، ويتحقّق التقارب بين العربية السعودية ومصر، وتصفّى العداوة بين مصر والاردن، وتزول مشاكل الحدود بين المغرب والجزائر، ويعود الهدوء الى جنوبي السودان وشماليه، ويزداد اهتمام تونس بالعلاقات العربية... يكفي هذا فقط... حتى تبلغ جامعة الدول العربية أوج عصرها الذهبي!

بعد ان زار انور السادات مدينة القدس، نُقل مركز جامعة الدول العربية من مصر الى تونس، فتوقّع التونسيون ان يكون هذا التحوّل صفقة رابحة لصناعة السياحة التونسية. رُويَ ان احد التونسيين كان يوماً جالساً امام مبنى الجامعة وفي حضنه بوق، فرآه صديق له وسأله:

ـ ماذا تعمل بهذا البوق؟

ـ هذا عملي الجديد، انتظر صدور قرار الوحدة العربية لاعلنه بهذا البوق على دول العالم.

ـ وكم تتقاضى على هذا العمل؟

ـ خمسين دولاراً في الشهر.

ـ هذا مرتب زهيد للغاية، فكيف ترضى به؟

ـ نعم انه زهيد لكن هذي وظيفة مضمونة الى الابد.

وتحت عنوان: «برسم دولة الموظفين» كتب الصحفي اللبناني عادل مالك، يصف انجاز حكومة بلاده، بقوله: إنّ عدد ايام السنة، في اعتبار دولة الموظفين، ٣٦٥ يوماً

يسقط منها ٥٢ يوم احد عطلة للمسيحيين، و٥٢ يوم جمعة عطلة للمسلمين، و٣٠ يوماً اجازة رسمية، و٢٠ يوماً اجازة مرضية، و٢٠ يوماً اجازة سنوية، فيبقى من السنة ١٩١ يوماً تمنع فيها المراجعة قبل الساعة الحادية عشرة صباحاً وبعد الساعة الثانية عشرة ظهراً.

يظنّ البعض ان تأثير هؤلاء الموظفين في حياة الناس تافه للغاية. لكنّ الواقع ان اصحاب المصالح لا يذوقون طعم النوم المنيء، قبل القدوم الى مكاتب الموظفين! ذلك ان خاتم المعاملات قد يكون مفقوداً، او مكسوراً، او محفوظاً في الخزنة المقفلة. او أنّ المحاسب قد نسي رقم الحساب. وكثيراً ما تسمع أمًا تتحدّث عن خطيب ابنتها مفاخرةً، أنه كاتب من الدرجة السادسة، وأنّ مرتبه ٢٠ جنيهاً في الشهر، لكنه يربح فوقه ٨٠ جنيهاً بصورة رشوة. وقد كتب محمد التابعي، في جريدة الاهرام ١٩٣٤، عن العبء الذي تتحمله البلاد من جراء سياسة التوظيف، يقول:

«أروني بلداً كمصر لا يصاب فيه وزير بصداع او بزكام، الا وتنشر الصحافة خبر الصداع او الزكام، مع الدعاء الى الله، الشافي المعافي، ان يعجّل بشفاء الوزير المزكوم. أروني بلداً كمصر لا يقوم فيه موظّف باجازة الا ورافقته السلامة في الحل والترحال، ولا يعود من سفره الا ليستأنف اعماله بما عُهد فيه من الهمة والنشاط. أروني بلداً كمصر لا يموت فيه موظّف حتف انفه الّا ذكرت الصحافة ان الموت نقّاد على كفّه الجواهر. اروني بلداً كمصر لا ينقل فيه موظّف من بلدة الى بلدة إلّا وتعلن الصحافة ان الموظّف يخلّف وراءه نفوساً اجمعت على حبّه واحترامه، نظراً لما اتصف به من علوّ الهمة والعدل والقسطاس ومكارم الاخلاق. أروني بلداً كمصر تؤلّه فيه الصحافة الموظّفين، وتسوق اليهم المديح، وتكيل لهم موازين الاعجاب»!

ومما يدل على مقدار حب الفقراء للموظفين انهم عندما مات حصان الحاكم مشوا جميعهم في جنازته، لكن عندما مات الحاكم نفسه لم يسر احد وراء نعشه. وهنالك نادرة سمعتها في عددٍ من البلدان العربية خلاصتها ان رجلاً كانَ يصيح باعلى صوته: حكومة حرامية؟! فاعتقل وجيء به الى القاضي فسأله:

- هل صحيح انك قلت عن الحكومة انها حكومة حرامية؟
- نعم، لكنني ما قلت حكومتنا.

فسأل القاضي الشرطي الذي اعتقله:

- هل ما يقوله الرجل صحيح؟
- نعم، ما قاليش حكومتنا.

ـ وما الذي جعلك تعتقد انه يقصد حكومتنا؟
ـ مفيش حكومة حرامية في الدنيا غير حكومتنا.

كان من حسن حظ هذا الرجل أنّ القاضي الذي تولّى قضيته وعاها جيداً. ففي نوادر كثيرة اخرى نرى القضاة لا يعيرون المرافعة انتباههم. فقد سأل احد الاساتذة طلابه عن مرض النوم: هل هو محصور في افريقيا؟ فأجابه احدهم: كلا. يا سيدي فان القضاة في المحاكم المختلطة هم ايضاً مصابون بمرض النوم! ولاحظ محامي الدفاع في مرافعته ان القضاة يتهامسون. فاوقف دفاعه وقال لهم اكملوا مشاورتكم. فأجابه رئيسهم: انت اكمل دفاعك فنحن نتكلم في موضوع آخر! لعله موعد مأدبة!!

حصيلة هذا الوضع وافرة للغاية، والحقيقي فيه مشوب بـالملفّق، والمضحك بالمبكي. والمستمع كثيراً ما يقع في حيص بيص من أمره. فهل صحيح ام من قبيل التخريف ان معلّماً شبه أمّيّ اسرع الى عمه وزير المعارف وسأله: هل صحيح ان التفتيش سيفرض على المعلمين امتحاناً لتقرير صلاحيتهم للمهنة؟ واذا صح فما مصيره وهو امّي؟ فأجابه عمه الوزير: لا بأس عليك سنعيّنك عضواً في اللجنة الفاحصة؟!

وهل صحيح ان ممثل احدى الشركات الاجنبيّة عرض عليه كبير المهندسين في مراكش الف دولار مقابل عقد تعهّد يخصّه به، وان ممثل الشركة نقل الخبر الى الوزير فغضب وقال: لا يحق للمهندس منح التعهدات، اعطني الفيّ دولار وانا اضمن لك التعهد، فنقل ممثل الشركة هذا الخبر لنائب في المجلس فقال: هذا امر مخزٍ لا يحق للوزير القيام به، اعطني خمسة آلاف دولار وانا اخصّك به، وعندما حدّث ممثل الشركة رئيس الوزارة في هذا الامر قال له: انا أحلّ مجلس النواب وادعو الى انتخابات جديدة اعطني عشرة آلاف دولار وخذ التعهّد!

ولمواجهة مثل هذا التجاوز الفاضح، وضعت السلطة سلسلة من التشريعات والتدابير والاوامر العسكرية حظّرت بها التقدّم بأيّة شكاية، مهما كانت صغيرة.

المكوث في السجن غدا جزءاً من حياة كل صحفي. بل ان هذا الوضع ادّى الى نشوء عمل جديد في مصر، في غضون الثلاثينات، أطلق عليه اسم «محرّر السجن» وهو ان يؤتى برجل لا يملك الصحيفة ولا يحرر فيها، ولا يقوم بعمل من اعمالها، ما عدا ان يكتب اسمه في صدرها انه المحرّر المسؤول. ومهمته ان يذهب الى السجن متى صدر على المجلة حكم بالسجن. مما ترك للمحرّرين الفعليين حرية كتابة ما يشاؤون.

وقد نظم الشاعر العراقي الاجتماعي الكبير، معروف الرصافي قصيدة يرثي فيها حرية التعبير عن الرأي قال:

يا قومُ لا تتكلّموا إنّ الكلامَ محرّمُ
ناموا ولا تستيقظوا ما فازَ الا النوّمُ
وتأخّروا عن كل ما يقضي بان تتقدّموا
ودعوا التفهّم جانباً فالخيرُ ألاّ تفهموا
وتثبّتوا في جهلكم فالشرُّ ان تتعلّموا

* * *

واذا ظُلمتم فاضحكوا طرباً ولا تتظلّموا
واذا أُهنتم فاشكروا واذا لُطِمتم فابسموا
إنْ قيل هذا شهدكم مُرٌّ فقولوا: علقمُ
او قيل ان نهاركم ليلٌ، فقولوا أظلَمُ
او قيل ان ثمادكم سيلٌ، فقولوا مُفعَمُ
او قيل ان بلادكم يا قومُ سوف تُقسّمُ
فتحمّدوا وتشكّروا وترنّحوا وترنّموا

اشتهر معروف الرصافي بكرهه الشديد للاسرة المالكة في العراق. وما ان سمع بادعاء الملك فيصل الاول بأن الجيش العربي تحت قيادته هو الذي حرّر سوريا من الاتراك، حتى هجاه ساخراً فقال:

بسيفك ام بسيف الانكليز فتحت دمشق الشام يا... ي

وكان الرصافي بذيئاً في اقذاعه ضد الملك فيصل الاول ومن ذلك قوله في نظامه:

ابلاط ام لواط ام ضراط ام مليك بين المخانيث محاط!

وكلمة «المخانيث» كلمة مؤدبة اضيفت فيها بعد محل الكلمة الاصلية النابية من وزن مفاعيل. كان الرصافي كمعظم ادباء بلده في تلك الفترة شجاعاً غير هياب. وجعل الملك يبذل كل شيء لنيل وده. وفي احدى الولائم التي دعاه اليها، انتهز فرصة وجود الشاعر فحاول تأنيبه على ما كتب فسأله، «أأنا يا معروف ذلك الرجل الذي تقول فيه (يعدد اياماً ويقبض راتباً)»؟ فأجابه الرصافي، «عسى الا تكون»! وعندما

هرب الامير عبد الاله بطائرة بريطانية من بغداد في عشية حركة رشيد عالي الكيلاني في ١٩٤٠، سارع الى نشر قصيدة يحتفل فيها بالمفاجأة ويقول:

لاذوا بأجنحة العدو فما همُ   الا الذباب قد استطار مطنطنا

ان التنكيت على الرقابة، الرسمية منها أو التحريرية، شائع في جميع البلدان، لكنه في بلدان الشرق الأوسط بلغ حدود المحال. حتى الاحتفال التذكاري السنوي الذي يقام في ذكرى استشهاد الامام حسين بن علي في القرن السابع، اعتبرته السلطة في البحرين مبعثاً للخطر، فابلغ الشرطي شيخاً من الفقهاء ماذا يجوز ان يقول، وماذا يجب ان لا يقول. لقد منع من القول ان الامويين هم الذين قتلوا الامام لئلا يستفزّ السوريين، وان السنة او الشيعة افتعلوا ذلك لئلا يسيء الى الوحدة الوطنية. ولا ان يتهم بقتله المسيحيين لئلا يثير التمييز الديني، ولا اليهود لئلا يعتبر الصهاينة التهمة موجهة ضد الساميّة، وهكذا...! فالتفت الشيخ الى الحاكم وسأله: هل يسمح لي بأن أقول إنه صُعِق بتيّارٍ كهربائي ومات؟!

ولقد جرت لي حادثة اقرب الى الواقع عندما مثّلتُ مجلة «شؤون عربية» التي تصدرها جامعة الدول العربية. فقد كانت التعليمات التي وجّهت الي ان المحررين يجب ان يتمتعوا بحرية مطلقة في قول ما يشاؤون عن العالم العربي، الا ما فيه نقد أو طعن في احدى الدول العربية الاثنتين والعشرين!

اصبح السكوت طريق المواطن للسلامة. وغدا من المألوف ان تسمع عن نكبات تحل بشخص ما فيفقد وظيفته ويقلعون اظافره ويجزّون شعر بناته وينقضون وضوء زوجته. فتتساءل ما الذي فعله هذا الرجل؟ فيأتيك الجواب مختصراً بكلمة واحدة. يقولون لك انه كان «يتكلم». كذا كان الحال داخل البرلمانات وخارجها. التقى اثنان من مجلس الشورى في مصر فسأل احدهما الآخر: «انت ما فتحتش بقك طول الجلسة ليه؟» فأجابه زميله: «ازاي تقول كده، وانا ساعتين قاعد أتثاءب»؟ وتعرض الشاعر العراقي محمد جواد الشبيبي لهذا السكوت المطبق الذي كان يخيم على بعض نواب المجلس:

ونائب ملأ الكرسي قلت له   لماذا السكوت تكلم ايها الصنم!
الحامل الرأس لم تسمع له اذن   والصاقل الوجه ما في صفحتيه فم
بم استحل من الأوطان راتبه   وفي السكوت قضت ايامه الحرم؟

ان قمع حرية التعبير عن الرأي، أوحت بأنواع اخرى من النكات تدور حول

سياسة «اخراس الناس». فقد كانت عقيلة انور السادات يوماً في احد المخازن الكبرى، فأفلت احد المساعدين امامها ريحه. فاغتاظت السيدة الأولى وصاحت به: «قليل الأدب»! فأجابها الشاب معتذراً معاتباً: سيدتي، رفقاً بنا.. لقد سدّ زوجك افواهنا، فهل تودّين انت ان تسدّي أدبارنا؟!

ان نظم الحكم التي تتابعت على العراق، كانت جميعها شديدة الحساسية ضد اية حرّيّة شخصيّة في التعبير عن الرأي الخاصّ. فقد روى الدكتور قتيبة آل شيخ نوري، بعد رجوعه من مؤتمر طبّيّ عقد في لندن، انه سُئِل في المؤتمر اذا كان اطباء العراق قد اضافوا شيئاً جديداً الى تراث اجدادهم العظيم في علم الطب، فأجاب: طبعاً، لقد اخترعوا مؤخراً جهازاً يستطيع ان يمرّ من أسفل البدن عبر الامعاء والمعدة، صعوداً الى الحنجرة، مروراً بالحلقوم، الى اللوزتين ليستأصلهما بالكهرباء. فقال له أحد المستمعين:

- ولكن لماذا هذه الدورة الطويلة؟ بإمكانه ان يصل الى اللوزتين بلحظة عن طريق الفم.

- صحيح... ولكن من يستطيع ان يفتح فمه في العراق؟

الا ان عضواً في احد الأحزاب السياسية العربية جازف بفتح فمه في احد الاجتماعات، والقى خطبة سياسية طويلة. وعندما فُتح باب الاسئلة نهض الرفيق عبّاس، وبعد الاشادة بمنجزات الثورة سأل عن سبب اختفاء البطاطا. فوعده امين السر بالاجابة في الاجتماع التالي. وفي الاجتماع التالي نهض احد الاعضاء، وبعد الاشادة بالثورة وانجازاتها قال: اريد ان اسأل عن امر تافه: اين الرفيق عباس الذي سأل عن سبب اختفاء البطاطا، فقد اختفى هو الآخر منذ ذلك الوقت؟!

النكتة السابقة مستوردة من روسيا، وقد احرزت في البلاد العربية انتشاراً واسعاً. لكن النكتة التالية التي شاعت في سورية يبدو انها مستوردة من الغرب. قيل ان اربعة من الضباط، هم: اميركي وروسي وبريطاني وسوري، تباروا فيما بينهم في السرعة التي يتمكن بها احدهم من اخراج سعدان من الغابة. فبدأ الأميركي، وباستخدام الأدوات الالكترونية، استطاع العثور على سعدان وتمكّن من إخراجه في ساعة من الزمان. واستعان الروسي بفريق من «الرفاق» المحليين وأخرج السعدان من الغابة بساعتين. ولجأ البريطاني الى اسكوتلانديارد في العثور على مقرّ السعدان وأخرجه في مدى ثلاث ساعات. اما السوري فدخل الغابة ولم يعدْ. فدخل زملاؤه الثلاثة للبحث عنه فوجدوه ينهال بالضرب على حمار مخطّط ويقول له: اعترف انك سعدان!

على ان الطابع الشرقي يبدو اوضح في النادرة التالية التي تروي حكاية رجل كان يؤدّي صلاته في هلة السنة الهجرية الجديدة. فعندما رأى هلال الشهر الأول من السنة رفع يده بنقوده، وأخذ يحوّلها من يد الى أخرى قائلاً وهو يدعو: اللهمّ يا مغيِّر الأحوال. غيِّر حالنا من حال الى حال. فقاطعه رفيق له بقوله: بل قل: الى حال احسن. فأجابه المصلّي: قولي «من حال الى حال» يفي بالغرض، لأنه لا يمكن ان يكون هنالك اسوأ!

كيف نستطيع ان نصف اسلوب الظريف العربي الحديث؟ الى جانب مجموع النكات والدعابات والنوادر، المستورد منها من اوروبا؛ غربيّها وشرقيّها، والمعرّب او المستنبط تحت تأثير التربية الغربية، فإن الأساليب القديمة تبقى هي البارزة. فالنكات اللغوية والقرآنية قد حافظت على شعبيتها، وكذلك النكات الجنسيّة، والظرف البذيء والأمثال السائرة.

ثم ان تحرير المرأة، وحرية النقاش بين الجنسين، مهّدا السبيل لعبور الجنس اللطيف، لا سيما زوجات الخصوم وقريباتهم، الى هذه المنطقة الحمراء أكثر من أي وقت مضى. فقد نشأت حول احدى الملكات الفواجر كثير من النكات البذيئة، منها انها جلست مرة وقد صالبت ساقيها، فقالت احدى ساقيها للأخرى: اين انتِ؟ لم اجتمع بك منذ دهر! ومن هؤلاء الفواجر زوجة رئيس دولة تعب من السياسة ففتح قلبه لزوجته، وراح يتغنى بحبّها القديم الباكر. ثم اقترح على زوجته الخروج في نزهة الى مكان في العراء كانا يلتقيان فيه. وفيما هما في وضع مريب انتهرهما شرطي الأخلاق. فقال له الحاكم: رحماك.. السترة! فأجابه الشرطي: انت لا بأس عليك. اذهب في حال سبيلك، لكنْ قل لي ماذا افعل بهذه الفاجرة، وهي تقصد الى هذا المكان كل يوم مع رجل جديد؟!

الا ان بعض الظرفاء الرحماء حصروا اهتمامهم في قصص عن الحيوانات، استنبطوها ورمزوا بها الى اغراضهم. فقد روى احدهم ان ارنباً سئم حياة الفقر في الريف، وسمع بما يستمتع به الدّبّ في السيرك من شبع وريٍّ فقام بزيارته:

ـ أهلاً بك ايها الأرنب الصغير!
ـ عجباً، تقول ارنباً؟ انني دبّ وانت الأرنب.

وبعد جدال طويل عقيم رفع الأمر الى القضاء. وجلس الأسد ليفصل في القضية، فطلب من كل من المتقاضين اوراقه الثبوتية. اما الدبّ فقد فوجىء بهذا

الطلب ولم يكن قد تهيّأ له. واما الأرنب فأبرز اوراقاً كان قد اعدّها، ممهورة بالتواقيع ومذيلة بالأختام، تشهد بأنه دبّ اصيل. فصدر حكم الأسد برفع الأرنب الى مقام دب. ويخفض الدب الى مرتبة ارنب. وحل الأرنب محل الدب في السيرك. اما الدب فراح يهيم على وجهه في البراري، حيث عرف من أهل الثقة ان الأسد الذي حكم في قضيته ما هو الا حمار اكتسب هوّية الأسد بأوراق ثبوتية مزيّفة، تماماً كما اكتسب الأرنب هوّية الدب.

وعندما جاء الظريف بحكايته هذه الى المحرر، خشي هذا ان يتنبّه الوزراء الى شخصياتهم في الحكاية، فأبدل بلفظة «حمار» لفظة «بغل» على انها اشرف... لكنّ الظاهر ان المحرر هو نفسه كان يعمل في الصحيفة بأوراق ثبوتية زائفة!

والشرقيون ، على ما يبدو، مصممون على اذلال الحمار في قصصهم كما في استخدامهم له. وهذا الاذلال يتجلى في الحكاية التالية:

كان تمثال محسن السعدون لعهدٍ طويل، التمثال الوحيد القائم في مدينة بغداد. فروي ان رئيس الوزراء، طاهر يحي، مرّ يوماً من امام هذا التمثال فرآه يبكي. فتوقّف امامه وسأله لماذا يبكي؟ فأجابه التمثال: لقد تعبت من الوقوف طوال هذه المدّة. ان جميع تماثيل الأبطال في العالم تجلس براحة واعتزاز على صهوات الخيل. فقط هنا يعامل الأبطال هذه المعاملة السيئة! فتأثّر طاهر يحي من وضع التمثال، ووعده بأن يحضر له حصاناً يقيمه عليه. ورفع هذا الأمر الى عبد السلام عارف، رئيس الجمهورية، مطالباً بانصاف التمثال. فسخر عارف من حكاية طاهر فدعاه هذا الى زيارة التمثال ليسمع ويرى ما سمع هو ورأى! وعندما اقتربا من قاعدة التمثال، صاح التمثال بطاهر قائلاً: انت وعدت ان تأتيني بحصان لا بحمار!

تمثال محسن السعدون يمثل هذا الزعيم واقفاً، رافعاً يده ليشير بأصبعه الى نفسه. وتساءل احد الظرفاء عن سر هذه الوقفة، فروى له زميله ان احد السكارى جاء ليلاً ورأى التمثال فسأله: «استاذ ممكن تدلني على المبغى العام؟» فرفع التمثال اصبعه الى صدره وقال: «ليش انا سمسار؟».

وبلغت الخيبة من الانظمة المحافظة (البائدة عند البعض والمبادة عند البعض الآخر) اوجها في هزيمة حرب ١٩٤٨ مع اسرائيل، بعد الكثير من الحماس والجعجعة:

آن الأوان يا أُسود النيل واشباله   آن الأوان والجهاد نادى على رجاله

آن الأوان والـوطـن سـلم لابـطالـه «السيف اصـدق انبـاء من الكتب»
ومن كلام الأمين العام وامثاله

ولكن لا الأشبال ولا الأبطال نفعوا في رد الهزيمة فعقدت الهدنة مع الصهاينة. علق احسان عبد القدوس في روز اليوسف على الواقعة قائلاً: «كان من الغريب بعد ذلك ان نعقد هدنة مع الذين رفضنا ان نعلن حرباً عليهم». وانبرى شاعر المجلة ليتولى دور الندّابة:

الأولة هدنة
والثانية هدنة
والثالثة هدنة.

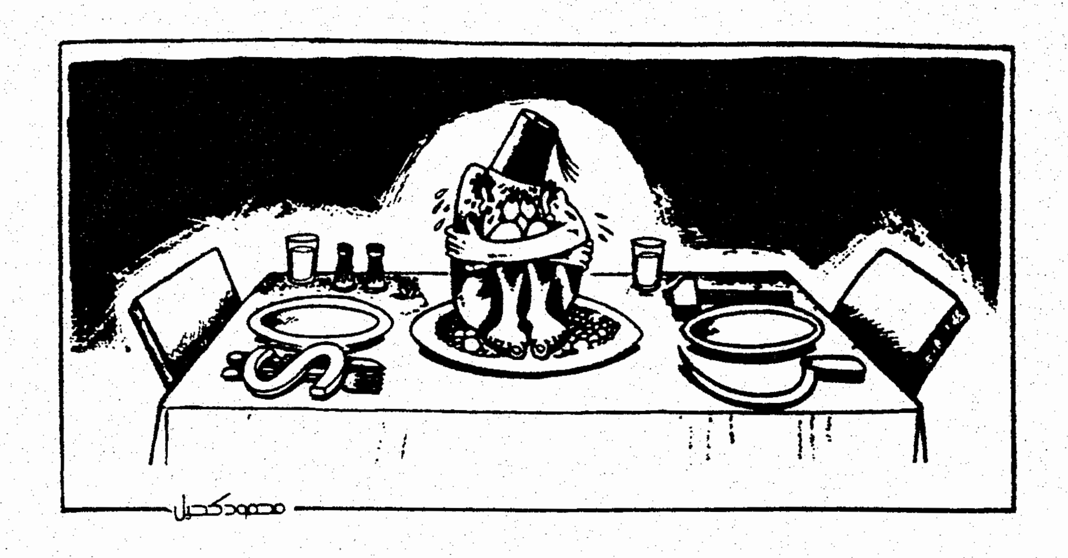
الاولة هدنة كم اسبوع قبلناها
والثانية لأجل برنادوت شربناها
والثالثة هدنة مخزوقة وسترناها

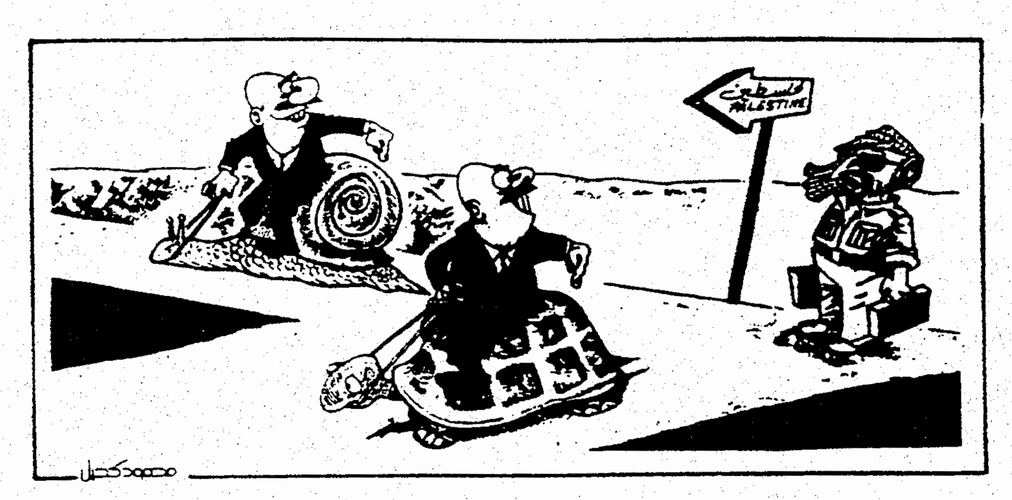
الاولة هدنة كم اسبوع قبلناها ـ قبول اشراف
والثانية لأجل برنادوت شربناها ـ وراخر شاف
والثالثة هدنة مخزوقة وسترناها ـ بألف لحاف.

الاولة هدنة كم اسبوع قبلناها قبول اشراف ـ وقلنا تفوت
والثانية هدنة لأجل برنادوت شربناها وراخر شاف ـ بعينه الموت
والثالثة هدنة مخزوقة وسترناها بألف لحاف ـ وبالنبوت.

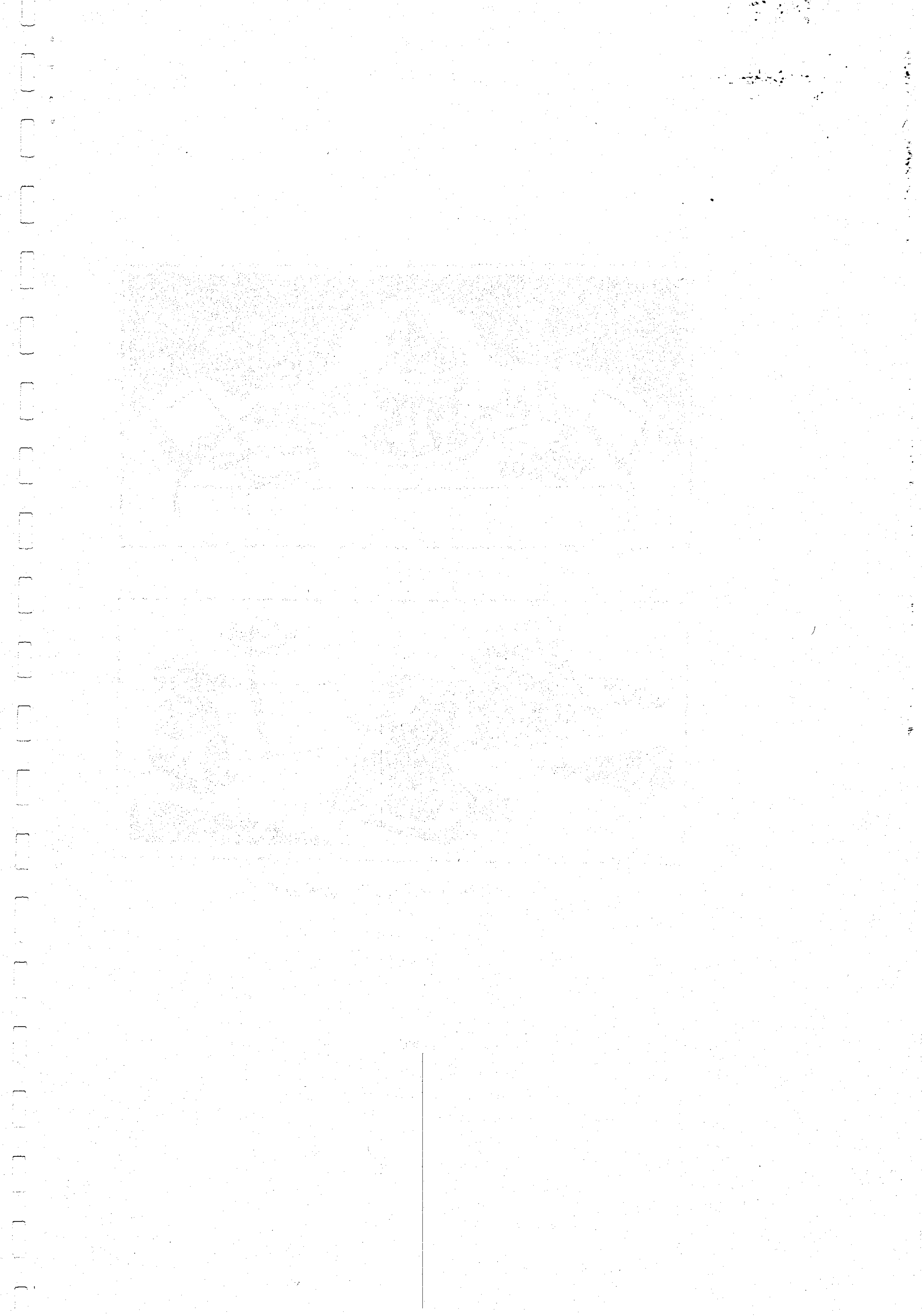
وبعد أن تمت الهدنة واستمرت بين العرب والصهيونية، ابتدأت الحرب واستمرّت بين العرب والانظمة القائمة، فتناولت المسرح حركات قومية جديدة، الناصرية من طرف والبعثية من طرف. واذ تصاعد نجم ميشيل عفلق، المفكر السوري المسيحي ومؤسس حزب البعث العربي الاشتراكي، اندهش واحتار الكثيرون من الخصوم السياسيين، والاصوليين والمتدينين المسلمين بوضعه التوفيقي بين الأديان والمذاهب، وبموقفه من الاسلام، وقيادته لجمهور المسلمين، وهو الرجل المسيحي الأرثوذكسي. ويقول خصومه السياسيون إنه يذكّرهم بحكاية البجع الذي كان يجثم كل يوم على جرس الكنيسة، ويترك عليه أكواماً من ارفائه. وعندما رفع كاهن الكنيسة امره الى مطرانه، اشار عليه ان يتحرّى عن دين البجع ليراجع رؤساءه الروحيين ليردعوه عن غيّه. فوضع الكاهن كأساً من الخمر قرب الجرس ليعلم اذا كان مسلماً. وعاد في اليوم التالي ليجد الكأس فارغة والجرس قذراً

كالعادة. فوضع له في اليوم الثاني قطعة من لحم الخنزير ليعرف ما اذا كان يهوديّاً، وعاد في اليوم التالي فلم يجد قطعة اللحم، ووجد الجرس قذراً، بعد ان كان قد نظفه في اليوم السابق. وكان اليوم الثالث يوم أحد فوجد الجرس قذراً كذلك! وباكره يوم الاثنين وصاح به: قل لي بربك ما دينك؟ فأنت لست مسلماً لأنك شربت الخمر، ولا انت يهوديّ لأنك اكلت لحم الخنزير ولا انت مسيحيّ لأنك تترك بلاد الله الواسعة وتقصد جرس الكنيسة لتخصّه ببرازك!





محمود كحيل، «الشرق الأوسط» ١٩٨٣/ ١٩٨٥



الفصل السادس

عصر ناصر الذهبي

الملك من هيبته ينشتم في غيبته

مثل مصري

لا ريب في أن انطباع القارىء يزداد تباعاً في أن مصر هي، بلا منازع، موطن الظرف العربي، وهو امر يسلّم به، ولا شك، جميع العرب، لكن بالامكان الذهاب الى أبعد من ذلك. فأنا يكاد لا يحضرني اي شعب في الدنيا ينغمس الى هذا المدى في الظرف، ويتعامل مع الحياة وكأنها اضحوكة، كما يفعل الشعب المصري، حتى ليكاد يتجاوز في ذلك حدّ الاحتمال. فتحويل اية قضيّة خطيرة الى نكتة، اية عبارة جديّة الى سجعة تافهة وألعوبة لفظيّة، انما هو في رأي أكثر الناس، أمر مزعج للغاية. فالمصري لا يتردد في أن يترك زوجته وأولاده وراحة بيته، ليذهب الى مقهىً حقير داكن، يطلق فيه النكات، ويستمع الى نظيرها، بالاندفاع نفسه الذي يحمل الرجل الانكليزي على مغادرة منزله وعمله، ليشاهد مباراة في كرة القدم!. لقد وصف الكاتب المصري الظريف ابراهيم عبده شعب بلده بقوله:

«انه شعب ضاحك، باسم، روّاح. انه أخفّ شعوب الارض ظلاً... فقد عاش ألوف السنين ونصف هذا الشعب يتساقط من البرد والجوع، ونصفه الآخر يطلق النكت والسخرية. وأحياناً تكون هذه النكت والسخرية اشدّ عنفاً من طلقات الرصاص».

ولئن كانت الكلمات الأخيرة موضوع شك ونقاش، فإن التهكم ربما كان بحق، السرّ الذي يكمن وراء قدرة هذا الشعب على البقاء. ان سجلّ الظرف المصري يمتدُّ الى ابعد مما يستطيع أي شعب آخر ان يتذكّر. كما تشهد لذلك التماثيل الهزلية الجبارة

التي تزيّن الآن مدخل متحف اللوفر. هنالك بسمة مطبوعة دوماً على محيًا آلهات مصر، وابتسامة على ثغور تماثيلها، ونكات مندمجة في صميم فن النحت، الالهيّ منه والدنيوي. فرسوم صغار الأشخاص الذين يسيرون في موكب مقدس بلا نهاية، الى العالم الآخر، يسيرون وكأنهم في غاية من المرح. والذي يكشف بصورة أوضح عن شخصية هذه الأمة انما هو اعتقادها العريق بأن العالم خلق من عدد من الضحكات المدوّية المتتالية التي انطلقت من فم الآله، وُجدت من أولاها طبقات الكون السبع. وسطع من ثانيها النور. وجرى من ثالثها الماء. . . وانبعث من سابعها الروح. ويقال في هذا الصدد ان الرومان منعوا المصريين من ممارسة القضاء في محاكم الاسكندرية، لأنهم اعتبروا ان تنكيت المحامين المصريين، ومرح طبيعتهم، يذهب بهيبة القانون، ويسيء الى حرمته. وبعد ذلك بقرون كثيرة، ذكر بعض الرحّالة والمفكرين المسلمين شيئاً من هذا القبيل. وهذا ابن خلدون، عندما يتحدّث في مقدّمته عن المصريين، يخصّهم بأوصاف الفرح والمرح والخفّة واللامبالاة.

ما الذي جعل من سكان وادي النيل شعبا كثير الظرف والمزاح؟ هذا هو موضوع تسلؤ ل كثيرين من الناس. اما انا فجوابي عنه ينطلق من فكرة الهروب أو «تخدير القلب» كما في تعبير برغسون. ان اعتماد المصريين في حياتهم على زراعة قوامها الريّ، في شقة طويلة وضيّقة من ضفة نهر واحد، أخضعهم في آن واحد لعاملي الأرض المحدودة والحاكم الأعلى الذي يفرض سلطانه عليها. والمعروف ان الزراعة تحتاج الى عدد كبير من العمّال، أي الى نسبة عالية من المواليد، استتبعت مقداراً كبيراً من المعانلة للفقر والمرض والعيش المأسوي. وإذ كان المصريّون محصورين بين رمال الصحراء وأمواج البحر، لم يجدوا مهرباً عبر الرمال والمياه. والى وقت متأخر، لم يتجهوا نحو الهجرة، شأن سواهم من شعوب المتوسط، فكان لا بد لهم من العثور على ضرب من الهروب الذهني يخففون به من وضعهم الخانق. فوجدوه في الاعتقاد الجازم بحياة اخرى، وفي ادمان المخدرات، واطلاق النكات. ولقد أوجز عباس محمود العقاد هذا التعليل بقوله: «إنّ المزاح والتديُّن هما توأما الشخصية المصرية». ونحن نجد دليلاً فعلياً على ذلك في حياة مصطفى أمين، وكيف قضى فترات العذاب الشديد في السجن، ايام عبد الناصر، باطلاق سلسلة متصلة الحلقات من النكات، وبتصعيد الابتهالات باسم الله. ولقد أصاب برغسون اذ قال: كما ان اللامبالاة هي الجو الطبيعي للضحك، كذلك الضحك هو ام اللامبالاة وابوها».

ان روح الاحساس الدعابي المصري لا يبرز في مكان من الحياة مثله في وسائل

النقل العامة. اذ فيها يتجلى طابع الحياة الشعبية، من ازدحام، وصخب، وقذارة، واستسلام، وخضوع. ولو كان ذلك في امة اخرى، تعيش في مناخ حارّ مماثل لشهدت محطات النقل يومياً مشاهد شتّى من اطلاق النار. لكن مثل هذا لا يقع في القاهرة. قال سائق سيارة نقل عامة لرجل يحاول دخول الحافلة من احدى نوافذها: اخرج، فإذا لم تفعل فلن اتحرك بالسيارة. وكان رأس الرجل قد استقرّ في حضن احد الراكبين، وقدماه تتدافعان في الخارج عندما قال للسائق: وانا اذا لم ادخل، لا تستطيع انت ان تتحرك بالسيارة، لأنني الكمساري! فضحك الجميع، وصاح ستون أو مئة من الركاب بصوت واحد «صَلّي عالنبيّ». ان النقل العام في القاهرة لا يعتمد على البترول ولا على الكهرباء، بمقدار ما يعتمد على الكلمات السحرية «صلّي عالنبي» التي تجمع ببلاغة مدهشة عنصرَيْ الشخصيّة المصرية: خفة الدم والتديّن.

من هذه الأمة برز جمال عبد الناصر، المواطن الغيور، ليقود الأمة العربية الى الحرية والكرامة والازدهار والاشتراكية. لكنّ تحقيق الآمال قصّر كثيراً عن انجاز الوعود المقطوعة. وبهذا الاخفاق في التوقعات، تهيّأ المشهد، كما في تعبير بسكال، لعصر مجيد من الظرف الكلامي. ومع ان عبد الناصر لم يكن من كبار الظرفاء بأيّ مقياس، ولم يكن، على الأرجح، ممن يتحملون النقد والمشاكسة، فانه كان يستمتع برياضة بلاده المحلية القائمة على تبادل النكات. فقد قيل إنه ألحّ على تسلّم تقارير يومية عن آخر النكات المتداولة عنه، وعن نظام حكمه. وكان لمصطفى أمين علاقة شخصية به. وكان في وقت ما صديقه وموضع ثقته، فقال عنه:

> «كان عبد الناصر حسّاساً للنقد. وكان يحتمل ان تَنْقُدَ تصرفاته اذا كنت معه على انفراد، ولكن الويل لك إنْ كررتَ هذا النقد امام غرباء، حتى ولو كان هذا النقد امام أقرب الناس اليه».

فإذا لم يكن احد في مجال السمع، فإنه يضحك ملء قلبه. كما فعل عندما شبه مصطفى امين مرافقي الرئيس براكب الأسد: يخيف الناس به وهو أكثرهم خوفاً.

كان عبد الناصر يعي ولوع قومه بالظرف، ويحترم روح المرح عندهم. قيل، عندما عاد يوسف السباعي من زيارة قام بها الى الصين، ووصف لناصر التضحيات والجهود التي يقدّمها الشعب الصيني من أجل بناء بلاده، لم ينفعل، واكتفى بالقول:

> «عندما اذكر عامل البناء وهو يضع القصعة على كتفه، ويصعد السقالة، وينشد اغنيته بمرح، أُحسُّ أنّ لا شيء يستحقّ أنّ يُسْكِت أُغنيته، او يضيع بسمته. لست من انصار تضحية جيل من أجل جيل آخر... نحن شعب نضحك ونعمل، ونغنّي ونعمل، ولا اتصور شيئاً هناك يمكن أن يحرم الانسان من اغنيته وضحكته»!

ومع ان عبد الناصر لم يكن سياسياً متميزاً بالظرف، فإن الدلائل كثيرة على انه كان موهوباً في هذا الاتجاه. من شواهد ذلك ان السير انطوني ناتنغ الذي عرفه جيداً، وغدا صديقاً حميماً له، وجد انه رجل لم يفارقه الاحساس الدعابي. ففي الكتاب الذي وضعه عن سيرة الزعيم المصري، يروي كيف ان قلمه فرغ من الحبر، واضطر الى استعارة قلم عبد الناصر، لتوقيع المعاهدة الجديدة مع مصر. لكنه في غمرة انسياقه بالحدث الخطير، وضع القلم سهواً في جيبه هو. فمد ناصر اليه يده وقال له بابتسامة عريضة: اعتقد انك اخذت مني في هذه المعاهدة ما يكفي، فهل لك ان تعيد اليّ قلمي؟. ومن الجدير بالذكر، أن الكاتب العربي المفضل عند عبد الناصر كان المؤلف المسرحي الهزلي توفيق الحكيم. وكان كاتبه الأوروبي المفضل فولتير. وكان في حداثته قد كتب عنه مقالاً لمجلته المدرسية.

ويروي السباعي عنه نادرة اخرى، عندما اقامت له اسرته، لأول مرة في حياته، حفلة ميلادية. باعتبار انه ـ على ما اعتقد ـ كرئيس دولة، ينبغي ان يحتفل بذكرى ميلاده، وأنْ تقام له حفلة بالمناسبة السعيدة. وعندما طلبوا منه ان يطفىء الشموع المضاءة على كعكة الميلاد، نظر حوله بتأثر بالغ وقال ملغزاً: انا لم اطفىء شمعة مضاءة في حياتي! وفي معالجته للضغوط الاقتصادية على مصر، وتخوفه من العقوبات التي كان يتوقع ان توضع عليها، صرف تلك الهموم بقوله: ان شعبنا يستطيع الاستغناء عن الصابون سنة كاملة!

وعبد الناصر كغيره من الحكام السلطويين، كان فريسة هاجس الأمن على حياته. فكان يتجسس على اصدقائه كما على خصومه. فجاءه احد عملائه يوماً بشريط سجله لاحد الوزراء، فاذا هو للقاء جنسي له مع عشيقته. فاستبقى ناصر الشريط، واستمع اليه مراراً وتكراراً، باعتبار انه دعابة نادرة. وكانت اداة التسجيل حديثة الشيوع، ويبدو انها استولت على مشاعره بطرافتها، مما اغراه بتسجيل جميع محادثاته. قال مرة للسفير الاميركي إنْ لديه موضوعاً سريّاً يود ان يتداول فيه معه. ودعاه الى ناحية من الحديقة، لكن المطر هطل غزيراً فسأله السفير علامَ يتحمّلان غضب الطبيعة خارجاً، والاجتماع في الداخل ادعى الى الراحة؟ فأجابه ناصر: إنْ آلة التسجيل دائرة في مكتبي هناك الآن ولا أعلم كيف اوقفها!

وكانت دائرة الاعلام في ليبيا قد طبعت قولاً للامام علي بالوانٍ زاهية، وعلقته في كل مكان. وكان القذّافي في حينه، واحداً من ملايين العرب الذين تفانوا في حب ناصر، وقاوموا سائر الملايين من العرب الذين ابغضوه.

وقول الامام علي المشار اليه هو: «سيأتي يوم يكرهني فيه بعض الناس حتى الكفر، ويحبني آخرون منهم حتى الكفر» او قوله: «هلك فيّ رجلان: مُحبٌّ غال، ومبغض قال» وهو يصدق على الزعيم المصري بالدرجة نفسها من الواقع الفعلي. ومن هذا القبيل ما جرى في احد سجون العراق، قيل ان عبد السلام عارف التقى في سجن عبد الكريم قاسم بالدكتور فاضل الجمالي رئيس الوزارة السابق في العراق، فسأله: ما الذي اوصلك الى هنا؟ فأجابه: مقاومتي لناصر. ولكن انت ما الذي اتى بك الى حيث انا؟ فأجابه عارف: تأييدي لناصر!

والعامل الاقوى في نشوء هذا الوضع الغريب انما كان طموح عبد الناصر في فرض الوحدة العربية تحت سلطة القاهرة، وبسط نفوذه على سواه من زعماء العرب. رُوِيَ أنّ زعماء العالم الاسلامي دُعُوا الى الجنة في احد الأعياد الدينية، وقدّمهم جبريل، كبير الملائكة، واحداً واحداً الى الله سبحانه وتعالى فكان ينهض لكل منهم عن عرشه ويسلّم عليه. لكنه عندما قدّم اليه عبد الناصر استقبله جالساً. فهمس جبريل في اذن الخالق عزّ وجلّ متسائلاً: لماذا لم يقف لاستقبال بطل الاسلام والعروبة العظيم؟ اجابه: إني اخشى إن انا نهضت عن العرش أن يأخذ مكاني!

وفي رواية اخرى، أنّ الملك حسين كان يصلّي في مسجد الصخرة. وعندما خرج منه تألّب عليه الشحّاذون، وقال له احدهم: أعطنا شيئاً مما اعطاك الله، فاعطاه فلساً. وقال له آخر: أعطنا مما اعطاك ملك العراق، فاعطاه جنيهاً. وقال له ثالث: اعطنا مما اعطاك ملك السعودية، فأعطاه ديناراً ذهباً، وقال له رابع: اعطنا مما اعطاك عبد الناصر، فقال له خذ هذا واعطاه إشارة الخازوق.

وكان عبد الناصر يعلم كل ما يقال عنه ويتحمله. لكنه اغتاظ مرة من افراط احد الظرفاء في تلفيق الدعابات غير المستحبة، فطلب احضاره اليه، واخذ يعاتبه ويسرد على مسامعه بعض ما قاله عنه... وختم عتابه بقوله: تتذكّر ولا شك أنني انتخبت رئيساً بتسعة وتسعين بالمئة من اصوات الناخبين؟!.. فقال الظريف مقاطعاً: اقسم بالله ان هذه النكتة ليست من صنعي!

ومهما يكن من أمر، فإن الادعاء باعتماد النظام الديمقراطي وبإجراء الانتخابات الحرّة، كان بحدّ ذاته نكتة... والسوريون الذين اعتمدوا النظام الديمقراطي، قبل الانضمام الى مصر في وحدة عربية سياسية، كان لهم رأيهم في هذا الموضوع. قيل:

عندما دخل النواب السوريون مقر مجلس نواب الجمهورية العربية المتّحدة في القاهرة، وجدوا امامهم بابين. كتب فوق الاول: نواب الاقليم الشمالي، وفوق الباب الثاني: نواب الاقليم الجنوبي، فدخلوا في الباب الاول، فاذا هم امام بابين. فوق الاول: النواب المعينون، وفوق الثاني: النواب المنتخبون، فدخلوا في الثاني، فاذا امامهم بابان كتب فوق الاول: النواب الذين لديهم اسئلة يطرحونها، وفوق الثاني: النواب الذين ليس لديهم اسئلة، فدخلوا في الباب الاول، وفوجئوا بضابط المخابرات في انتظارهم!

لذلك كان اول ما يبدر من شفاه نقّاد عبد الناصر، في التعرّض لنظام حكمه، يتناول ضابط الامن وما يقوم به من اعمال الاقتحام والترويع والتعذيب والاعتقال الاعتباطي. فكان كل ما يتّصل بحرية التعبير والمناقشة يقمع بلا رحمة. قيل ان كلاب ليبيا (قبل اكتشاف النفط) دهشوا اذ رأوا كلباً مصريًّا ينطلق مسرعاً نحو الحدود الليبيّة، فقالوا له: ماذا جئت تعمل هنا، نحن نكاد نموت من الجوع؟ فقال لهم: اريد ان اعوي!

التبجيل وحده كان مسموحاً به ومكافأً عليه. وكان من ثم سباق في الاطناب، بين مخبري الصحف، لم يقف عند حدّ معقول. ففي مناسبة الاحتفال بالعيد الاول للثورة، قدّرت احدى الصحف عدد الحضور في ميدان القاهرة بنصف مليون، وذكرت صحيفة ثانية انهم اكثر من مليون، ورفعت ثالثة العدد الى مليون ونصف. وقد كتب ابراهيم عبده بهذه المناسبة يقول: «لو كان في نفاقستان (يريد القاهرة) إذ ذاك عشر صحف لبلغ عدد الحاضرين خمسة ملايين»! ووصف احد المخبرين زيارة قام بها عبد الناصر الى مزرعة في الصحراء بقوله: ان الدجاجات طارت فرحاً بتلك الزيارة!

اذا صادف وجودك في الشارع، فلا بدّ لك من ان تشارك في الهتاف بالشعار: يحيا رائد الوحدة العربية... يحيا قاهر الاستعمار... وهكذا. لكنّ احدهم هتف بشعار غريب، هو: يحيا موحّد الاديان! فسأل احد السامعين: كيف وحّد الاديان؟ ان المسلمين ما زالوا مسلمين، واليهود يهوداً، والمسيحيون مسيحيين! اليس كذلك؟ فأجابه: يا راجل هو بقى واحد على دينه؟ اهو طلّعنا كلنا من ديننا.

ان جل النكات، كما هو متوقع، موضوع اهتمام الطبقة المتوسطة من المجتمع. كالتي رويت عن شابّ سافر الى السودان وعاد الى مصر بثروة كبيرة. لكنه حال وصوله، انهالت عليه طلبات الضرائب والضمان والرسوم والتبرّعات. حتى عاد فقيراً كما كان، يعيش على الخبز والفلافل. واشترى يوماً قليلاً من الفلافل ليأكلها بخبزه واذ

اخذ البائع يلفّها له بقصاصة جريدة عليها صورة عبد الناصر استوقفه وطلب منه ان يلفها له بجريدة اخرى. فقال البائع: لماذا؟ ما الفرق؟ قال الشاب: في دي صورة ناصر بقا حَ ياكل كل اللي فيها!

هذا الانفجار للظرف السياسي في عهد عبد الناصر يصلح لأن يكون مثالاً ممتازاً على صدق الرأي القائل بان الضحك انما ينطلق من التعارض بين ما هو واقع وما هو متخيَّل، ومن الانهيار - بالتالي - لما هو متوقَّع، لا سيما في اعتبار الطبقة الاجتماعية الوسطى. فالوعود الناصرية الكبرى، قد قدِّر لها ان تنهار على واقع مصر الصعب الكئيب، الماضي منه والحاضر. وتوقعات المراقب أُصيبَت بصدمة الفارس المنطلق لدى التوقف المفاجىء امام مستنقع. روي ان امرأة فقيرة استاءت مراراً من انشغال زوجها عنها بالسياسة، ومن حبّه لعبد الناصر، ولحزب الاتحاد الاشتراكي. فقالت له: انظر الى وضعك، ماذا كسبت من عبد الناصر، ومن كل ما تقوله عن حزبه الاشتراكي؟ لماذا لا تذهب اليه وتسأله: ما الذي جاءنا منه؟ فقبل الزوج التعيس التحدي، وذهب الى عبد الناصر، وروى له شأنه مع زوجته. فطلب منه عبد الناصر أن يذهب الى النافذة ويصف له ما يرى. وكانت النافذة تطلّ على حدائق القصر الجميلة، والشوارع الواسعة، النظيفة، والقصور الشاهقة في جوارها، وفنادق القاهرة الفخمة. والآن، قال عبد الناصر: اذهب وقل لزوجتك: بعد عشر سنوات اخرى في ظل الاتحاد الاشتراكي، مصر كلها حتصبح كده. فأسرع الرجل الى بيته وقال لزوجته ان تفتح الشباك وتصف له كل ما تراه في الخارج. فوصفت له كل شيء. مجرى المياه القذرة المكشوف والفائض، الاطفال في اطمارهم البالية يتنازعون على كسرة خبز عفنة، اكوام الزبالة وحطام السيارات... وبعد ان أنهت وصفها قال لها: ايوه! بعد عشر سنين مع الاتحاد الاشتراكي، مصر كلها حتصبح كده.

هذا شاهد ناطق على نظرية هربرت سبنسر في أنّ الشذوذ المنحدر هو الذي يوضح تقنية الضحك، من اسماها الى ادناها، من المتخيَّل الى الواقع. ان مكاسب عبد الناصر الاجتماعية لم تكن من اجل الطبقة البورجوازية الكبيرة، ولا اكراماً لحلفائها الاقطاعيين، بل ربما كانت على حسابهم جميعاً. فالمزيد من المساواة في تقسيم الكعكة الصغيرة فيما بين «الرعية» قد تركهم بمقدار اقل من الكعك!

قال صحفي لآخر:

- كيف انت والحياة في هذه الايام؟

فأجابه:

ـ على أحسن ما يرام ـ والحمد لله ـ اربعة ايام في الاسبوع لاغاني ام كلثوم، ويومين للالعاب كرة القدم، ويوم لحم!

ولا شك في أنَّ احد وجوه المشكلة الاجتماعية هو الاقتصاد الحكومي القائم على النظام البيروقراطي، لا سيّما سوء ادارة البيع بالمفرّق في المخازن وفي التعاونيات التي غالباً ما خلت مما يحتاجه الناس اكثر من غيره. وبدلاً من معالجة اسباب النقص، نصح البائع بارشاد الناس الى استخدام البدائل، فيقدم لهم الملفوف اذا فقد الخس، والصابون بدلاً من معجون الاسنان، وهكذا... وعندما جاءه مشترٍ يطلب ورق مراحيض ـ وهو مفقود ـ تذكّر نصيحة مدير التعاونية وقال للشاري: آسف، مفيش ورق تواليت لكن فيه حاجة أحسن عندنا ورق صنفرة! (ورق زجاج).

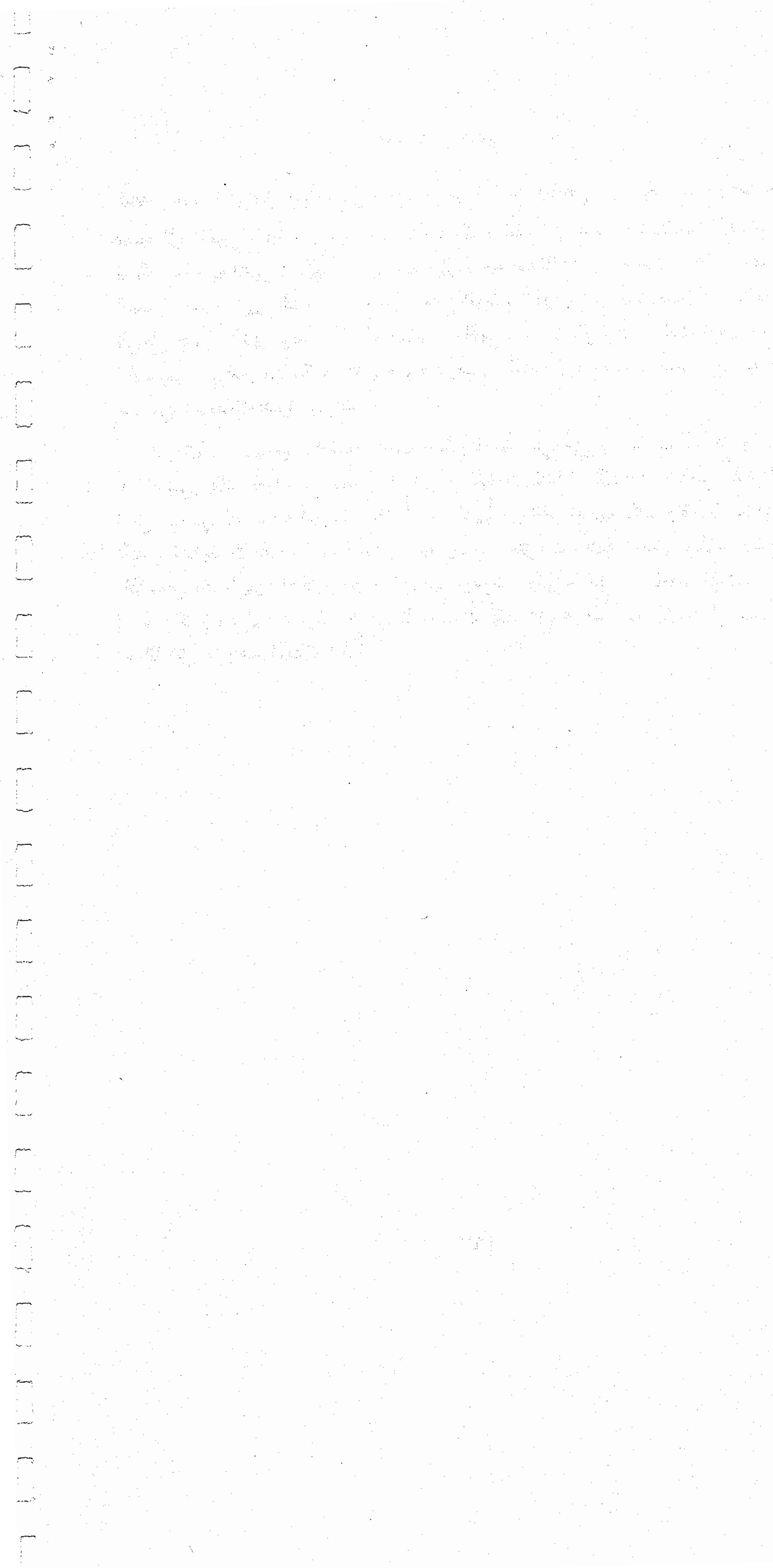
والواقع ان عبد الناصر قدّم في مقابل ذلك مساعدات كثيرة لشديدي الفقر، مثل التطبيب المجاني وتعويضات العطل عن العمل، والمخصّصات العائلية. وبعد أن صدرت التعليمات بدفع علاوات عن المواليد الجدد، شوهد رجل يدافع الناس في الطريق المزدحمة ليفسح المجال لزوجته الحامل والموشكة على الوضع وهي في طريقها الى المستشفى للولادة وهو يهتف في الناس: اوع يا ولد، حاسب يا ولد! اوع العلاوة! اوع العلاوة!... هذه هي طريقة المصري في تسمية الاشياء. ومن هذا القبيل ما سمعته انا شخصياً من بائع متجول في خان الخليلي يبيع ملابس تحتية رخيصة ورديئة للغاية وهو ينادي عليها بقوله: سراويل لحماتك... قمصان لحماتك... هدايا لحماتك.

والواقع ان واحدنا يستطيع ان يمتّع نفسه في القاهرة، بكثير من الظرف، بمجرد الاصغاء الدقيق الى الطريقة الساخرة التي يعطي بها العاديّون من الناس توافه الشؤون الحياتية ابعاداً سياسية. فالرئيس عبد الناصر اراد ان يحيط نظامه بهالة من السريّة باستخدام جهاز من رجال الاستخبارات الفاعلين، وصفهم مصطفى امين بقوله: «... كانت الاجهزة في مصر تعرف دبيب النملة ولا تعرف دويّ القنبلة، وكانوا يعرفون الموعد الذي يذهب فيه موشي ديّان الى عشيقته كل مساء، ولا يعرفون انه يستعدّ للهجوم على مصر...»! وكان من مشاريع عبد الناصر السّريّة مطار عسكري في الصحراء؛ لكنك لو سافرت بطريق الصحراء من القاهرة الى الاسكندرية بسيارات النقل العمومية، لسمعت بائع التذاكر، عند الموقف المقابل للمطار العسكري، ينادي «المطار السّري...».

هذا الحادث ربما كان واقعاً تاريخياً. اما النادرة التالية فهي وان كانت من الحكايات، الا انها اقرب الى الواقع من الحياة نفسها. قيل إنّ احد رجال المباحث

كلّفه رئيسه ان يتّصل سرًا برجل مباحث آخر في احد المقاهي، واعطاه اسمه واوصافه. فجاء الى المقهى المعيّن، وطلب من صاحبه ان يرشده الى حسين (الشخص المطلوب)، فسأله صاحب المقهى: «أي حسين انت عاوز؟ فيه عندنا عشرين حسين هنا. فيه حسين النجار، فيه حسين الحداد، فيه حسين بتاع الموبيليا، أي حسين أنت عاوز؟ فوصف له الرجل حسين الذي يريده فقال له صاحب المقهى: آ! ما تقول كده. انت عاوز حسين الجاسوس، ونادى من مكانه باعلى صوته: حسين الجاسوس، حسين الجاسوس، فيه هنا حد من اصحابك عاوز يشوفك».

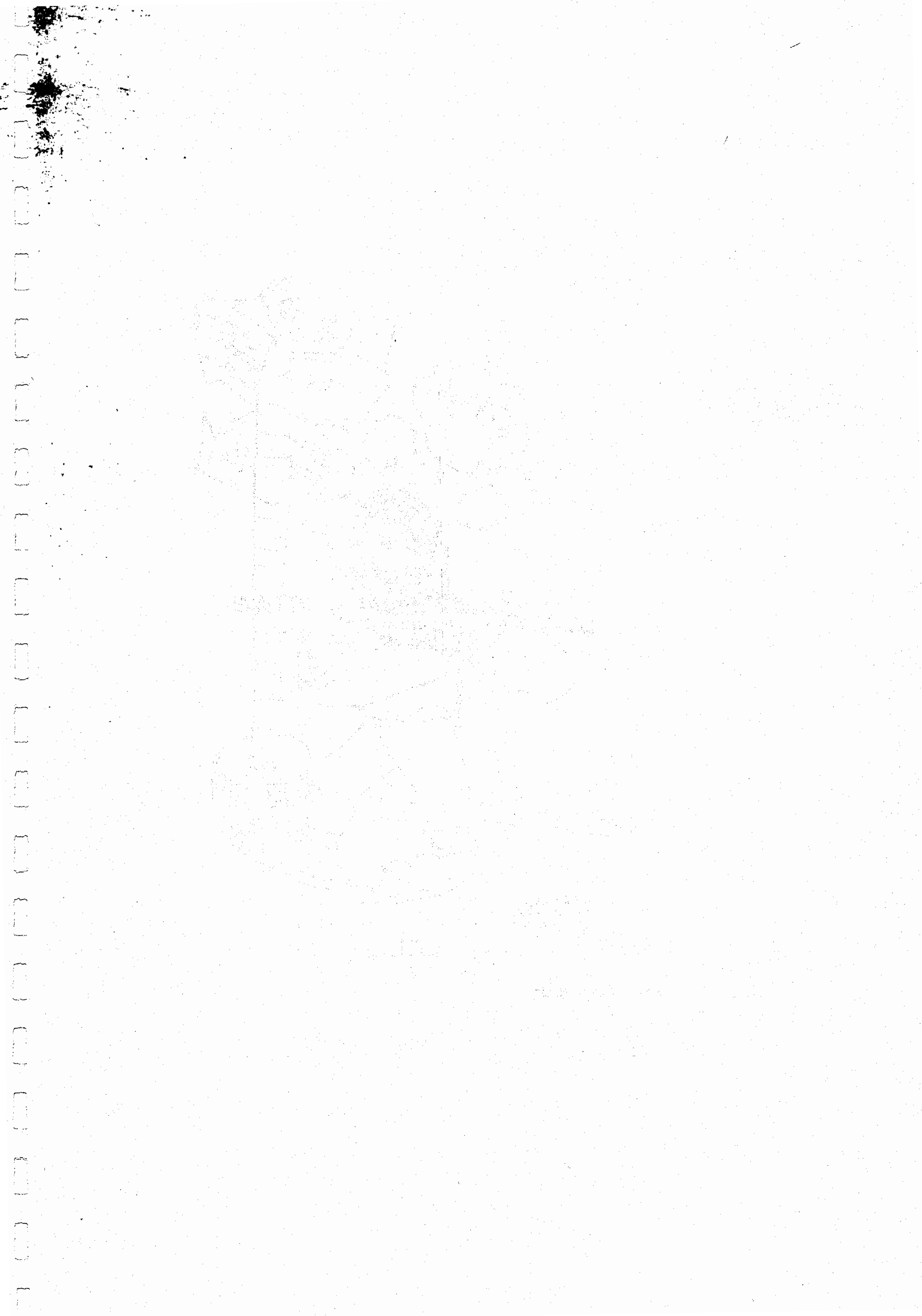
يقال ان مسرحية «هملت» كانت اعظم اخفاق فنّي مُني به شكسبير، فاذا جاز لنا ان نستعير هذا القول مع بعض التعديل، قلنا ان نقول: ان عبد الناصر كان اكبر فشل سياسي اصيب به العرب. فقد أعطى كثيراً من الخير لقضية بلاده ولقضية العرب، لكنه ـ لشديد الاسف ـ اساء كثيراً بحقّها ايضاً، فامتزجت عظمة انجازه بويلات فشله. فاذا نحن اخذنا بعين الاعتبار عهده من جميع وجوهه، وكل ما قيل عنه بالجدّ والهزل، فاننا لا بد ذاكرون قول برغسون: «نحن لا نضحك فقط على عيوب ابناء جنسنا بل نضحك احياناً على مزاياهم الممتازة ايضاً».





اي طريق أسلك؟

جورج بهجوري، ١٩٨٥



الفصل السابع

صدمة النكسة

ضحكنا، وكان الضحك منا سفاهة
وحقّ لابناء البسيطة أنْ يبكوا
ابو العلاء المعري

كانت حرب عام ١٩٦٧ مع اسرائيل، ولا شك، اعظم صدمة اصابت العالم العربي. فقد بلغ الكرب الذي خلّفته اوجه، باستقالة عبد الناصر من الحكم. ومن ذكرياتي في الاذاعة البريطانية في لندن أن شابّة مصريّة لم تتحمّل الصدمة، أنها دفنت وجهها في المقعد، وراحت تجهش بالبكاء، فيما صديق لي، عرف بالصمود والمرح، اندفع الى الحمّام ليخرج منه بعد دقائق مقرّح العينين. وبعد ذلك بيومين، عقدنا في «معهد الدراسات الشرقية والافريقية» اجتماعاً في لندن، رويت فيه للحضور قصّة الاخ الاندونيسي المسلم، الذي تلفن الى السفارة العراقية متطوّعاً للقتال، قال لي: انتم العرب لم تحسنوا صنيعاً في هذه الحرب، اودّ ان أنضمّ اليكم واساعدكم في قتال اسرائيل، فانا اجيد لعبة «الجودو». وعندما تلفظت بكلمة «جودو»، انفجرتُ بالضحك ولم اقوَ على ضبط نفسي. وسرعان ما سرت عدوى الضحك في الحضور، حتى ضجّت القاعة بالقهقهة. وتحوّلت فجأةً هزيمة النكسة من مشهدٍ في ملهاة سوداء، الى ملحمة كبرى، راحت فيها النكات تتوالى من هنا ومن هناك. قيل: هل سمعتم خبر صانع المكانس والسُّلال في عمان، الذي علّق اعلاناً خارج مصنعه يقول: «منطقة عسكرية، ممنوع التصوير»؟ لماذا فعل ذلك يا ترى؟ لأنه سمع الملك حسين يحرّض الناس على قتال اسرائيل حتى بالمكانس.

ان فرار الضباط المصريين من ميادين سيناء والتماسهم للسلامة في شوارع القاهرة، اصبح حديث الناس في كل مكان، وتعذّر معه على ظرفاء مصر، مقاومة

الاغراء باداء دورهم في هذه المناسبة المخزية. فقد روي عن ملازم شابّ منهم، انه جرى وراء سيارة النقل العامّ وصعد اليها ليقع في حضن عجوز. فاخذته العجوز بكتفيه وقالت له بكل حنان: انت يا ابني لا تزال تجري؟

وتساءل العرب عن مصير المناطق التي فقدوها، هل يُقدّر لهم ان يسترجعوها؟ قيل ان قائد الجيش المصري العام، المشير عبد الحكيم عامر، ارتاع عندما رأى عبد الناصر يأمر الوشّام ان ينقش على ساعده الايمن اسماء المناطق التي اكتسحتها اسرائيل: سيناء وغزّة، وشرم الشيخ، والقدس، ومرتفعات الجولان، فسأله:

- لماذا تفعل كل هذا؟
- لئلّا انساها،
- ولماذا تنقشها بالوشم؟ وماذا تفعل اذا استرجعتها؟
- اقطع يدي إذا استرجعناها!

ان هزائم يونيو (حزيران) أظهرت جميع نقاط الضعف في النظام الثوري العسكري، فتهافت النقّاد الظرفاء على انتهاز هذه الفرصة المتاحة للتهكم من تلك الهزائم. فانطلقت اعلى الاصوات في مصر من المشاركة بين احمد فؤاد نجم الشاعر الشعبي، والشيخ إمام عازف العود الاعمى، وصاحب الصوت الرخيم. وتعاونا على تحوير اغاني الطرب الى قصائد نقد بالغ المرارة، غنّاها الشيخ عازفاً على عوده في المقاهي والمنازل، وفي بعض الحفلات العامّة، حيث امكن. فانتشرت في العالم العربي برمّته، حاملة خيبة الجماهير بروٴسائهم.

وفي تلك الآونة شاعت اغنيتهما «يا ما احلى رجعة ضباطنا من خط النار». التي عبرت عن مرارة اليمة:

الحمد لله خبطنا تحت ابطنا
يا ما احلى رجعة ضباطنا... من خط النار
يا اهل مصر المحمية بالحرامية
الفول كتير والطعمية... والبر عمار

ايه يعني شعب ليل ذله... ضايع كله
ده كفاية لما تقول له... احنا الثوار
ايه يعني بالعقبة جرينا، والا بسينا
هي الهزيمة تنسينا... اننا احرار

وفي الاغنية التالية تتحول كل هذه المرارة الى سخط يائس ونقد ذاتي ساخر وعدمي توجزه الكلمتان «شرم برم»:

الله الله يا بلدي يا ام الشغاليل
الله الله يا بدوي مشوارنا طويل

شرم برم والناس غافلة
والغفلة عالافهام قافلة
والكلب لعلع في الحفلة
واغلب السامع مساطيل

الله الله يا بلدي... الخ

حالتنا ما تسرش انسان
وحالنا يصعب عالغلبان
لكن يا خلق علينا لسان
لو مريناه عالصلب يسيل

الله الله يا بلدي... الخ

هذي العبارة متعلي
وهذي الصراحة اللي تخلي
عرق الغضب فينا تملي
بالجهل نافع والتضليل

الله الله يا بلدي... الخ.

لم يتصد نجم لعبد الناصر بصورة مباشرة. ولكن ما أن استلم انور السادات الحكم من بعده الا وانقض عليه بالطعن القاسي واللسان المقذع:

حلاوله حلاوله، يا خسارة يا حول الله
الثوري النوري الكلامنجي
هلاب الدين الشفطنجي
قاعد في الصف الاكلنجي
شكله يا ما احلى شكله

حلاوله... الخ

يتمركس (يصبح ماركسيا) بعض الايام
يتمسلم بعض الايام

ويصاحب كل الحكام
وست عشر مله.

حلاوله... الخ

يا حلاوته لو شفته كمان
مهموم بقضايا الانسان.

جرايد ومسارح وادارة
ومعلق طبلة وزمارة.

متنسك هلاب الدين
اهو عاقل جدا ورزين...

وفي سورية نشأت مشاركة اخرى ما بين محمد الماغوط ودريد لحّام، أطلقت افكاراً شبيهة بالتي تقدمت. لكنها سُبكت في قالب مسرحي، كما في اشهر تمثيليّاتها الموسيقية الغنائية: «ضيعة تشرين» و«كاسك يا وطن».

ففي «ضيعة تشرين»، يتفاقم التوتر عندما يأمر حارس الليل العروس الصغيرة بأن تقفل النافذة، لأن نظام منع التجوّل يحظّر على الافكار والانظار ان تتجوّل... لذلك يترتب على عريسها ان يجيء الى نافذتها في صندوق قمامة. وقبل ميعاد عقد الزواج بقليل يطبق اللصوص على بيت العروس، ويستولون على المهر والكرم. مما تسبب بتأجيل عقد الزواج الى ما بعد استرداد المسروقات. هذه المسرحية الهزلية محاكاة ساخرة لاستيلاء الاسرائيليّين على مرتفعات الجولان. وفي محاولة لاقناع المختار بتدارك الامر، تنكشف خبايا الفساد المعشعشة في حكومة الموظفين. واخيراً يستنبط المختار طريقة يسترد بها الكرم. لكن اللصوص يغيرون مجدداً ويستولون عليه ثانية. فيلوم الحارس المختار بقوله: ألم أقل لك بأن تقفل النافذة عندما تفكّر؟ ويقترح غوار أنْ يؤتى بكلب الشرطة ليشمّ رأس المختار بحثاً عن افكاره... واخيراً يهتدي المختار الى طريقة جهنّمية هي التفرقة بين سكان القرية، واذكاء الخلاف بينهم لينسوا الكرم المسروق. فيوعز الى الحارس بان يقتل البقرة، ويترك اسم غوّار بجانبها، فيعترض الحارس بقوله: ماذا جنت البقرة لتقتل؟ فيجيب المختار: يعني ضروري الواحد يعمل شي حتى ينقتل؟! وتنجح حيلة المختار، ويشتغل الناس بالبقرة عن سرقة الكرم ويصيح احدهم «ديروا الراديو على لندن حتى نسمع شو صاير بها الضيعة»...

يعزل المختار من منصبه، ويليه آخر... ثم آخر... وكلٌ منهم يتحدث عن

اكتشاف مؤامرة عليه. حتى لَيَسري القول في كل العالم: الناس تكتشف نفط او فحم او حديد، اما هذه الضيعة فلا تكتشف الا المؤامرات. ويقبض رجال الامن على نايف لأنه اشاع أنه يوجد نقص في الموادّ الغذائية، وأن القرية قد خلت من الحليب، لأن البقرة المؤممة وضعت عند حلبها تحت مراقبة عشرة موظفين، فجفّ حليبها حياءً. ودعي نايف الى بيت المختار ليرى ان المواد الغذائية متوفرة بكثرة، فهو مملوء بالارزّ والسكر واللحم والويسكي، والبرغل. . . «كيف تقول مفيش اكل؟» ثم أرسل الى السجن لاشاعاته الكاذبة. وأتبع بعد حين بغوّار، لأنه لم يقل شيئاً. . .! وعندما احتجّ قيل له مؤامراتك أشدُّ خطراً من شائعات نايف، نحن نعلم ماذا قال، لكننا لا نعلم ماذا كنت انت تنوي ان تفعل. فأجاب: اذن، لا أمن لنا ان تكلمنا ولا سلامة لنا اذا سكتنا. . .!

ويعلن قائد الشرطة، وهو يراقب بمنظاره، معركة تجري بين رجاله واللصوص: أنّ عشرة من اللصوص قد قتلوا. فيصيح احد الحضور: ولكنّ اللصوص ثلاثة لا غير! فيجيبه القائد: قد تكون على صواب فالمنظار يضخّم الاشياء. . . واخيراً يصدر الامر بالافراج عن غوّار. ويصرّح للصحفيين، وهو خارج من السجن، أنه دخل اليه وقياس قدمه ٤١، وخرج منه وهو ٤٥، وذلك بفضل سوط السجّان!

قد يعجب بعضنا كيف تسمح السلطة بتمثيل مسرحية كهذه تنال رجال الحكم بكثير من الطعن والتهكّم؟ والجواب أنّ المسرحية تنتهي بتغطية تبشّر بصلاح كل فاسد، وتقويم كل ملتوٍ، وانصاف كل مظلوم، وردّ كل حق الى صاحبه. وعندما سئل غوّار، بعد ذلك بسنوات، عن معنى هذه التغطية الهزيلة قال: ان الكاتب والفنّان يجب ان يتقيّد برقابة ذاتية. فربما كان لدينا الكثير مما سكتنا عنه، لأن معاناة البلاد اهم من حرية التعبير.

اما «كاسك يا وطن» فمجموع مشاهد مسرحية هزلية قصيرة، يعمد فيها البطل نفسه ـ غوّار ـ الى ابراز تعقيدات قومه وخيباتهم. ففي احدها تموت طفلته على يده، وهو ينتظر في العيادة، والطبيب مستغرق في معالجة موظف كبير يشكو من عجزٍ تناسلي. وفيما هو يذرف الدموع يقول له احدهم معزّياً:

ـ ثق أنّ الطفلة ستجد مكانها في الجنة.

ـ تقول في الجنة؟ انها لم تجد مكاناً في سيارة الاسعاف، ولا في مستوصف الطبيب، ولا في احد المستشفيات، فكيف تجد مكاناً في الجنّة؟!

ويكثر غوّار من التذمر والتشكي، فيعتقل. وفي طريقه الى السجن، يقول

الشرطي كل مصائبنا من الاستعمار. وفي مكتب السجن، يفتح السجان ملفّه ويقول له:

- انظر، نحن نعلم كل ما تقول وكل ما تفعل!

- تعلمون كل هذا عني، ولا تعلمون أني واولادي ليس عندنا ما نأكل!

واذ يتعذر على غوّار اطعام اولاده، يقدم على بيعهم. ولِمَ لا؟ فبعض الناس في هذه الايام لا يتحرّجون من بيع اوطانهم بكل مَنْ فيها! ويلحّ غوار على امرأة تقود كلباً ان تشتري احد اولاده، مؤكداً لها ان كلبها سيسعده ان يتخذ من ابنه رفيقاً له! ويعرض ابنه الآخر على شارٍ جديد ويؤكد له:

- ان صحته جيدة وقابليته ممتازة، فهو يأكل كل ما يقدّم له.
- هذا الطفل يستطيع كل ذلك؟
- بل يستطيع ما هو اعظم، ستتحقّق متى كبر ودخل وزارة الاقتصاد، إنه لا يُبقي ولا يذر!

وفي مشهد آخر، يجري في الاذاعة الحوار التالي:

- آخر الاخبار ان اسرائيل هاجمت جنوبي لبنان!
- وأين سائر العرب؟
- لقد باشروا هجومهم الخاصّ.
- على من ركّزوا هذا الهجوم؟
- بعضهم على بعض!

اما العرب، فقد حال عنادهم وتصلّبهم دون انجاز اي تقدم في استرجاع اراضيهم المحتلة بالطرق الدبلوماسية. واما حرب عبد الناصر فقد انقلبت عليه، وسُدَّت طرق المفاوضات بموته. ثم تسبّبت وفاته بتحوّل الافكار نحو وجهة جديدة. فقد تسلّم السادات بعده مقاليد الحكم، فعرف بين الناس بقلة الدراية، وبلادة الذهن، فلم يتوقع المواطنون أنْ يتمكّن من اتيان اي شيء يرغم اسرائيل على التخلي عما ربحته في الحرب. وفي مساء يوم جاء متأخراً الى حفلة موسيقية كان حريصاً على حضورها فوجد ام كلثوم ونجوى فؤاد تنتظران السماح لهما بالدخول فسمح لهم جميعاً بالدخول من الباب الخلفي. فأوقفهم الشرطي حارس الباب ليتثبت من هوياتهم وطلب من كل منهم ان يقدّم الدليل على صحّة هويته. فغنت له ام كلثوم مقطعاً معروفاً من اغانيها

فعرفها الشرطي وادخلها، وهزّت له نجوى فؤاد خصرها فتأكّد منها وادخلها. اما السادات فقال له الشرطي افعل شيئاً يثبت انك انور السادات، فقال له:

- اعمل ايه؟ انا ما اعرفش اعمل حاجة.
- إذن لازم تكون انت انور السادات صحيح. تفضل.

وفي نادرة اخرى، رسم بصورة حمار قاتم اللون لائق الشكل؛ وكانت الضائقة الاقتصادية قد اصابت الجميع في قرية المنوفية (قرية السادات) حتى الحمير. وعندما اجتمعوا للتداول في امرهم، قال احدهم: ان اخانا هو رئيس البلاد، فلماذا لا نذهب اليه ونلتمس الخلاص على يده؟ فوافق جميع الحمير على تأليف وفدٍ منهم وذهبوا اليه. فاستقبلهم بالترحاب وأصغى الى مطالبهم. وعند عودتهم الى القرية سألهم رفاقهم عن مصير مطالبهم فاجابوا: هو لا يزال يحاول ان يفهمها!.

ولقد درج السادات، حرصاً منه على استقطاب الجمهور، على ان يخاطب محدثه ايًّا كان بـ«يا ابني». قيل؛ على اثر الصدام بين المسلمين والاقباط واعتقال شنودا، بابا الاقباط، دعاه السادات الى مكتبه، وأُلقى عليه عظة طويلة في اهمية التسامح الديني، قال:

- اسمع يا ابني ابونا شنودة انا مش عاوز حد يعمل أي تفرقة بين مسلم ونصراني. انت عملت دوشة كبيرة هنا. وعلشان كده لازم اشيلك من منصبك.

- وحا تحط مين في مكاني بابا؟
- اخوك بالنضال محمد رمضان.
- بس ده راجل مسلم!
- الله! يعني رجعنا؟!

ومع ان الرئيس الجديد لم يترك فرصة تمرُّ الا انتهزها ليترحّم على روح سلفه الصالح، ويؤكد على الاستمرار في سياسته الداخلية والخارجية، فقد كان كل ما فعله، بواقع الأمر، معاكساً لتلك السياسة.

قيل انه وصل في بعض رحلاته الى مفرق طرق، فسأله سائقه:

- افوت منين يا سيادة الرئيس عاليمين واللا عاليسار؟
- لو كان ناصر قاعد في مكاني كان قال لك ايه؟
- كان قال فوت عاليسار.
- كويس، اعط الاشارة لليسار وفوت يمين.

ان الرجل الذي «لم يعرف ماذا يفعل» صعق العالم اخيراً بزيارته الاسطورية الى القدس، وبالصلح الذي عقده مع اسرائيل. ومع ان المصريين، بوجه العموم، سلّموا بهذه الصفقة، فإنّ ناقديه استمرّوا في مهاجته بصورة اشرس، وبتعابير لا تقل بذاءة وابتذالاً، ليتوّجوا ذلك كله بتهمة تعاطي المخدرات. قيل: عزم ضابط في الجيش على مقابلته ليرفع ظلامته اليه. لكن اعصابه خانته. فنصح له احد اصحابه ان يستعين على شجاعته بكأس من الوسكي. فشرب حتى غدا يرى الشخص الواحد ثلاثة، لا اثنين فحسب! ثم دخل على السادات، وكان وحده يدخّن لفافة مرجوانا، فقال الضابط:

- سيادة الرئيس، ارجو ان تصرف الاثنين الجالسين الى جانبك لان قضيتي شخصية للغاية.

- اذا كانت قضيتك، كما تقول شخصية الى هذا الحد، امال انت جايب معاك خمسة ضباط ليه؟!

وقيل: عندما مات السادات، إلتقاه في الجنة المشير عامر، وكان قد وجهت اليه تهمة مماثلة، فقال له:

- والنبي تقول لنا جبت معاك حشيشة قوك ايه؟

- ده انت مجنون؟ اشيل في جنازتي حشيشة وكل المشيعين من رجال المخابرات.

ان الانفتاح السياسي الذي مارسه السادات لم يوصله الى اهدافه. بل ان النقّاد اتخذوا من هذا الانفتاح الفاشل ما غذّوا به دعاباتهم، لا سيما ما يتصل منه باسرائيل. فقد جاء في اخبار المراسلين أنّ السادات على وشك ان يعقد صفقة مع اسرائيل يبيعها بموجبها مياه النيل لريّ صحراء النقب. فأشاع احدهم الحوار التالي:

- سمعت بقه، الحكومة عاوز تخلي الصابون بالكوبون؟
- وايه علاقة الصابون باعطاء الميّه لاسرائيل؟
- علشان تحتاج ميّه لما تستعمل الصابون؟

ومن الطريف اخيراً، ان تقارن بين النكات التي رويت عن عبد الناصر، وتلك التي قيلت عن خلفه السعيد الذكر. فكما يستخلص مما جاء في الفصل السادس، فإنّ النكات الناصرية تناولت عادة نظامه السياسي، ومذهبه الاشتراكي، ووسائله القمعية. ونادراً ما وجّهت ضد شخصه. انها حوّمت حوله لكنها لم تجسر على مسّه، وغالباً ما صدرت عن محبّة واحترام، فكانت ضرباً من المضايقة المحبّبة والدغدغة السياسية. اما

النكات التي تناولت السادات فكانت لاذعة وعنيفة، وكانت بوجه العموم شخصية وفاجرة. قال احدهم: لا شك في ان عبد الناصر كان غبيًا، وإلا فكيف تفسر اختياره لحمار يعيّنه خلفاً له؟ فبعد استرجاع السادات لسيناء، زاره وفد من العريش ليشكره على جهوده المحمودة. وعندما سئل الوفد ماذا يريد أن يرى في القاهرة؟ طلب زيارة مكان واحد هو مدفن عبد الناصر، ليقيموا عنده فريضة الصلاة! ولم يكن أنور السادات خاوي الوفاض من هذه الذخيرة، فاعطى منها بمقدار ما تلقّى. ان قدرته الفاعلة لم تقف به عند اجتذاب الاميركيين، بل ساعدته على التهكّم من خصومه في العالم العربي بلسانٍ حلاّ وتعريض جارح. فاصدقاؤه، بمن فيهم يوسف ادريس، ومؤلف هذا الكتاب، يشهدون لظرفه وفرط دعابته. لقد كان من اهمّ نتائج النكسة انطلاق حرب العصابات الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات. وشخصية عرفات الجذّابة اثبتت انها اوسع حيلة في السياسة منها في خطط القتال. ومثل هذا الاستمرار في النضال، وفي ظروف غير مؤاتية، يزيد في رصيد السياسي أيًّا كان. وهذا النهج أقصى عرفات عن التراشق اللفظي المعهود، وعزله عما يقترن به من الظرف والفكاهة. والملاحظ ان القليلين جداً من مجنّدي حروب العصابات يتميّزون باحساس دعابي. ذلك لان الضحك عملية «تنفيس» للطاقة، في حين ان العنف عملية «تفجير» لها. وعرفات باعتماده المطلق على الارادة الصالحة والنيّة الحسنة، فضلاً عن تأييد مزوّديه ومريديه، استطاع ان يتقن وسائل الابقاء على حسن الصلة بجميع الناس. قيل انه في زيارة له الى مكة المكرّمة لتأدية فريضة العمرة في منى اعطي سبع حصوات ليرشق بها ابليس. فلاحظ دليله انه رمى بست منها واخفى السابعة في جيبه، فقال له:

- خيي ابو عمار انت ذبيت ست حجارات بس؟
- عارف، السابعة بجيبتي. ضروري حافظ على خط الرجعة مع ابليس.

وهي نكتة رقيقة تنمّ عن شيء من الاحترام تجاه الزعيم الفلسطيني.

ان الشعب الفلسطيني المنكوب، الذي تنكر له العالم، وخذله زعماء العرب، وشرّدته اسرائيل بلا رحمة، يبدو، بحكم النوايا، انه سيعيش ابداً لاجئاً في المضارب والمخيّمات، واصبح محطّ آماله الوحيد مملكة الله. حتى جاء يوم القيامة وبدأ سبحانه وتعالى بتوزيع الشعوب على الجنة والنار. الايرانيون طبعاً عندهم مفاتيح فدخلوا بدون مراجعة احد. والاسرائيليون جاؤا بخريطة فرمانية. وهكذا توالت الامم الى ان جاء دور الفلسطينيين المشردين. وكان يوم الحساب قد ازف على الانتهاء. «ومن؟ الفلسطينيون؟ الى الجحيم بهم». ولكن ابليس احتج قائلاً لم يعد هناك مكان لأحد في

النار. فقال سبحانه وتعالى اذن فليدخلوا الجنة. وهنا احتجّ حارس الجنة فقد ملأها الايرانيون ولم يتركوا مكاناً لبشر. قال سبحانه وتعالى، «اذن فاعملوا لهم خيمات»!

«النكسة» وصف ملائم لهزيمة ١٩٦٧، لأن مدلولها هو الرجوع الى ما هو اسوأ. فمنذ ما تقرر مصير الخامس من يونيو (حزيران ١٩٦٧) والعديد من المعلقين العرب يرفعون ايديهم يائسين، على اعتبار ان الامور لا يمكن ان تكون اسوأ مما هي عليه. والمعلقون العرب توصلوا دائماً الى نتائج خاطئة. فكل مرّة ابدوا فيها اقصى تشاؤمهم، تحولت الأمور بهم الى ما هو اسوأ. وهذا الانزلاق المتواصل انتهى الى مقتل الاخ الاصغر: لبنان.

قيل كان كاهن وشيخ ينتظران لبضع ساعات مقابلة رئيس الوزارة، فيما القنابل تتساقط والمدافع تدوّي. واخيراً نطق الكاهن يائساً:

- لا اله الا الله، ومحمد رسول الله!

- لا يا سيدي، هذي شهادة الاسلام.

- كفّرونا يا شيخ.

وكان قتل عابري السبيل في لبنان يقع اعتباطاً، على مجرد الشك بان الضحية من مذهب آخر. قيل: اوقف شاب مسلم على حاجز تفتيش مسيحي:

- ما اسمك؟

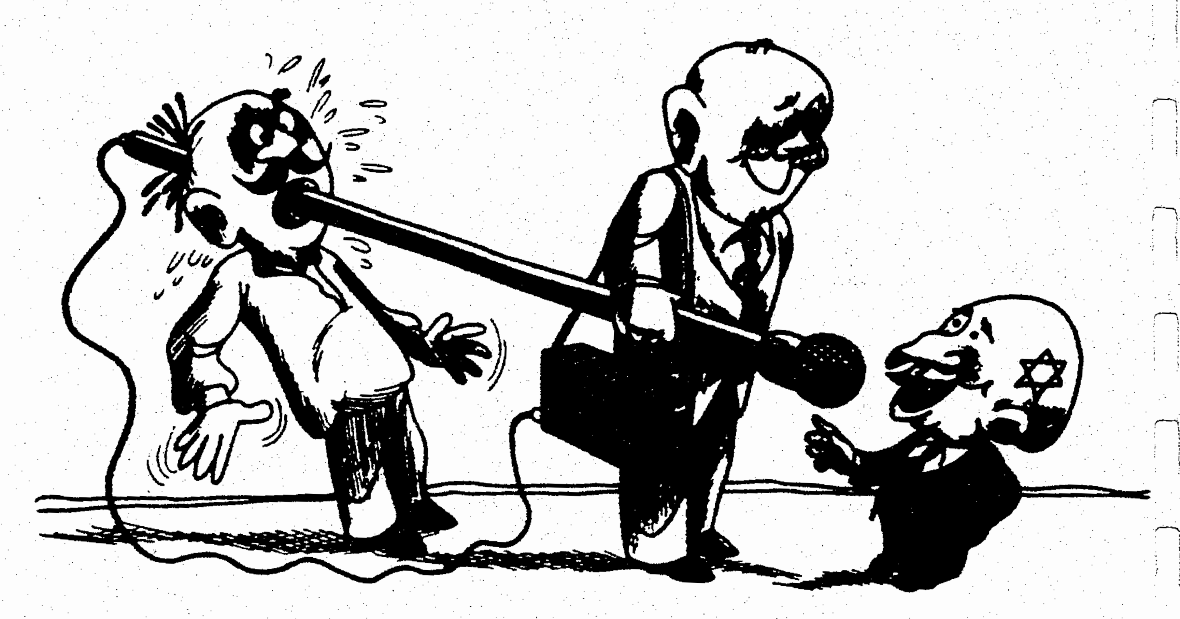
- جورج ماروني

- انت لا جورج ولا ماروني

- اقسم لكم بالله وبسيدنا محمد...!

وليس ثمة ما يشير الى أنّ تردي الوضع جعل من المقاتل المسيحي مسيحيًّا اصلح. ولقد عقدت اجتماعات كثيرة بين الجماعتين على امل المصالحة كانت بلا جدوى. وفي احدها استفحل الجدل بين احد المقاتلين وتقي الدين الصلح، رئيس وزارة سابق، فقال له مناظره: نحن نمثل المقاتلين. وانت من تمثّل؟ فأجابه: انا امثّل المقتولين يا سيدي!

ولئن كان قد مضى حتى الآن ثماني عشرة سنة على النكسة المشؤومة، فان العرب ما زالوا يعانون عواقب تلك الصدمة - لا يجدون من مستنقعها مناصاً. وما داموا في براثنها فان سيمفونية هذا الفصل ستبقى غير تامّة. اذ لا بد من استمرار الظرفاء في ارسال دعاباتهم. لعلّها تهيّء لهم مهرباً - ولو فكريًّا - من بليّتهم!



الاعلام الغربي كما يراه العالم العربي
«الشرق الأوسط» ١٩٨٢

الفصلُ الثامِن

القَلم والبندقيَّة

يهزم الجيش بالكتاب كأنّ الـ كُتْبَ منه كتائبٌ فلا تُغَلُّ
وكأنّ السطورَ فيها صفوفٌ وكأنّ الحروفَ خيلٌ ورَجْلُ
فاذا راشَ بالأنامِلِ انبو بةَ يراعٍ، فانما هو نَبْلُ

التهامي

عندما عقد السياسيون والوزراء، في الدولة العراقية الجديدة، اجتماعاً في بيت يوسف السويدي، زعيم حركة النضال من اجل الاستقلال، لاقرار الميزانية، وشرعوا في درس ميزانية الدفاع، سأل الرجل الشيخ: ما هذه؟ فشرح له ابناؤه انها مخصّصات للجيش.

- ولأي شيء الجيش؟
- الدولة المستقلة يجب ان يكون لها عَلَم وجيش.
- علم؟ لا بأس، ولكن الجيش لماذا؟
- الجيش يدافع عن العلم ويحمي البلاد من الاعداء.
- ولماذا تفترضون انه سيكون للبلاد اعداء؟
- وماذا اذا صحّ الافتراض وطمع بنا بعض الاعداء؟
- عندنا بريطانيا، هي اقوى منا على الدفاع عنا.

وضحك المجتمعون من سذاجة الشيخ، اما هو فتمتم قائلاً: ليكُن ما تريدون، انما تذكّروا كلامي، انكم ستندمون على ما تفعلون!

وفي اقل من عشر سنوات، قام الجيش بلول انقلاب عسكري في العالم العربي (١٩٣٦). وتولّى الحكم في البلاد، حتى علم ١٩٤١، «المربّع الذهبي» وهو مؤلف من

اربعة ضبّاط برتبة «عقيد»، درجوا على حلّ وزارة وتعيين اخرى كلما حلا لهم ذلك. وفي عام ١٩٥٢ خلع الضبّاط الاحرار في مصر الملك فاروق واعلنوا النظام الجمهوري. وفي سورية توالت الانقلابات بصورة اسرع. وسرعان ما سرت عدوى الانقلاب العسكري الى اليمن وليبيا والجزائر والسودان وموريتانيا. وقد تسلّم الجيش الحكم في كل مكان في العالم العربي، الا في ما ندر من بلدانه ومنها لبنان والمغرب، واخذ كبار الضبّاط يوزّعون في ما بينهم، وعلى اقربائهم واصدقائهم، ما استولوا عليه من المناصب والمراتب والاوسمة والاموال. ولقد احصى احدهم على اصابعه قوّاد الميدان (فيلد مارشل) في العالم فاذا هم خمسة، اربعة منهم في العالم العربي. وفي عام ١٩٨٤ نظم الشاعر الفلسطيني معين بسيسو قصيدة أنشدها في لندن، منها قوله:

... وعصرٌ كلّه عجبٌ ٭ به الشرطيُّ محتسبُ

* * *

وشرطيٌّ بأسماءٍ له عربية خُشُنٌ
على كرباجه حرباءٌ مصّت من دمي اللونا
فبوركتِ الزنازينُ التي صارت لنا وطنا
وبورك اسمه العجبُ ولا عجبُ

* * *

فشرطيٌّ عن الاكتافِ قد نزلا
وشرطيٌّ الى الاعناقِ قد وصلا
وشرطيٌّ على جاويشه انقلبا

وجاويش على جنراله ركبا
ومخصي على المخصي قد وثبا
وانجب مسخه العجبا
ولا عجب، هم العرب.
ولا عرب.

* * *

فلا عذراء نخلتكم
ولا عذراء مريمكم

فلا بيض صنائعكم
ولا خضر مرابعكم
ولا سود وقائعكم
ولا حمر مواضيكم
الا تبت اياديكم.

ان انطلاق الحكم العسكري في العالم العربي، بالامكان ارجاعه، مع كثير من الاحداث التي رافقته، الى هزيمة ١٩٤٨ في فلسطين. فهذا الحدث الخطير دفع بالكثيرين من ضبّاط الجيوش، وفي مقدمتهم عبد الناصر، الى الاقتناع بتعذّر انجاز اي هدف، الا بعد ازاحة الحكومات التقليدية، والتحرّر من كل ما فيها من خلل وفساد، ثم قيام نظم ثورية على اساس القوة العسكرية. وهي نتيجة اوليّة متوقعة من جنودٍ متخاذلين يعملون بامرة ضبّاط بعيدي الطموح، في اي مكان من العالم.

هذه العصبة العسكرية الثائرة تحرّرت بانتصارها من بعض المآسي، كالاقطاع. ولكنها تسبّبت بمآسٍ جديدة، مثل الطغيان. على ان المشاكل الكبرى المعقّدة، العميقة الجذور، استمرّت على ما كانت عليه، إنْ لم نقل انها استفحلت وتفاقمت. «فالضبّاط الاحرار» لم يكتفوا بتقلّد المناصب الرفيعة في الدولة، بل تصرّفوا كقبيلة تغير على مدينة وتنتهب خيراتها، وتوزعها على ابطالها المتصرين، وعلى اقربائهم واصدقائهم، وشغل القواد ما اشتهوا من المناصب في جل دوائر الدولة، واكرموا مريديهم بسائرها. قيل إنّ الجنرال قاسم طلب من محاضر جامعيّ ان يشارك في الحكومة فأجابه:

- لا مانع عندي اذا اوليتني قيادة الفرقة الخامسة الآلية.
- لكنك لست ضابطاً عسكرياً! ولا خبيراً بالآليات العسكرية!!
- وماذا في ذلك؟ لي اسوة بالضابط العسكري الذي عينته وزيراً للمعارف!

ان نزعة التفرّد المتأصّلة في فطرة العرب، ولّدت فيهم نفوراً طبيعياً من الجندية، لأن الجند في عالم العرب كانوا لقرون طويلة اما غرباء مأجورين او اغراباً محتلّين. وهنالك تراث ضخم من الشعارات والامثال واغاني الاطفال تسخر من الجندي او تحذّر منه... والهروب من الجندية، وتفادي التجنيد الاجباري، امر معروف في الشرق الاوسط. ولقد اضطّرت الحكومة العراقية في الثلاثينات الى الدخول في معركة دامية لتجبر رجال القبائل على الاكتتاب في الجندية. قيل ان احد الاطباء كاد ييأس، بعد اللجوء الى جميع الوسائل المتاحة، من توليد امرأة فات ميعاد ولادتها. وفيما هو يصغي بسماعته الى تحركات الجنين سمعه يسأل: هل اعلنوا عن تجنيد مواليد ١٩٧٠؟

لقد حشدت السلطة جميع وسائل الاعلام لتصحيح هذا الموقف من التجنيد، ولابراز دور الجيش الوطني كقوة محرّرة ومدافعة عن الوطن. لكن الظرفاء رسموا له صورة مختلفة. قيل ان رجلاً في سيارة النقل العام وطأ سهواً على قدم احدهم، وبقي واقفاً عليها. وعندما فرغ صبر الرجل سأل المتجني عليه:

- تسمح تقول لي حضرتك ضابط؟
- لا
- ابوك ضابط؟
- لا
- انت متجوز بنت ضابط؟
- لا
- ما فيش عندك واحد ضابط في الجيش؟
- لا ابداً.

فانهال عليه الرجل ضرباً ولكماً

- يا ابن، الكلب، امال انت واقف على رجلي كده ليه؟

قد نضحك لمثل هذه النادرة، ونستبعد وقوعها. لكننا نقرأ في بعض التقارير الرسمية، أنّ الصحفي المصري موسى صبري، حُكِم عليه بالتوقف عن العمل، لانه انتقد تصفيفة شعر احدى مذيعات التلفاز، وهي زوجة ضابط. ان القليلين من ارباب النفوذ المعروفين بـ«الطبقة المثقّفة» والذين قدموا تضحيات كبيرة للتخلّص من الأجانب، قد ساءهم ان يروا المناصب المسترجعة من الأجانب تقع غنيمةً للقوى المسلّحة. فوصفوا المنافسين الجدد بانهم «معاقون» لا يفي بهم وصف «غير المهذّبين» او «غير المتمدنين». ورُويَ عن الحكومة الليبية انها ارادت ان ترسل احد اعضاء مجلس الثورة الى موسكو لاجراء بعض المفاوضات. لكن القائد كثيراً ما اوقع الحكومة في مشاكل دبلوماسية بسبب تزمّته في المحافظة على شروط الطعام الاسلامية، لاسيما المحرم منها. فقيل له: بالله عليك لا تزِدْ في مضايقة مضيفك، كُلْ كُلَّ ما يُقَدَّم اليك! وعند وصوله قدمت اليه باقة من الزهور فأكلها... وفي رواية اخرى انه همّ بالوقوف على طاولة من خشب الماهوغاني صقيلة، لابدال مصباح كهربائي، فأشار عليه القذّافي ان يضع جريدة على الطاولة ليقف عليها فاجابه: لا حاجة بي الى الجريدة فطول قامتي كافٍ للوصول الى المصباح...!

قيل إنّ وزيراً عربياً كان يشترك في جنازة زعيم سوفييتي فدهش عندما رأى

المحزونين بعد الدفن يجتمعون على كأس فودكا، وسأل سفير بلاده في موسكو، وهو عسكري سابق، عن تفسيره لهذه الظاهرة، فقال له السفير: العادة في روسيا انهم يشربون الفودكا على صحة المتوفّى!

في اثناء مؤتمر باندونغ في الهند طلب نهرو رئيس الوزارة الهندية من عبد الحكيم عامر ان يلفت نظر الرئيس عبد الناصر الى امور تتعلق بدول عدم الانحياز، فوعده خيراً. وفي المطار عاد فذكّره بما كلفه به:

- لا تنسَ ان تقدم رجائي الى الرئيس ناصر.
- كيف انسى؟ يعني انت فاكرني هندي؟

ولقد شاعت هذه النادرة لعذوبة عفويتها فنسبتها بعض الدول الاخرى الى قائدي جيوشها.

ظرفاء مصر لا يزالون يتدارسون معالم حياة الرئيس حسني مبارك، الطيار السابق في الاسطول الجوّي الحربي. لكنّ المحاولات الاولى تضعه في نصاب سائر العساكر. وكان يعي ضعف امكاناته الخطابية، فدعا امين سره وكلفه بكتابة خطاب يستغرق خمس دقائق، ففعل. فاخذه منه واخذ يعيد قراءته ويتدرّب على القائه. ثم دعا امين سرّه ثانية وقال له:

- طلبت منك خطاباً لخمس دقائق
- نعم، وهذا لا يستغرق اكثر من خمس دقائق
- بل انه يستغرق عشرين دقيقة بالضبط.
- عفواً سيادة الرئيس هذه اربع نسخ من خطاب الخمس دقائق.

عندما كانت مصر البلد العربي الوحيد الخاضع للحكم العسكري، لم تكن الشؤون العامّة بالغة السوء. ولكن عندما غدا كل بلد عربي تقريباً تحت حكم العسكريين، اصبح الوضع بالغ الفوضى. فقد انطلقت الفوضى بثورة قاسم على ملك العراق، وسرت منه الى دول عربية اخرى. وعندما تسلّم قاسم الحكم انشأ صلة صداقة حميمة بالسيد نتشكين، السكريتير الاول في السفارة الروسية في بغداد. وفيما كانا يوماً على انفراد في وزارة الدفاع، ارتفع صوت المؤذّن داعياً الى اداء فريضة الصلاة. فنهض نتشكين قاطعاً الحديث، احتراماً منه لواجب الصلاة. فدهش قاسم وقال لصديقه:

- انا أكبر هذا الاحترام للصلاة من رجل ملحد.

ـ نعم، كنت ملحداً طول حياتي، لكنني منذ جئت الى هذا البلد بدأت أؤمن بوجود الله، والا فكيف نعلّل سير اي عمل من الاعمال في هذا البلد؟

ولقد اصطدم نظام قاسم العسكري بنظام عبد الناصر العسكري ومؤيّديه من البعثيين. وبهذا الاصطدام، بلغ التهكّم السياسي اوجه في العصر الحديث. فمن الحكايات التي شاعت آنذاك، قصّة اللص الذي طارده الشرطي في «بازار شورجا»، فكان يصرخ بالجموع التي تطارده بالحبال «لتسحله»: يا ناس، انا لصّ، انا لصّ فقط، ولست بعثيًّا... ثم ان اقبح الرسوم الهزلية، واشدّ النكات لذعاً واكثر القصائد اقذاعاً ملأت جدران المدارس والكليات والمقاهي وقاعات السينما ومخازن بغداد. ولكن لم يكن في ذلك كلّه من هذا النوع من الظرف الفاجر ما يوازي الذي جرى في محكمة الشعب الخاصّة بالعقيد فاضل مهداوي، التي سمّاها خصوم قاسم بـ«السرك». فالمهداوي، رئيس المحكمة، كان ذا ميل الى الادب. وقد نظم شيئاً من الشعر لم يجد طريقه الى المطبعة. على ان محكمة الشعب اتاحت له فرصة العمر لعرض بضاعته، عن طريق الانغماس في الظرف «السادي» (التلذّذ بالقسوة) على حساب المتّهم.

ومنذ ظهور محكمة الشعب في بغداد، أُنشئت محاكم عسكرية في اكثر البلدان العربية تتشدّد بالاحكام العادلة، وتتسامح بالاحكام الظالمة. وقد درج العسكريّون على محاكمة موقوفيهم باستطلاع نواياهم وضمائرهم، وافكارهم وتصوّراتهم. مما غذّى العديد من انواع المسرحيات المبتذلة. ففي مسرحية من مشهد واحد، كتبها يوسف العاني بعنوان «راس الشليلة» يحكم القاضي العسكري حكماً في منتهى الغرابة على جمع من المعتقلين فيه ان: كل الواقفين الى يسار الرجل «باليشمق» يحكم عليهم بثلاث سنوات حبس مع الاشغال الشاقّة، وجميع الذين الى يمينه يحكمون بسبع سنوات مع الاشغال الشاقّة.

على ان العديد من هؤلاء القضاة العسكريين وجدوا انفسهم احياناً في مأزق مربك ومحيّر. قيل عن محام إنه اوصى القاضي، بحكم الصداقة، ان يخفف الحكم على موكّله، فوعده بذلك. لكن القضية التبست عليه باخرى، وحكم على المتهم بعشر سنوات. فعاتبه المحامي، بعد الجلسة، بقوله:

ـ ماذا فعلت؟ اين وعدك؟ حكمت موكلي بعشر سنوات؟

ـ متأسّف! إلتبس عليّ الامر، لك في ذمتي عشر سنوات سأحسمها لك من حكمي على موكلك التالي!

لا شك ان الناس لا يتناقلون هذه الاحداث على انها نكات، بل على انها وقائع فعلية. وهي كذلك في حالات كثيرة، كما في محكمة المهداوي الشعبية. ولكل منا ملء الحرية في التفسير والتنظير. لكنّ القطعة التالية نص طبق الاصل عن مرسوم صدر بالعفو الخاص عن فارّين من الجندية، جاء فيه:

أ ـ اولئك الذين ارتكبوا جرم الهروب او التغيّب، ولم ينضمُّوا الى وحداتهم في فترة العمل بهذا القرار ينفّذ فيهم حكم الاعدام عقاباً لهم.

ب ـ اولئك الذين ارتكبوا جرم التغيّب لمدة تزيد عن خمسة ايام بدون سبب شرعي، او جرم الفرار من الجندية. ينالون العقاب نفسه.

جـ ـ العقاب يجب ان يضاعف بحق اولئك الذين ارتكبوا جرم التخلف او الامتناع عن الالتحاق بوحداتهم في المدة المعينة...!

كثيرة هي النكات التي اطلقت على العدالة العسكرية، منها تلك التي رويت عن رجل يعدو مسرعاً الى بيته، فسأله جاره:

ـ لماذا تجري بهذه السرعة، يا احمد؟
ـ ألم تسمع؟ لقد صدر امر بقطع يد من له ست اصابع.
ـ ومما تخاف؟ اصابعك خمس في كل يد.
ـ لكنهم هنا يقطعون اولاً ثم يعدّون!

وقصّة الثعلب والذئب القديمة، عادت الى الحياة في عهد عبد الناصر. فقد رأى الذئب ثعلباً يجري مسرعاً نحو الحدود السودانية فسأله:

ـ لماذا تجري مسرعاً نحو السودان يا صديقي؟
ـ يوجد نقص في اللحم فتقرّر ذبح جميع الثيران.
ـ لكنك لست ثوراً.
ـ لا، لكنني قبل ان اتمكّن من اقناع الجند بانني لست ثوراً، يكون جلدي قد اصبح في المدبغة؟

ان كلّاً منا، في ظل الحكم العسكري، مهدّد بالموت، ان لم تكن له نباهة الثعلب، اذ ربما وقع له ما وقع لشابٍّ مسكين، لم يحسب لنظام منع التجول حساباً جديًّا فقتل برصاص المراقب. وكان ذلك بمشهد من الضابط فسأل المراقب:

ـ لماذا قتلت هذا الشاب؟

ـ لانه خالف نظام منع التجول.
ـ لكنْ ميعاد منع التجول يبدأ بعد نصف ساعة!
ـ نعم، ولكنني اعرف بيت هذا الشاب، انه في الضاحية ولا يمكن ان يصل اليه قبل مضي ساعة!

إن ظاهرة الظرف في نظام قاسم، وفي محكمة المهداوي، لم تَفُتْ الكاتب المسرحي الحضرمي، علي احمد بكثير، الذي سخر من النظام العراقي برمته، في مسرحيته: «الزعيم الأوحد». ففيها ان الملازمين في جيش «الزعيم الأوحد» (الجنرال قاسم) تنبّهوا الى وجوب اعداد تدابير تضمن سلامته. فقرّروا التفتيش عن شبيه له يمثله، ويستخدم بديلاً منه لتضليل المتآمرين، فلم يجدوا ضالّتهم الا في ماسح احذية اسمه قزمان. ويرفض «الزعيم» اولاً ان يمثّله ماسح احذية، لكنه يرضى بعد ان يؤكّدوا له ان الشبه تام «حذوَ النعل بالنعل» والمصادفة لا تتكرّر! فيأخذون في تعليم ماسح الأحذية جميع المراسم، وكافّة ممارسات الحكومة، بما فيها الخطابة التي تثير الجماهير! ويدرّبون الزعيم في الوقت نفسه على مسح الأحذية على انواعها، الآتية اليه من الشرق او من الغرب. لكنّ ماسح الأحذية الجديد يصرُّ على ان يخاطب كما لو كان «الزعيم الأوحد» قبل مباشرة المسح. فيقول الياور (وصفي طاهر) مثلاً:

«يا زعيمنا الملهم، يا منقذ العرب، يا مهدينا المنتظر؛ ايها العبقري الفذّ، يا صانع تاريخ العرب، ايها الجبار الذي لا يقهر، والداهية البعيد النظر، ايها الزعيم الذي يكسف نوره الشمس، ويخسف ضوؤه الكواكب، يا قاهر الاستعمار وحامي الديار، اتوسّل اليك ان تمسح عن حذائي التراب، كما مسحت عن الأمة العربية غبار الرجعية والهوان».

وهكذا يتقن كل من «الزعيم الأوحد» وشبيهه «ماسح الأحذية» عمله الجديد. قزمان يمضي في انجاز مهام الدولة، وحضور الدعوات والمآدب، والزعيم يمسح الأحذية بمنتهى التواضع، حتى تعذّر على اقرب المقربين تمييز الواحد من الآخر. وتفادياً لوقوع زوجة الزعيم في التباس بشأن زوجها الحقيقي، اشار هذا الى علامة فارقة له هي اثر عضّة في اذنه اليُمنى. وتنتهي هذه المسرحية، التي عُنيت بالاتّهامات السياسية اكثر منها بالظرف الخارق، بحصول انقلاب عسكري، يعتقل على أثره الزعيم ويُشنق امام وزارة الدفاع. ولكن لا يدرى هل المشنوق هو «الزعيم الأوحد» الحقيقي، ام هو ماسح الأحذية قزمان؟ اما الزوجة فتعرفه من اثر العضّة في أذنه اليمنى. على ان بكثير، مؤلف المسرحية يبقي مصير القوّاد العسكريين في ابهام مخيف، فيشير في اواخر المسرحية الى ان الزعيم اخطأ في تعيين موضع العلامة الفارقة، ويختم المؤلف المسرحية بالعبارة

التالية على لسان القرداوي (اي المهداوي): «ألم أقلْ لكم يا سادة، ان الواقع كلّه انقلب الى نكتة؟»

بل بالعكس، فقد اثبت التاريخ أنّ النكتة هي التي انقلبت الى واقع، عندما تحقّق الحدث الكبير في ختام المسرحية، في شهر فبراير (شباط) ١٩٦٣، اذ اغارت وحدات اخرى من الجيش بقيادة زعماء حزب البعث على بغداد، واعدمت «الزعيم الأوحد» الحقيقي في وزارة الدفاع. ولقد فتح هذا الحادث الجلل، الباب واسعاً لعهد جديد من الانقلابات العسكرية المتتالية في العراق كما في سورية، صممتها فروع مختلفة من هذا الحزب بعضها على بعض. ولقد «دشّن» البعثيون حكمهم بتصفية الحساب مع الشيوعيين، مكافحيهم السابقين، فأطلق الشيوعيون حرباً شعواء على البعثيين في كل مكان. وفي روسيا طلب الرفاق العراقيون من امام مسجد لينتغراد ان يشجب حزب البعث في خطبة الجمعة. واذ أصغى الشيخ الطيّب، إمام اوزباكستان، الى الفظائع التي رويت عن البعثيين، صاح مرتاعاً: قسماً بالله، إن هؤلاء البعثيين هم حتماً اسوأ وأدهى من الشيوعيّين!

عندما رويت النادرة التالية للرئيس العراقي، قيل لي انه اغرب في الضحك. وكان قد انتهج سياسة الشدة في شؤون الأمن. وفي الحكاية ان رجلاً مثل بعد موته امام ملاكي الموت: منكر ونكير فسألاه:

- ما دينك؟
- البعث
- من هو الملك؟
- ميشال عفلق
- من نبيّك؟
- الرئيس البكر

فدهش الملاكان لأنهما لم يسمعا بهذا الدين ولا هذا النبي، وجاءا بالرجل الى الله سبحانه وتعالى ورويا له ما قال، فسأله بدوره:

- ما هو دينك؟
- الاسلام
- من هو الملك؟
- الله، لا اله الا هو

- من نبيّك
- سيدنا محمد

فتعجّب منه وقال له:

- عجباً لماذا لم تقل ذلك بصراحة للملاكين؟
- ظننتهما من مفتشي الأمن العام!

ويقال ان السلطة في سورية درجت على مكافأة كبار رجال الحزب بسيّارات مرسيدس. قيل عن سوري زار مدينة هامبورغ في المانيا، وشاهد سيارات المرسيدس تملأ الشوارع، أنّه قال: لا شكّ ان حزب البعث واسع الانتشار في هذه المدينة.

ان الحادث الذي روّع سورية، وصدم العالم باسره، هو تدمير مدينة حماه منافسة دمشق بقدمها. فقد التقى فيها حمويّ بدمشقي فقال له:

- ان مدينتنا قد دخلت سجلّات التاريخ.
- صحيح، لكنها سقطت من الجغرافيا ومسحت من الخارطة.

ان السلطة العسكرية التي تسلمت البلاد لتحارب الفساد، كما ادّعت، لم تنجح الا في توسيع نطاقه، وذلك بفضل قمع الانتقاد، واخراس الصحف. ففي عرض عسكري، عجب الناس كيف ان الكلاب البوليسية توجّهت بأنوفها نحو منصّة الرئاسة بكلمة همسها مدربها في اذانها، فسأله احد المشاهدين:

- ماذا قلت للكلاب حتى اتخذت هذا الموقف الواحد؟
- الكلمة التي تدرّبوا عليها
- وما هي هذه الكلمة السحرية؟
- اللصوص!

وجاء في نادرة اخرى ان السادات انضمّ الى كارتر وبريجنيف في رحلة صاروخية حول العالم. فقال كارتر بعد حين: نحن الأن فوق واشنطون. فسأله رفيقاه: كيف عرفت؟ فاجابهما: انظرا الى ساعتي كيف ترسل شعاعاً اخضر، ان مصدره البيت الأبيض. وبعد قليل قال بريجنيف: يبدو اننا فوق موسكو. فسئل كيف عرف ذلك فأجاب: اسمعا ساعتي تعزف النشيد الأممي فهو يبثّ من موسكو. واخيراً قال السادات: نحن ولا شك فوق القاهرة. ولما سئل كيف عرف ذلك مد يساره وكشف عن معصمه العاري، وقال: نُشِلَتْ ساعتي!

كان العسكريّون بعد كل انتصار يستولون على كل ما يشتهون. اضخم المرتّبات، اجمل النساء، ارفع المناصب، اشرف المراتب، ولم يعفّوا عن اعلى الشهادات الجامعية! لكنّ احدهم بقي مع ذلك تعيساً، لأن ابنه احرز في امتحانه ٩٩ من مئة فقط. فانتهره ابوه قائلاً:

ـ لماذا لم تحرز علامة كاملة؟

ـ الذنب ليس ذنبي. وانما هو ذنب الذين منعوني من تقديم الامتحان!

من الحكّام العسكريين الذين ابانوا عن موهبة نادرة في الظرف، الرئيس جعفر النميري، حاكم السودان. فقد كان يلذّ له الحوار مع اصدقائه وخصومه. ففي اضراب عام ١٩٨٢ استقبل وفداً من اتحادات التجار لمناقشة شكايات المضربين وطلبات زيادة الأجور. فركّز ممثلهم على الضائقة الاقتصادية، وفقدان ضروريات العيش من الأسواق: فلا زيوت، ولا حبوب، ولا سكر، ولا بطاطا ولا لحوم. ولا أي حاجة. فأجابهم الرئيس النميري «طب هم حيعملوا ايه بزيادة الأجور؟ ومن هذا القبيل جواب توفيق السويدي، عندما طالب الموظفون المدنيّون بزيادة الأجور، اذ اجاب رئيس الوزارة بقوله: على ايش تعطيهم زيادة حتى يسكروا بيها ويسبوني؟

وفي حادثة مؤسفة لسياسي منكود الحظ ادّت به الى السجن، زار احد الوزراء الرئيس النميري ليتوسط للسياسي السجين، فأكّد له ان السجين مواطن صالح ومخلص. قال له:

ـ قبل اسبوع من اعتقاله، يا سيادة الرئيس، كان في زمرة من خصومك يدافع عنك وينفي ما يقولونه عنك من امور خبيثة وشائنة.

ـ هو الراجل قاعد يعمل ايه مع خصومي؟

ومهما يكن من امر، فان واحدنا ليعجب من تحوّل النميري المفاجىء، ذات يوم، الى الاصولية الاسلامية، إلّا ان يكون امتداداً لاحساسه الدعابي، جاء مقروناً بتحطيم زجاجات الكحول! الا ان احد موظفي الجمارك دهش عندما شاهد اكداساً من صناديق زجاجات الوسكي J & B سليمة في ركن من المستودع. وعندما سأل الحمّالين لماذا لم يحطموها، اجابوه: الا ترى توقيع اسمه عليها بالحروف الأولى J & B (جعفر وبثينة نميري)؟

ان عاصفة غسل الدماغ التي فجّرها النميري، احزنت الكثيرين من ابناء الطبقة

المتوسطة من السودانيين. ولم يجدوا تعبيراً عن مشاعرهم ابلغ من نادرة متاحيم يبغون، وفيها ان روسياً وانكليزياً واميركياً وسودانياً القوا في جهنم، وارادوا ان يتصلوا بزوجاتهم، فسجّل الروسي رقم منزله ودفع عشرة آلاف روبل وكلّم زوجته، وتلاه الانكليزي فسجل رقمه ودفع الف جنيه واجرى مكالمته. وفعل الاميركي فعلهما ودفع الفي دولار. اما السوداني فلم تكلفه المكالمة الى الخرطوم سوى ثلاثة قروش. واذ عجبوا لذلك اجابهم ان مكالمته محلية داخلية!

ان الحروب التي شغلت العرب، دعت الى مزيد من ظرف الأوروبيين، سواء في مغامرة عبد الناصر في اليمن، او سفك الدماء بين الاخوة في لبنان، او على الحدود العراقية الايرانية. حيث تطوّع الاكراد للقتال مع الجميع وضد الجميع. ولم يكن موقفهم هذا اوضح منه مما في النادرة التي روت ان احد ابنائهم المقاتلين اسقط للايرانيين ثلاث طائرات من موقعه في قمة عالية. فدعاه صدام حسين الى قصره وكرّمه وزين صدره بالأوسمة، ثم سأله:

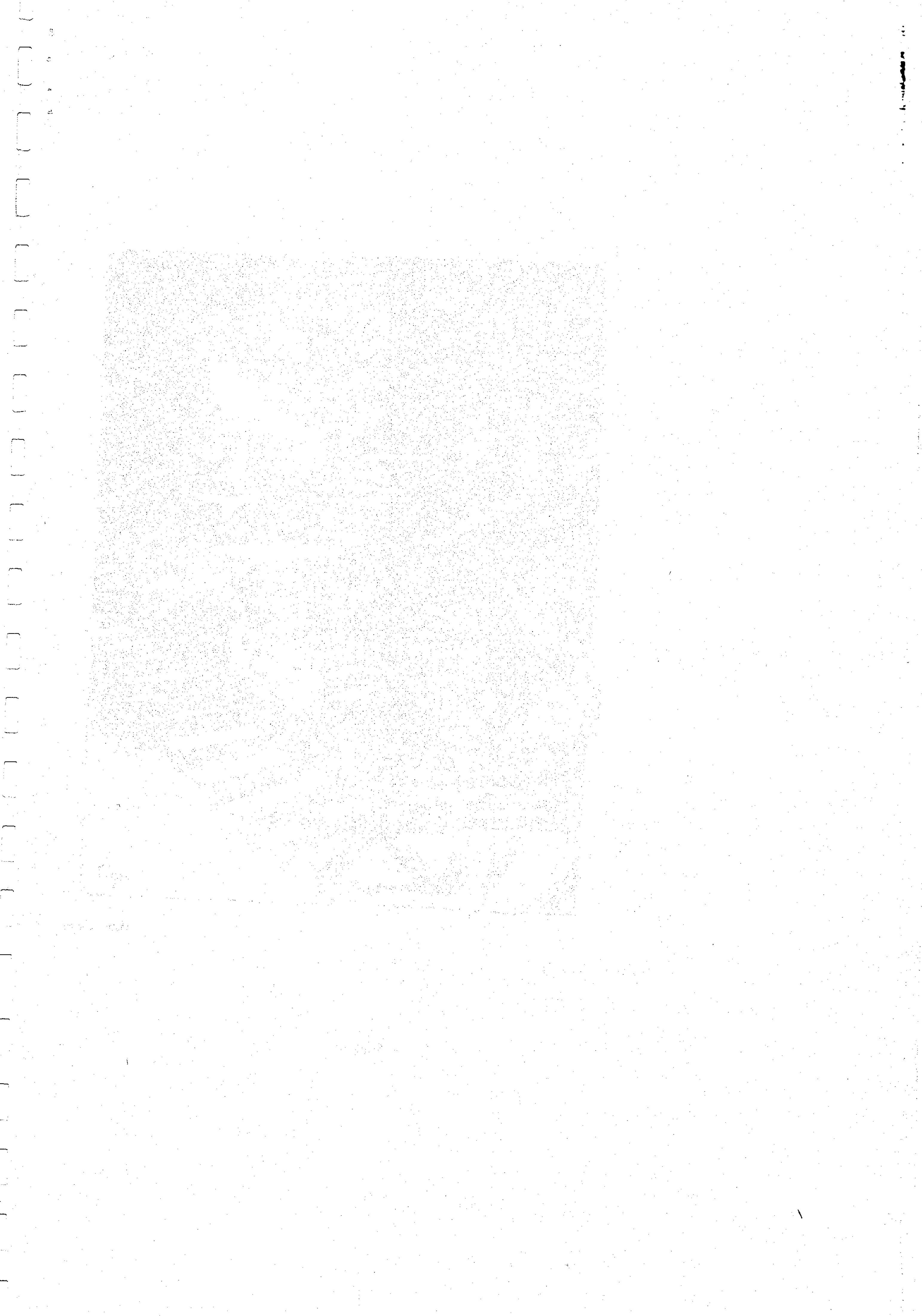
- كيف استطعت اسقاط ثلاث طائرات بهذه البندقية العادية؟
- هذا ليس بالامر الكبير، فقد اسقطت بها قبلاً خمساً من الطائرات العراقية!

ولقد حاولت ان اتبيّن اي نوع من النكات كان بامكان حملة البنادق ان يلفقوا بحق اصحاب الأقلام، فلم اظفر بطائل. فلعل البندقية تغني العسكريين عن تكلف الظرف!



حبيب حداد

«المستقبل» ١٩٨٣



الفصل التاسع

الشعراء الشعبيون

... إنّ النادرة الباردة جدّاً قد تكون اطيب من النادرة الحارّة جدّاً، وإنّما الكرب الذي يختم على القلوب، ويأخذ بالانفاس، النادرة الفاترة، التي لا هي حارّة ولا باردة...

الجاحظ

المعروف اليوم بـ«العربية الفصحى» هو أساساً اللغة التي كانت متداولة من نحو اربعة عشر قرناً، والتي حُفِظَتْ حيةً بمجملها، عبر هذا الزمان الطويل، بعامل حتمي هو القرآن الكريم. على ان ذلك لم يمنع جمهور الشعب من انشاء لغته اليومية الخاصة، استجابة للمتغيّرات التي طرأت على الحياة عبر تلك القرون، مما ادّى الى اتساع في الشقّة، ما بين العربية المحكية والعربية المكتوبة، يزيد على ما بين اي فرعين من فروع اكثر اللغات الأخرى. وهذا الوضع خلّف للمسرحيين والقصصيين والمخرجين، وكتّاب نصوص الأشرطة الاذاعية، معضلة هائلة في كل حين. فالشعراء، والحالة هذه، يتلقّون الهامهم من اناس يبعدون عنهم قروناً كثيرة (باعتبار الأصوليين)، او أُلوفاً من الأميال (باعتبار العصرانيين) في الغرب، اكثر مما يتلقونه من اقوام يعيشون في جوارهم. لذلك جاء ادبهم غريباً عن العوامّ الذين انما يجدون متعتهم الفنيّة في الشعر المنظوم بلهجتهم المحكية ـ لأنه معبّر وغنيّ بالمعاني ونابض بالحياة.

فمن عهد شكسبير، الى عصر جورج برنارد شو، درج كتّاب المشاهد الهزلية على الاستعانة باللهجة العاميّة وحمل ملايين المشاهدين على الضحك، بمجرّد اقحام لغة العوامّ في حوارهم «الفصيح». والعرب لم يشذّوا عن هذه القاعدة. لذلك نجد الشيخ البشري، مع اعتماده الفصحى في كتاباته الجديّة، ينبّه الى ان النكتة الشعبية اذا نقلت

الى الفصحى، ففقدت رونقها، وغدت كلاماً اجوف. والبشري في قوله هذا يجري في ركاب معلمه الكبير ابي عمرو الجاحظ، احد ادباء القرن التاسع، حيث قال:

«... وقد يُحتاج الى السخيف في بعض المواضع، وربما امتع باكثر من امتاع الجزل الفخم من الألفاظ والشريف الكريم من المعاني، كما ان النادرة الباردة جداً قد تكون اطيب من النادرة الحارّة جداً، وانما الكرب الذي يختم على القلوب، ويأخذ بالأنفاس، النادرة الفاترة التي لا هي حارّة ولا باردة. وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط. وانما الشأن في الحارّ جداً والبارد جداً».

ومن الجدير بالإشارة أنّ صحف القاهرة الكبرى، عندما ظهرت في القرن التاسع عشر، منعتها السلطة من معالجة الموضوعات السياسية باللغة الدارجة. ونحن نتساءل اليوم: هل جاء قرار السلطة هذا بدافع من احترامها واكبارها للشؤون السياسية، ام لخوفها من جعل القضايا السياسية في متناول جمهور العوامّ؟ ومن الأهمية بمكان ايضاً أنّ الصحف التي عنيت بنشر الانتقادات والدعابات باللهجة العامية، عانت من الضغط والقمع اكثر من سائر الجرائد العادية. وهذا كان شأن جميع البلدان العربية التي صدرت فيها صحف باللغة العاميّة.

بيرم التونسي

ولا ريب في ان الشعر يحلّ محلاً اساسياً في التراث الشعبي عند جميع الأمم. وللعرب مبرّر أقوى لرفعه الى هذا المصاف. فمنذ انطلاقة الصحافة الهزلية الأولى، كان الزجل والموّال والعتابا والقصيدة، وسواها من انواع الشعر العاميّ، باباً اساسياً في اية منشورة هزلية. والكثيرون من ناظمي هذا النوع من الشعر احرزوا شهرة واسعة في اوساط المتعلّمين والأمّيين على السواء. من بين هؤلاء الشعراء برز الشاعر الشعبي الذي لا يبارى، بيرم التونسي. الذي اثّر بنمط شعره وتوجّهه السياسي في اكثر شعراء العرب الشعبيين.

ولد بيرم في تونس، وانتقل عاملاً الى فرنسا، قبل ان يستقر في مصر. وقد كان ثورويّاً، ودوليّاً، واشتراكيّاً، على طريقته الخاصّة، كما قد يتوقّع من فنّان ملهم. لكنه خلافاً لمثيري الحركات السياسية في ايامه، لم يرَ في الاستعمار العاملَ الأولَ في مشاكل الشرق الأوسط، بل ركّز اهتمامه على المفاسد المحلية الناجمة عن سوء التنظيم الاجتماعي - السياسي في البلاد. وقد كانت مواضيعه في الغالب اجتماعية، لكنه انغمس احياناً في قضايا سياسية غاية في الحساسية، كما في تعريضه بالاسرة المالكة في مصر، باثارة

موضوع بالغ الحساسية في الوسط الاسلامي المعاصر، هو ان الملك فؤاد تزوج من زوجته وهي حبلى، وان الملك فاروق ولد بعد هذا الزواج باربعة اشهر؛ قال بالمناسبة:

الـوزّة قـبـل الـفـرح مـذبـوحـة
والـسـكّـة قـبـل الـنـظام مـفـتـوحـة
ولما قـالـوا تجـوّزت المـفـضـوحـة
قلت اسكـتـوا خـلّوا الـبـنـيّـة مـسـتـورة.

وسرعان ما اصبح مطلع هذه الأبيات على كل لسان! وكان جزاؤه عليها ضرباً ولكماً بيد عملاء السلطة. لكن ذلك لم يردعه، بل اتبعها باخرى نال فيها من الملك فؤاد ثانية حيث قال:

جـابـوك الانكليـز يـا فـؤاد وقـعّـدوك
تـتـمـثّـل عـلى الـعـرش دور الملوك
وخـلّوك تـرمي الـشرّ بـأمة ابـوك
مـين مـثـلـك يـلاقـو مـغـفّـل ودون

واذ يئست السلطة من اسكاته او اصلاحه بالضرب، اعتقلته وطردته من مصر. فقادته قدماه بعد حين الى مسقط رأسه تونس. لكنّ قومه لم يكونوا ارأف به من الغرباء. وفي ذلك يقول:

المـغـربي المـسـلـم راخـر ابـو زر فـاشـوك
لمـا انـتـقـدتـو فـزع قـلـبي يـلعـن ابـوك
وانا اللي قصـدي شـوف قيدو يـصـير مـفـكـوك
لقيتـو فـرحـان بيـه راضي طـيّـب ومـبـروك.

هاجم بيرم التونسي، بقصيدة طويلة جميع الشرور الاجتماعية، من الفساد الى المحسوبية ومظالم القضاء. وهذا مقطع منها يعرض فيه للرشوة والمرتشين.

بخمـسين قرش ترفـع مكـريفـونـك لـوجـه الـفـجـر وزيـاده شـويّـه
وخمسين قرش توضع نص درهم (من الحشيش) في جيب خصمك ترميه في بليّه
وخمـسين قـرش تـاخـدلـك شهـاده بموت خـالتك وخالتك لسّه حيّـه
وخمـسين قـرش تهـرّب اجـزخـانـه من المـسـتـشـفـيـات الـقـاهـريّـه
وخمـسين قـرش يـعـفيـك المفـتش من الغـرامات ويشطب لك قضيّـه

وخمسين قرش بيبدّل محاضر   تهمة عليك وتتحوّل عليّه
وخمسين قرش شيخ حارتك يخلّي   ولادك يهربوا من العسكريه
وخمسين قرش محفظتك تعود لك   من النشّال بالواسطة القويّه
وخمسين قرش اكتبلك مقالة   بانك من رجال العبقريه!

ان التكرار الذي يكثر في الشعر الشعبي ـ وهو صفة بارزة في الأدب العربي بوجه الاجمال ـ أغرى بيرم التونسي باستخدامه، علماً منه بتأثيره النفسي، كما يفعل كل معلّق خبير وصاحب دعاية محنّك. فهو في قصيدة اخرى منمّقة ينفث بعض سمومه، هذه المرة باللغة الفصحى، على السلطات الرسمية. اخترنا منها هذا المقطع الموجه الى المجلس البلدي، قال:

قد اوقع الحب في الأشجان والكمد   هوى حبيب يسمّى المجلس البلدي
ما شرّد النوم عن جفني القريح سوى   طيف الخيال خيال المجلس البلدي
اذا الرغيف اتى فالنصف آكله   والنصف اتركه للمجلس البلدي
وان جلست فجيبي سوف اشبكه   خوف اللصوص وخوف المجلس البلدي
وما كسوت عيالي في الشتاء ولا   في الصيف الا كسوت المجلس البلدي
كأنّ أمّي ـ بلّ الله تربتها ـ   اوصت فقالت اخوك المجلس البلدي
اخشى الزواج فإن يوم الزواج اتى   يبقى عروسي صديقي المجلس البلدي
وربما وهب الرحمن لي ولداً   في بطنها يدّعيه المجلس البلدي
يا بائع الفجل بالمليم واحدة   كم للعيال وكم للمجلس البلدي؟

والظاهر أنّ مشاكل المياه المبتذلة في القاهرة ذات تاريخ طويل يتخطّى تدفق مهجري حرب ١٩٦٧، كما يخبرنا بيرم في قصيدته التالية:

حارتنا زينة المجاري   في وسطها نهر جاري
بفضل مجلس بلدنا   وفضل فيض المجاري
وجدنا حوض للسباحه   علّم ولادنا الصراحه
وعند عرض المساحة   علّم كبارنا الكباري
وبلّاعات كنا عنها   غافلين ما نعرف مكانها
في كل بلّاعه منها   يمرق عمود السواري
فيها ابن آدم يغطس   ويفبّ ويشهق ويعطس
قبل ابن آدم ما يغطس   فيه الطلمبه البخاري

امـا اللي طـامس عنهنا	دبـان يـسـوّد مـدبنـه
قـالـوا جـايـين مكينـه	تصليحها في الورشة الجاي
والهمّـة تصبح عـظيمه	عـلى خـرابه قـديمه
كـوم الحـجـارة جـريمة	يجـي لهـا يـاور اداري
مجلس بلدنـا يـا قـاسي	بـزيـاده خـطف الكـراسي
وردهـا وانـت راسـي	خـلاّهـا مشـروع تجاري

ولقد مَدَّ الله بعمر بيرم التونسي ليرى الملك فاروق يخلع ويُنفى. فعاد الى مصر من منفاه، ونظم قصيدة بالمناسبة احتفل فيها بالحدث السعيد.

وكما كان بيرم التونسي معروفاً في مصر، هكذا غدا مُلاّ عبّود الكرخي في العراق. وهنا تنقطع المماثلة. فقد كان بيرم اشتراكياً وتقدمياً ومدينياً، فيما كان الملاّ عبود وطنياً وعنصرياً وقروياً. اما باعتبار الأسلوب والموضوع، فقد تميّز بيرم بلطف القاهريين ورقّتهم، في حين كان ملاّ عبود عنوان خشونة البغداديين وسلاطة لسانهم. واذ يمتنع علينا الاستشهاد بأيّ مقطع من شعره البذيء، نكتفي بأن ندلّل على ذلك بايراد حكايته مع الملك فيصل الأول.

فقد بدا للملك الجديد ان يكسب ودّ شعراء البلاد وكتّابها، بأن يحشدهم في مجلس النوّاب، لكنّ رئيس الوزارة، نوري السعيد، لم يطاوع الملك بشأن عبود الكرخي فاطلق عبود لسانه الخبيث هاجياً ومدّعياً بأن الشاعر الشعبي لا يقلّ في فنّه ونبل افكاره عن شعراء الفصحى. فعاد الملك يلحّ على رئيس الوزارة بأن ينصف الشاعر عبّود. وسأله ما مأخذه على شعره؟ فاضطر نوري السعيد الى ان يسيء الى احساس الملك برواية شاهد من افحش شعره. وما كاد الملك يسمع البيت الأول حتى سدَّ اذنيه بيديه وصاح: كفى... كفى...! لقد جنى الملك على نفسه، اما القارىء العزيز فلم... وعليه لا يحق لنا ان نصدع احساسه بالكشف عما روى رئيس الوزارة لصاحب الجلالة. وهكذا جلس الشاعر خائباً يندب سوء طالعه:

شاعر تـدعي تحريـر	لكنّـك دلو جـرجـير
نائب لا تظن تصير	إذا ما عندك حبايب

ولقد تميّز ملاّ عبّود الكرخي، بحكم نشأته الزراعية، باستخدام لغة الشرق الأوسط الريفية الغنيّة، والأدب الشعبي المحكي في موطنه، لا سيما الأمثال والأقاصيص الرمزية. ففي اثناء النزاع العراقي الانكليزي بشأن الانتداب، والحاح الانكليز على

رعاية شؤون العراق، نشر الكرخي قصيدته المشهورة «الذئب والكلب» سالكاً الطريقة القديمة في استخدام قصص الحيوانات للرمز بها الى افكار واغراض معيّنة. وفيها أنّ الكلب رأى الذئب جائعاً منهوكاً يائساً، فنصح له ان يرافقه الى مكان يعرفه، يتوفر فيه الطعام والأمن لهما. فتبعه اليه. لكن الذئب لاحظ في الطريق أنّ في عنق الكلب طوقاً فسأله عنه:

ـ ما هذا الذي في عنقك يا صديقي الكلب؟
ـ انه طوق لا يفارق عنقي.

وعندما فهم أنّ هذا الطوق هو للسلسلة التي يربطون بها الكلب، توقف الذئب عن السير ورفض هذه الحياة. الذئاب تفضل الجوع والتشرّد على حياة الكلاب. حياة الذلّ والقيود. وكذا ابناء العراق يفضلون الحريّة والاستقلال على الخيرات التي يعدهم بها الانكليز.

وبعد أنْ احتلّ الجيش الانكليزي العراق، اعتمد في ادارة المراكز الدنيا، المتصلة مباشرة بالجمهور، على موظفين من الهنود. لقد تحمل العراقيون وطأة الحكم البريطاني على مضض، لكنهم لم يطيقوا الخضوع للهنود. إذ طالما اعتبروهم دونهم مقاماً. وتتجلى ثورة الكرخي العنصرية في العديد من اهاجيه نختار منها قوله:

شاهدت هندي مرعبل ... يشبه الزربة على التلّ
عا التل يشبه الزربة ... ولسعته لسعة عقربة
شيل قندرتك واضربه ... على دماغه هالمرعبل
شفته جالس بالرميته ... مشبطن وذاته خبيثة
ابليس «ابو مرّة» وريثه ... استارته ومنه استحصل
من «ابو المرّة» الخيلة ... استارت الابن الشعيله
وصار للثعلب زميله ... ثعلب بعينه مكمّل
اسود وتلعف اسنونه ... بيض، ومجلّق عيونه
وخشمه افتص شبه صونه ... وكل شعر راسه مفلفل
صورته المكروهة بشعة ... والكذب سوّاه صنعة
القمل بهدومه مكدّس ... خلقته خلقة الارول

من هذا الوصف الفاجر الوقح، لا يمكننا الجزم بأن الرجل المقصود هندي. ولكن ملّا عبود يكتفي بكونه احد افراد جيش الاحتلال. وهذا يبرّر، في نظره، قول

ما قال. ثم أن الانتشار الواسع المدهش الذي حظي به شعره، اغراه بدخول عالم الصحافة عن طريق اصدار جريدة هزلية «الكرخ». ولقد اثارت هذه الجريدة، كما فعلت نظيراتها السابقات، حفيظة الحكومات المتابعة. حتى تعذر على الصحفي الشاعر أن يجد محامياً يتحمل مسؤوليتها القانونية.

كان الكرخي عراقيّاً نموذجياً بتشاؤمه ونقمته وتذمّره المتواصل، ولم تكن مغامرته في دخول عالم الصحافة إلا لتزيد وضعه سوءاً. قال في ذلك:

بالابرة أكلنا الشكي واسكتنا	وجزنا من الصدق ونريد عيشتنا
حيث الصدق سقطنا وآدنّا	والحال تلف ما نملك الأنه
مع الاخ وابن الجار عادانا	وتلتين اهل الشعب عادتنا
لعب بينا الصدق يا صاح مقروبة	متل ما يلعب الصبيان بالطوبة
لأنها دائم الأوقات منكوبة	من الكفخات يا ربي سلاوتنا

* * *

من يقدر على حلق السبع حايف	يقول ودائماً يبقى وجل خايف
انا من الآن وصاعداً اكتب سوالف	اوفق ما يسدوها لجريدتنا
اكتب متل ما يريد مني الناس	على العنقاء والسلوة والخناس
والاقرع فريج وطنطل استبناس	نستانس وهذي تصير ونستنا
اذا احكي بصراحة وصدق اتكلم	قالوا كذب هذا صرف شتم وذم
من الكرخ الجريدة جرعت كاس السم	ونجوم الضحى المشؤومة راوتنا.

ولم تقنع الحكومة بالقيود المفروضة على الصحافة، بل اصدرت قانون مطبوعات جديد زادت فيه من التضييق على الكتاب والمراسلين والمخبرين. فكان جواب الكرخي إن قال آسفاً: «غاب القط فلعب الفار» قال في ذلك:

اهنيك اضحك صار الحبل جرّار	غاب القط العب يا خنيث الفار
غاب القط عاد تنوّع بلعبك	يا خائن الأمّة واضحك بعبّك
بعده ما يعترض صحفي على كذبك	ولا سحرك ومكرك ايها المكار

* * *

خلالك يا مرائي الجو بيض واصفر	على مهلك الونس إجبر وإكسر
قمّز وعنفص وارقص، طبّل وزمّر	قتلك يا عدوّ أمل المواطن صار

ونظم قصيدة اخرى نعى فيها الحالة المؤسفة التي ادركت الصحافة العراقية، وقابلها بالحالة التي تفضلها في سورية ولبنان ومصر، قال:

كـل مـا أحب اتعـاشـر واستمـزج   مـع العالم، كـلامي لـه مـا يخرج
انـا بـالشط ويقـولـولي لا تعجّـج   اتـفقـوا حـالاً وثبتـوا عجـاجتنـا

• • •

عـن اطيـان اذا اكتب المخـزيـات   قـالـوا ليش تتعـرّض بشخصيّـات
حرت شلون اداري واكسب الراحـات   وهـذا العمـر يقضي بشغلتنـا

• • •

قلبي من الصحـافة يا عرب مجروح   ودمعي على الوجنة طافح ومسفوح
صحافة اهل مصر تكون قدوة تروح   وقـربـان ونـدر ادعـو صحـافتنـا

• • •

الكوكب والبلاغ الفضـل فيهـا يؤل   والسيـاسة وروز يـوسف وكشكـول
تنقـد في حكـومتهـا وسعـد زغلول   وتلقى دائـماً في القـاهـرة الفتنة

• • •

وجـريـدة بلبنـان عنوانها «الـدبّـور»   تلعن روح بـو الخائن من الجمهـور
لـو نحكي عشر ما نحكي كنا نزور   مقبـرة النجـف والنـاس لعنتنـا

• • •

لـو نـريـد نشر عشر من معشـار   ممـا تـنشـره الـدبـور والاخبـار
بـالقِنب كـانـوا يـركبـونـا حمـار   وذيله يسلمـونـا عـوض رشمتنـا

• • •

قـلبي امـرد مـرد اللين، واحـوالي   صفّـت تشبـه المشمش الـزردالي
لـو تـوفيـقنـا من ربـنـا عـالي   مـا كـان الصحـافة تصير حرفتنا

احمد فؤاد نجم

ظهر اسم احمد فؤاد نجم في ما اتصل بحرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧، مع اسرائيل، وما نشأ عنها. وكان هذا الشاعر الشعبي المصري قد تأثر ببيرم التونسي، فالتزم مثله بالنزعة الاشتراكية. لكنه كان عقائدياً ثورويّاً، فاعتقله جهاز امن الرئيس انور السادات عدة مرّات. فوصف بشعره الشعبي بعض ما جرى له مع هذا الجهاز. وكان احمد فؤاد نجم يضمر بغضاً عميق الجذور للبورجوازية المصرية التي ازدهرت، واثبتت وجودها في عهد الانفتاح السياسي الذي دشّنه انور السادات. ومما قاله في ذلك:

...ويمكن تشوفهم في وسط المدينة
اذا مرّ جنبك اتومبيل سفينة
قفاهم عجينة كروشهم سمينة
جلودهم بتضوّي دماغهم تخينة
اسنانهم مبارد تفوت في الجليد
ما فيش سخن، بارد يباكلوا الحديد
ما دام نهر وارد جايي من الصعيد
تزيد الموارد كروشهم بتزيد

ويهاجم في قصيدة اخرى طبقة المثقفين المدللة بقوله:

يعيش المثقّف على مقهى ريش
محلفط مزفلط كثير الكلام
عديم الممارسة عدوّ الزحام
بكام كلمة فارغة وكام اصطلاح
يفبرك حلول مشاكل قوام
ليعش المثقف!

كذلك اذاعة القاهرة، التي لعبت دوراً هاماً في السياسة العربية، فقد خصّها، فيما خصّها، بقصيدة طويلة جاء فيها:

هنا شقلبان
محطة اذاعة حلاوة زمان
من القاهرة ومن كردفان
وسائر بلاد العرب واليابان
ومن أي دار او بلد مستباحة
بحكم السياحة مع الامبركان

• • •

نقدم اليكم بكل اللغات
مراسح وسيما وجميع النغمات
صحافة ومنابر وتلفزيونات
وعظات في جوامع وجبنة وزيتون
ودائماً نلعلع في كل الحالات

• • •

ولا حد سامع ولا يحزنون
وتسمع ما تسمع دا ما يهمناش
لأن أصلاً بناكل بلاش
فخليك في حالك، وما تخليناش
نسلط عليك القلم واللسان

واحمد فؤاد نجم، كسائر العرب، ابلى شديد الاهتمام بقدوم كبار الاجانب الى البلاد، ورحّب فيهم بشعره اجمل ترحيب، فقال يوم زار نكسون مصر والسعودية واسرائيل:

شرفت يا نكسون يا ابتاع وونرغيت
عملولك قيمة وسيما سلاطين الفول والزيت
فرشولك اوسع سكة
من راس التين على مكة
وهناك تنفذ على عكا
ويقولو عليك حجّيت!

وفي قصيدة مماثلة، رحّب نجم بالرئيس الفرنسي فاليري جسكار دستان عندما زار القاهرة، جاء فيها:

فاليري جسكار دستان والست بتاعتو كمان
حا يجيب الديب من ذيله ويشبع كل جوعان
يا سلملم يا جدعان عا الناس الجنتلمان
ما احنا مسعودين وحا تبقى العشية جنان
التلفزيون حا يتلون والجمعيات حا تتكوّن
والعربيات حا تتموّن بدل البنزين برفان
وحا تحصل نهضة عظيمة وحا تبقى علينا القيمة
في المسرح او في السيما او في جنينة الحيوان

* * *

حا تبقى الاشياء زلابية ولا حاجة لسوريا وليبيا
وحا نعمل وحدة «اوروبية» مع جون بول والطليان

مظفر النواب

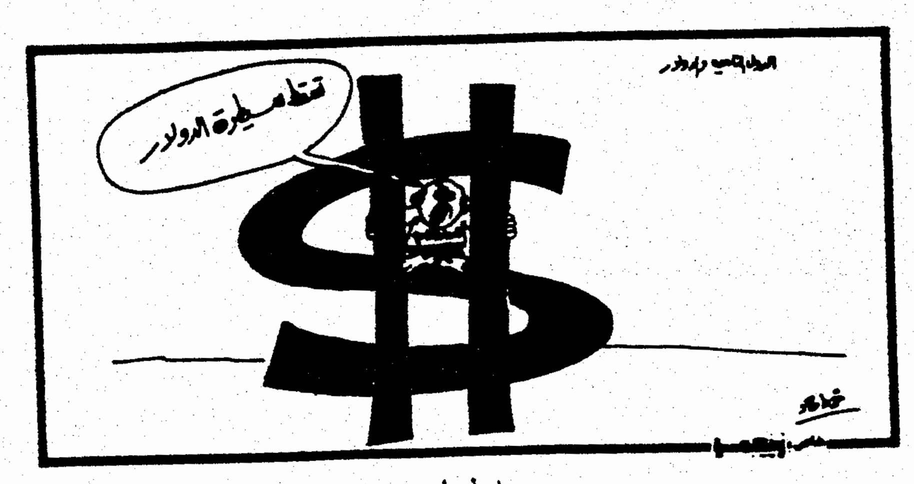
ربما كان اشهر شاعر شعبي الآن في العالم العربي مظفّر النوّاب. وهو ثوروي ماركسي، قضى في السجن عدة اعوام، باعتباره عضواً في الحزب الشيوعي العراقي. كان في شبابه معلماً، قضى بضع سنوات مجدية في تعليم ابناء الفلاحين في جنوبي العراق. وهناك تعلّم لهجتهم وتشرّب احساسهم العجيب بالشعر، واعطى امّته فنّاناً لا يقل منزلةً عن اعظم اساطين الادب العربي. ولئن كان بطبعه، في ما يعنينا، شاعراً وجدانيّاً، فانه في الدرجة الثانية ظريفاً موهوباً، تأتيه النكتة في انبجاسات عفوية، هي اقرب الى السماجة والفجور، منها الى الخفّة والتهكم. يشهد على ذلك القصيدة التي القاها في حفل حضره عدد من الوزراء وكبار موظفي الحكومة السورية في غمرة حرب ١٩٦٧ قدّمها بكلمة استهلّها بقوله: «يا اولاد القحبة...!»

إن سماع مظفّر النوّاب امتع من قراءته. ومن حسن طالعه انه عاش الى زمن «الكاسيت». فقد حفظ لنا بفضلها العديد من روائعه الممتازة. ولم يحظ كثير من الشعراء الشعبيين بمثل ما حظي هو به، فذهبت الرواية الشفوية بالكثير من دررهم

الثمينة، وساعدت في ذلك القيود التي مارستها السلطة عليهم، مما افقدنا كنوزاً ثمينة، وزاد الباحثين منا مشقّة في التنقيب والتحري.

وبهذا الاعتبار، فقد كان الممثلون الوحدانيّون (المونولوجيست) اوفر الجميع حظاً، لأنهم - في الغالب - هم الذين كتبوا شعرهم الهزلي باللهجة العامية ولحّنوه، وغنوه في الحانات أو عبر الاذاعة. ولقد اصاب بعضهم حظاً وافراً من الشهرة، كما اصاب عمر الزعني في لبنان، وقلة منهم جمعت ثروة طائلة كما جمع محمود شكوكو، واسماعيل ياسين في مصر، فيما قضى بعضهم فترات من حياتهم في السجون، كما قضى عزيز علي في العراق. وعلى اثر ثورة عبد الناصر، اعتقل شكوكو لأنه غنّى اغنية حافلة بالسخط، وكان الامر باعتقاله بمثابة حظرٍ عسكري على التمثيل الوحداني في سائر اقطار العالم العربي.

إن اللغة العربية تعتمد على سحر ما تزدان به من التناغم، والسجع، والايقاع، والتوازن الحسابي. وهذه السمات هي التي جعلت الشعر يأخذ بمشاعر العرب. على أن شعراء هذا العصر تحولوا عن هذه القيم الفنيّة، واختاروا الشعر المنثور، والقافية المطلقة. جارين في ذلك مجرى الشعراء الانكليز. لكنهم كزملائهم الانكليز، ينزلقون تباعاً نحو العزلة. ومع أنّ كثيرين منهم نظموا شعراً في حرب ١٩٦٧، فإن اية قصيدة لم تحرز من التأثير والانتشار ما احرز شعر احمد فؤاد نجم الشعبي. فهم، بداعي الابهام والغموض الغالب في شعرهم الغربيّ الطابع، الخالي من الدعابة والظرف، المتغطرس بروحه، المائع بفكره، يبدو انهم يحفرون قبراً للشعر الفصيح، بابعاده عن الكثرة غير المثقفة. وقد يجدون قريباً ان الشعر الشعبي بسلاسته الحيّة وظرفه الممتع، يحلّ تباعاً محل شعرهم الجافي المتكلّف واللاّمفهوم.



سعيد فرماوي.

«العرب» ١٩٨٥

ختام

فضائل الظرف

الضحك يمنع من اشباع النوازع البيولوجية، ويعوق الانسان عن القتل كما عن الفساد، ويحوّل الجهد الغيظ والخوف والكبرياء عن مجاريها.

سيغموند فرويد

تنبعث من الفصول السابقة صورة تكاد تكون عارية عن العالم العربي. ومضمون هذا الكتاب يشهد بأنّ العرب اشد وعياً لوضعهم المأسوي من سواهم من الامم. وهذا، بحد ذاته، دليل عافية، لان العلم بالمرض غالباً ما يساعد المريض الفطن في التماس الشفاء وصيانة العافية. والسؤال الآن: هل العربي هو ذلك المريض الفطن؟ والجواب يتوقف، من جملة ما يتوقّف عليه، على كيف يتقبّل زعماء العرب ومفكروهم الظرف البريء؟ إنّ حكام الشعوب العربية كثيراً ما رُوِّعوا ـ وليس بلا مبرر مقبول ـ من ثورة العاطفة، وبادرة الانفجار، في طبيعة رعاياهم. والظرف، كما دلّلنا تكراراً في هذا الكتاب، لا يستجيب لهذا المنحى من الشخصية الانسانية، بل يتجاوب بالاكثر مع الفكر والتعليل العقلي. وهو انما يفعل ذلك بصورة رصينة وهادئة. فواحدنا لا يستطيع أن يقتل ويضحك في وقت واحد. وهذا الواقع قد تجلّى في المدى الواسع الذي خُصِّص في هذا الكتاب لمصر وللمصريّين في ميلهم الى الفكاهة والسلامية.

إن الكتّاب والفنّانين والصحفيين كثيراً ما دُعوا لأن ينتقدوا ويناقشوا ويكشفوا، ولكن على نحوٍ رصين هادىء، خالٍ من التحدّي والاستفزاز واثارة المشاعر. فإذا قُدّر لهذا النوع من النقد البريء أنْ يوضع في اطار فنيّ يحظى بإعجاب عامّ، كان الظرف من انسب المسالك، فضلاً عن أنه يزيل عن النفس الضغوط الاجتماعية ـ السياسية، ويحررها من تعقيداتها، ويولّد فيها روحاً جديدةً من الثقة النفسيّة والنضج الفكري.

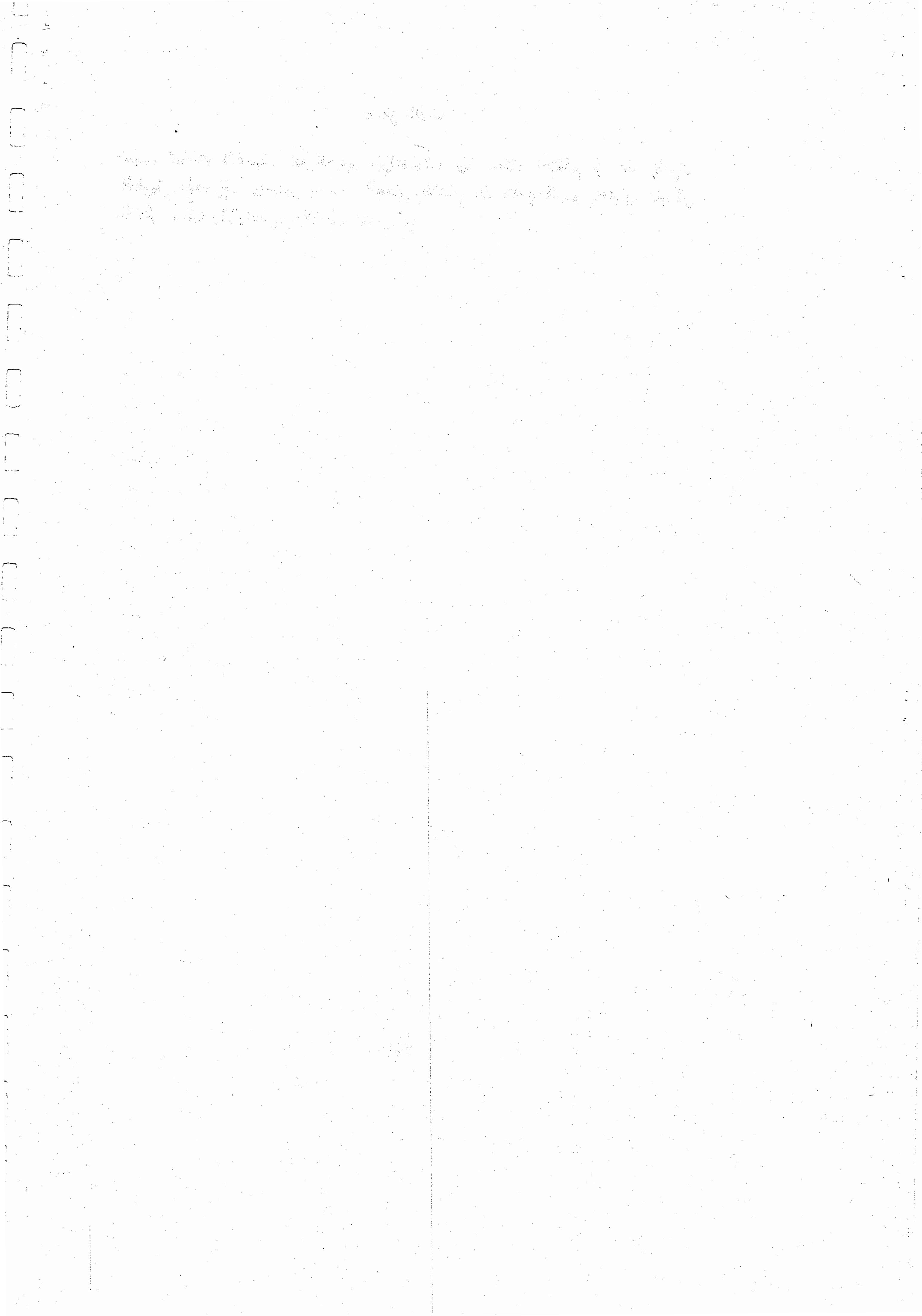
إنْ تنكّر الشعوب العربية لنظمها السياسية، الماثل في اتّهاماتها الساخرة، لا يجوز أن يموّه صورتها الحقيقية، ويحوّلها الى خليط من الظلال الدكناء التي لا تعنو للتنسيق. وانما هي جزء من مشهد عامّ، معبر عن العالم الثالث بجملته. فتبرز، بهذا الاعتبار، كبقعة من اشد بقاعه القليلة اشراقاً وتألّقاً. فليس من بلد عربي - حتى ولا في احلك ايام الطغيان المعاصر - مرّ بمثل ما يجري في نواحٍ عديدة من افريقيا واميركا اللاتينية والشرق الاقصى، بل وفي اوروبا عينها، تحت وطأة الفاشيّين والستالينيين. فليس في العالم العربي مقابر جماعية كُشِفَتْ لمئات الخصوم الذين قضوا بتصفيات عامّة، كما في اواسط اوروبا وشرقيّها، وفي كمبوديا والارجنتين. ففي البلدان العربية المستقلة لم يمت احد من الجوع، ولا اكتسحت مدنهم وقراهم الأوْبئة السارية كشيء اعتيادي. والعرب في جميع حروبهم المدمّرة ومعاركهم الدامية، اظهروا من الاحترام للمدرسة والمسجد والكنيسة والكنيس ما لم يصدر عن الالمان والبريطانيين والاميركيين في الحرب العالمية الثانية. ان هزائم العرب السياسية والعسكرية لتتقلّص الى نكسات صغيرة متى وضعت في جو اطماع الحركة الصهيونية القوية، وطموحاتها التي لا تعرف الحدود، وما تحظى به من تأييد اميركي ودعم اوروبي في تصديها للامم الناشئة في الشرق الاوسط.

إن التذمّر العربي المتواصل، انما هو دليل نضج وخبرة، ووعي للحقوق والتوقّعات القومية. أمّا تفاقم نزعة التشاؤم، وبروز ظاهرة السخرية فمردّهما، ولو جزئيّاً، الى عاملَيْ الزمان والمكان. فهم بما يجثم في خلفيّاتهم من حضارة مجيدة، وانجازات عسكرية ضخمة، لا يقوون على التوقّف عن المقارنة بين حاضرهم وماضيهم. فهذا التاريخ، الحافل بالنزاع مع شعوب اوروبا، جعلهم دوماً يوجّهون انظارهم نحو الشمال محلّلين مقارنين. فهم من اوائل ايام نهضتهم الجديدة، تشبّهوا نفسيّاً باوروبا، فلبسوا الثياب الأوروبية، واتخذوا الآلات الموسيقية الأوروبية، ورقصوا على انغام الفالتز والتانغو. حتى انهم تكلموا في بيوتهم الفرنسية بدلاً من العربية. وبلغ تشبّههم بالأوروبيين أنْ جروا مجراهم في الترفّع عن سواهم من الأسيويّين والافريقيّين.

كل هذا قد يكون طريفاً، لا ينطوي على ضرر. لكنّ الملهاة لم تلبث ان تحولت الى مأساة، عندما اخفقت المحاكاة في حقل السياسة. فما من حاجة لأكثر من بضعة ايام لتعلّم الرقص وقيادة السيارة، لكنّ واحدنا يحتاج الى اعوام من البناء النفسي لاكتناه الديمقراطية التي بنتها اوروبا عبر العديد من القرون.

ان التّوق الى بلوغ الاسمى، لدليل على عظمة الانسان، وهو - لشديد الاسف -

سبب تعاسته النفسية. إنّ العرب سيواصلون، ولا شك، نضالهم في هذا العراك الطويل المحموم. والجدير بحسّهم الدعابي القديم ان يتقدم اليهم باعتباره المسكّن الاكثر فعالية والارخص، والاسلم المتوفر لهم.



المحتويات